مِنْ أجْلِكِ يا أمتي

حوارات فكرية وتربوية هادفة

مع النفس والأسرة والمجتمع

مِنْ أجْلِكِ يا أمتي

حوارات فكرية وتربوية هادفة
مع النفس والأسرة والمجتمع

www.alhatali.com

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة ومسجلة

الطّبعة الأولى ١٤٣٩هـ ٢٠١٨م

رؤى
مؤسسة رؤى الفكرية
واتساب: ٩٧٥٤٩٢٢٣
ruaadar@gmial.com
تويتر: @ruaadar

مكتبة السيدة فاطمة الزهراء
مكتبة السيدة فاطمة الزهراء
هاتف: 92908620
25434506 92988061

تنفيذ طباعي
دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف: ٠٣/٤١٣٢٥٦- بيروت لبنان
dar.alkari2012@gmail.com

مكتبة وتسجيلات
روائع نور الاستقامة
للاستفسار والطلب ٩٩٢٥٢١٥٨- ٩٩١٨٧٨٥٤
روائع
نور الاستقامة

حقوق الطبع والتوزيع محفوظة لدى :
مركز غاية المراد للصوتيات والمرئيات
سلطنة عمان - نزوى
هاتف رقم : ٢٥٤١٠٨٧٣ - فاكس رقم : ٢٥٤١١١٩١
هاتف الإدارة : ٩٩٨٩٩٩٨٣
E-mail: ghayatalmurad@gmail.com
مكتبة وتسجيلات غاية المراد

مكتبة غاية المراد
GHAYAT AL MURAD BOOKSHOP

د. صالح بن مطر الهطالي

مِنْ أجْلِكِ يا أمتي

حوارات فكرية وتربوية هادفة
مع النفس والأسرة والمجتمع

تقديم:

فضيلة الشيخ الدكتور/ محمد بن قاسم ناصر بوحجام

رئيس جمعية التراث، ولاية غرداية، الجزائر

رؤى

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الكتاب

شكر وعرفان.. ١٣

تقديم (رسالة من فضيلة الشيخ الدكتور/محمد بن قاسم ناصر بوحجام).............. ١٥

مقدمة... ١٩

حوار مع الروح... ٢٣

الحوار الأول: التوبة النصوح والاستقامة على دين اللَّه.............................. ٢٥

الخوف من المصير الأخروي أول مراحل التوبة النصوح........................... ٢٦

الندم على الذنب من أساسيات التوبة النصوح................................... ٢٨

العمل الصالح من لوازم التوبة النصوح ٣٠

احذر أعداءك الثلاثة......... .... ٣٢

الحوار الثاني: الاهتمام بالعلم والدعوة..................................... ٣٥

الثبات على الاستقامة يحتاج إلى مواظبة وإخلاص................................ ٣٦

الحرص على نشر الخير من أساسيات الدين...................................... ٣٦

القرآن الكريم منهج حياة... ٣٧

فهم القرآن الكريم يتطلب تعلُّم علومٍ أخرى...................................... ٣٨

تبليغ هذا الدين أمانة في عنق كل مسلم.. ٣٨

العمل الجماعي في الدعوة من أساسيات هذا الدين................................ ٣٩

حوار مع الأم... ٤٣

الحوار الأول: تربية الأطفال أمانة عظيمة ٤٥
إنجاب الأطفال قد يكون سببًا في صلاح المجتمع أو شقائه ٤٧
الاعتماد على اللَّه هو الخطوة الأولى لنجاح التربية ٤٨
على الأبوين أمانة تعلُّم أساليب التربية الصحيحة ٤٩
تربية الأطفال لا تكون على حساب الدين ٤٩
الحوار الثاني: تهيئة البيئة الصالحة للطفل ٥٣
تهيئة الجو الإيماني في البيت ٥٣
تعلُّم أساليب التربية الصحيحة ٥٥
المكتبة المنزلية وأهميتها في التربية ٥٧
الدرس الأسبوعي وأهميته ٥٨
فهم الواقع وتخيُّر الصحبة الصالحة للطفل ٥٩
جهاز التلفاز وكيفية التحكُّم فيه ٦١
لُعَبُ الأطفال وأهميتها في التربية ٦٢
الحوار الثالث: أخطاء تربوية شائعة ٦٥
ظاهرة إهمال الأمهات لأولادهن ٦٥
ظاهرة العناد عند الأطفال والانفعال والعنف عند الأبوين ٦٦
ظاهرة إحراج الأطفال وإضعاف شخصيتهم ٦٨
ظاهرة فقدان العدل بين الأطفال ٧٠
العنف الأسري وتأثيره على المراهق ٧١
دور الأبوين في تلافي الأخطاء التربوية ٧٢
حوار مع الطفل ٧٥
الحوار الأول: التربية الإيمانية للطفل ٧٧
إفراد العبودية لله وحده ٧٨

محبة اللَّه هي أساس الإيمان ٧٨
محبة الرسول ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ من أهم علامات المحبة لله ٨٢
بر الوالدين من دلائل المحبة لله ٨٥
صلة الرحم والإحسان إلى الجيران وذوي القربى من دلائل المحبة لله ٨٧
شكر النعم من دلائل المحبة لله ٨٨
النفاق أسوأ من الكفر باللَّه ٨٨
الكذب كبيرة من كبائر الذنوب ٩٠
خُلْف الوعد من صفات المنافقين ٩١
خيانة الأمانة من صفات المنافقين ٩٢
الرياء هو الشرك الأصغر ٩٣
تأدية الفرائض والنوافل ٩٥
الحوار الثاني: التربية الأخلاقية والاجتماعية للطفل ٩٩
الأخلاق من ركائز ديننا الحنيف ٩٩
الأعمدة التي تقوم عليها التربية الأخلاقية ١٠١
القدوة الصالحة: أهميتها وكيفية غرسها ١٠٤
نصائح للآباء والمربِّين ١٠٧
الحوار الثالث: التربية العقلية والعلمية للطفل ١١١
التربية بالقدوة ١١٢
لا حياة للإنسان إلا بالعلم، ولا علم إلا بكثرة القراءة ١١٤
التأليف ودوره في إحياء الأمة ١١٨
المناهج الدراسية ودورها في تشكيل عقيدة الطفل وفكره ١٢٠
الحوار الرابع: بناء الشخصية القيادية لدى الطفل ١٢٣
مفهوم القيادة والقائد ١٢٣

أماكن صناعة القادة.......... ١٢٥

الاستقلالية والثقة بالنفس وتقدير الذات.......... ١٢٧

الطموح وعُلُوُّ الهمة.......... ١٢٩

قوة الشخصية وقيادة الآخرين.......... ١٣٤

أهم سمات الشخصية القيادية.......... ١٣٦

حوار مع الشاب.......... ١٣٩

الحوار الأول: أساليب الشيطان في إغواء الشباب.......... ١٤١

المعركة بين الحق والباطل.......... ١٤٢

وسائل الإعلام ودورها في إفساد الشباب والفتيات.......... ١٤٣

الدعوة إلى اللَّه واجبة على كل مسلم.......... ١٤٥

إضاعة الصلوات.......... ١٤٦

تضييع أوقات المذاكرة والإلهاء بالتلفاز.......... ١٤٨

التدخين وتعاطي المخدرات.......... ١٤٩

الاختلاط والتبرُّج.......... ١٥٠

كيفية التصدِّي للشيطان وأعوانه.......... ١٥٢

الحوار الثاني: مشاكل الشباب.......... ١٥٣

قلة الاحترام للكبار وخاصة الأبوين.......... ١٥٣

الاهتمام بإشباع رغبات النفس.......... ١٥٤

الاستخفاف بأمور الدين.......... ١٥٥

التهوُّر واللامبالاة.......... ١٥٦

التدخين وتعاطي المخدرات.......... ١٥٩

إيجاد البديل خير وسيلة لحل مشاكل الشباب.......... ١٦١

العلاقة الطيبة وسيلة للمصارحة.......... ١٦٢

حوار مع طالب الجامعة.. ١٦٧

الهمة العالية من سمات الطالب الجامعي.................................... ١٦٧

التفوُّق الدراسي من أساسيات النجاح.. ١٦٩

الطالب الجامعي ودوره في حمل رسالة الإصلاح............................ ١٧٠

الاهتمام بالفتيات من ضروريات العمل الدعوي في الجامعات............ ١٧٢

إصلاح القدوات أساس النجاح... ١٧٤

إيصال رسالة الإسلام بالكلمة المكتوبة...................................... ١٧٤

التيارات الفكرية المنحرفة وسُبُل التصدِّي لها............................. ١٧٦

التحصيل الدراسي المتدنِّي من أسباب نشر الرذائل والانحرافات الفكرية.......... ١٧٧

وسائل تمويل الأنشطة الدعوية.. ١٨٠

بناء جسور التواصل مع العلماء والدعاة في أرجاء العالم.................. ١٨٢

حوار مع مُعلِّم.. ١٨٧

من مقوِّمات المعلم الناجح التطوير المتواصل لذاته.......................... ١٨٧

المراحل الدراسية الأولى أحوج ما تكون إلى أصحاب الشهادات العليا.......... ١٩١

انتقاء المعلِّمين الأكفاء من لوازم نجاح التعليم.............................. ١٩٣

معايير انتقاء المعلِّمين الأكفاء.. ١٩٤

المقابلة والامتحان التحريري ضروريان لاكتشاف الكوادر القادرة على حمل رسالة التعليم.......... ١٩٦

التقويم المتواصل للمعلِّمين ومنح رُخَص لممارسة مهنة التعليم............ ١٩٧

الدعوة إلى اللَّه وإصلاح المجتمع من سمات المعلِّم المتميِّز.............. ١٩٩

العقبات والتحدِّيات التي يواجهها المعلِّم الناجح............................ ٢٠٢

حوار مع أستاذ الجامعة... ٢٠٧

الاستقامة الحقيقية هي التي تتجسَّد على أرض الواقع...................... ٢٠٧

البيئات الأكاديمية وما تعانيه من بُعدٍ عن منهج اللَّه.......................... ٢١٠
الشُّحُّ في الموارد المالية لدى جامعات الدول الإسلامية........................ ٢١٥
الدور المنوط بالمرأة في مرحلة التعليم الجامعي.............................. ٢١٧
ضرورة البدء بمسيرة التغيير في التعليم الجامعي............................. ٢١٩
حوار مع إمام المسجد.. ٢٢٥
إمام المسجد المخلص لا يفارقه إلا لضرورة.................................. ٢٢٦
من مهمات إمام المسجد الدعوة إلى اللَّه وتفقيه الناس في دينهم................ ٢٢٨
من مهمات إمام المسجد الاستفادة من الكوادر المؤهلة لتفعيل دور المسجد........ ٢٣٠
إمام المسجد مطالبٌ بالتفقُّه في أمور الدين والدعوة............................ ٢٣١
إمام المسجد مطالبٌ باختيار الأساليب والوسائل ذات التأثير الأكبر في نفوس الناس.. ٢٣١
من مهمات إمام المسجد الاهتمام بالجانب النسائي............................. ٢٣٢
التعاون بين أئمة المساجد ضروري لتحقيق أهداف الدعوة....................... ٢٣٣
خطبة الجمعة ودور الخطيب في إنجاحها...................................... ٢٣٤
تفعيل دور المسجد لتأدية رسالته أمانة في أعناق أئمة المساجد.................. ٢٣٥
حوار مع موظفة... ٢٣٩
ترك المرأة لبيتها والتحاقها بالعمل جريمة في حقِّ زوجها وأولادها................ ٢٣٩
العمل الوظيفي للمرأة قد يكون سببًا لخلوة المحرمة مع الرجال.................. ٢٤١
أضرار جلب الخادمات الأجنبيات.. ٢٤٢
تعلُّل الموظفة بالحاجة إلى الراتب غير صحيح أو مبالغٌ فيه...................... ٢٤٧
إعالة الزوجة والأولاد من مسؤوليات الزوج.................................. ٢٥٠
حوار مع رجل الإعلام... ٢٥٧
الحوار الأول: دور الإعلام الفاسد في تحطيم ثوابت الدين ورموز الأمة............ ٢٥٩

إيصال كلمة الحق إلى الناس من مهمات الإعلامي النزيه........................ ٢٥٩
تفاهات الإعلام المعاصر... ٢٦٠
دور الإعلام في هدم القِيَم والمبادئ.. ٢٦١
دور المسلم في التصدِّي للإعلام الفاسد.. ٢٦٣
قيام الإعلام بتشويه التعليم وتفتيت دور الأسرة.................................. ٢٦٤
التعتيم الإعلامي وتشويه الحقائق.. ٢٦٦
ممارسة الإعلام الغربي والموالي له للإرهاب...................................... ٢٦٨
الحوار الثاني: دور الإعلامي المسلم.. ٢٧١
منهج التدرُّج ودوره في الإصلاح والتغيير.. ٢٧٣
دور الإعلامي المسلم في التعامل مع المعلومات والأخبار المستقاة من وكالات الإعلام.. ٢٧٧
دور الإعلامي المسلم في طرح ومعالجة قضايا المجتمع.............................. ٢٧٨
الاستفادة من المخلصين في المجتمع في طرح وتبنِّي قضايا الأمة....................... ٢٧٩
دور الإعلام الإسلامي في تثقيف المجتمع والارتقاء به............................... ٢٨٠
حوار مع تاجر... ٢٨٣
الحوار الأول: واقع التجارة في البلدان الإسلامية.................................... ٢٨٥
انتشار البضائع المحرمة والمشبوهة في أسواق المسلمين............................ ٢٨٥
دور النصارى وغير المسلمين في جلب وبيع المحرمات.............................. ٢٨٨
من واجبات التاجر المسلم تحري الحلال في كل شيء................................ ٢٨٩
الحوار الثاني: دور التاجر المسلم في الدعوة والإصلاح.............................. ٢٩٥
جلبُ البضائع من بلدان الكفر دعمٌ لهم على حرب المسلمين........................ ٢٩٥
دور التاجر المسلم في الإصلاح والدعوة.. ٢٩٧
حوار مع طبيب... ٣٠١

الحوار الأول: الركائز العلمية والأخلاقية للطبيب المسلم ٣٠٣
التواضع والتقوى من شِيَم الطبيب الناجح ٣٠٣
الطبيب المسلم وحرصه على حياة الناس ٣٠٥
المزالق التي يتعرَّض لها طالب الطب في أيام تخصُّصه ٣٠٦
الحوار الثاني: دور الطبيب المسلم في الدعوة والإصلاح ٣١١
دور الطبيب المسلم في دعوة غير المسلمين إلى الإسلام ٣١٣
دور الطبيب المسلم في إبراز الصورة المشرقة لتاريخ المسلمين ٣١٤
دور الطبيب المسلم في عمليات الإغاثة ٣١٦
أهمية العمل المؤسسي للطبيب المسلم الداعية ٣١٧

شكر وعرفان

بحمد اللَّه ومنته وتوفيقه يَسَّر لي سبحانه وتعالى إتمام هذا العمل بعد سنوات عديدة من الكتابة والمراجعة، وما كان له أن يظهر بهذا الرونق، ويتزيَّا بهذا الجمال لولا جهود عظيمة، وأفكار قيِّمة، ونصائحَ وتوجيهاتٍ سديدة، أفاض بها عليَّ علماءُ أجلَّاء ومشائخُ كُرماء، وإخوةٌ مخلصون.

وحيث إنه « لَا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ »[1]، و ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (الرحمن: ٦٠)، لذا فإنه لا يسعني إلا أن أتقدَّم بجزيل الشكر وأعظمه، وأوفر الثناء وأعطره، إلى كل مَن أسهم في إنجاز هذا العمل المتواضع من قريبٍ أو بعيد، وأخصُّ من بينهم العالم الجليل، والداعية الرباني فضيلة الشيخ الدكتور/ محمد بن قاسم ناصر بوحجام، رئيس جمعية التراث بالقرارة بولاية غرداية الجزائرية الذي فرَّغ نفسه لمراجعة هذا العمل رغم مشاغله الكثيرة، وارتباطاته العديدة، وتفضَّل مشكورًا فقدَّم لهذا الكتاب بكلماته الرائعة، وعباراته الـمُحفِّزة، فجزاه اللَّه عني خير الجزاء.

كذلك، لا أنسى التصحيحات المهمة، والمقترحات الجليلة، والأفكار النيِّرة التي أسداها لي كل من أستاذ اللغة العربية وفارس ميدانها الأستاذ/ خالد بن هلال بن ناصر العبري والشيخ الدكتور/ عبداللَّه بن مبارك بن سيف العبري والشيخ/ سليمان بن موسى تامتلت والأستاذ/ ناصر بن زاهر بن سليمان العبري، فأجزل اللَّه لهم المثوبة، وأعظم لهم في الأجر، وأبقاهم خير هداة لخير أمة أخرجت للناس.

(١) رواه أحمد (حديث رقم: ٧٩٣٩)، وأبو داود (حديث رقم: ٤٨١١).

وأخيرًا، أتقدَّم بالشكر العميم، والثناء الجميل لزوجتي وأولادي وعموم أهلي على مساندتهم لي، ووقوفهم بجانبي، وتحمُّلهم للأوقات التي أقضيها بعيدًا عنهم، فجزاهم ربي خير الجزاء، ومنَّ عليهم بجزيل العطاء، وجعلهم لي سندًا دائمًا، ولأمة محمدﷺ ذخرًا باقيًا.

تقديم

(رسالة من فضيلة الشيخ الدكتور/ محمد بن قاسم ناصر بوحجام)

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي الفاضل الدكتور صالح بن مطر الهطالي، السلام عليكم.. حفظكم اللَّه ورعاكم، ووفَّقكم في أعمالكم، وبارك في جهودكم وجهادكم في سبيل نشر الفضيلة، وبثِّ الوعي في المجتمع، وتقديم النَّصائح لمختلف شرائحه، انطلاقًا من تجاربكم وخبراتكم، ووصولًا إلى أهداف نبيلة، وغاية واحدة، هي رضوان اللَّه تعالى.

كتابكم: **من أجلك يا أمتي «حوارات فكريَّة وتربويَّة هادفة مع النَّفس والأسرة والمجتمع)** كتاب قيِّمٌ ومهمٌّ ومفيدٌ لترشيد المسيرة، وتصحيح المفهومات، وترقية التَّفكير، وتوجيه السُّلوك.. لقد كان الكتاب شاملًا لمعظم المجالات والميادين والموضوعات.. التي تدور عليها حياة النَّاس،كما كان موجَّهًا لمختلف الأفراد والهيئات والمؤسَّسات العامَّة والخاصَّة، ومجموعة كبيرة من طبقات المجتمع التي تُشكِّل نسيجه، وتتوقَّف عليه مُكوِّناته، التي يجب أن تتحرَّك بقواعد متينة، وضوابط صارمة، وشروط صحيحة.. ليسير المجتمع نحو الرُّقيِّ والتَّطوُّر والازدهار.. بقوَّة وثبات ودراية وكفاية..

ما ميَّز هذه الحوارات ما يأتي:

١ ـ انطلقتْ من مفهوم الرِّسالة والمسؤوليَّة التي يجب أن يتحلَّى بهما كلُّ كاتب، يتصدَّى للكتابة أو يُبتلَى بها، أو تناط به.

٢ـ انبثقتْ من الواقع المعيش، وممَّا يكون في السَّاحة، وما يجول في أذهان النَّاس، وما يدور في قلوبهم.

٣ـ صُبِغتْ بصبغة التَّجربة والخبرة والممارسة الميدانيَّة، والاحتكاك المباشر بمختلف الفئات والطَّبقات التي كُتِبَ عنها في هذا الكتاب.

٤ـ توفَّر فيها أسلوب القصِّ والحوار الشَّيقيْن، اللذَّيْن جمَّلهما الخيالُ، الذي هو عنصر مهمٌّ في الكتابة الأدبيَّة بعامَّة، والأسلوب القصصي والحواري بخاصَّة، من دون الشَّطط أو التَّجاوز والتَّطاول على الحقائق والوقائع والواقعات.. ما أوجد في هذه الحوارات وَحدة نفسيَّة، كان لها تأثيرها في الوصول إلى الأهداف المنشودة منها.

٥ـ برز في الحوارات النَّقد الصَّريح والموضوعي للأوضاع وأنواع السُّلوك غير السَّويَّة، وتثمين السَّليمة منها، مع تقديم الحلول لكثير من المشاكل، وإعطاء أجوبة لكثير من الإشكالات.. ما منحَ قيمةً لمحتويات الكتاب، كما أسهم في الوصول إلى الأهداف المسطَّرة من هذه الحوارات.

٦ـ اتَّبع الكتاب منهجيَّةً رائعة في الحوار، تميَّزت بالتَّدرُّج في عرض الأفكار، واستدراج المحاوَر كي يفهم الموضوع المعروض بتوأدة، فيصل بنفسه إلى الحقائق والأهداف التي يرمي إليها الكاتب.. بعدها ونتيجة ذلك يحصل تعديل السُّلوك، أو العدول عن الأفكار التي يقصد الكاتب محاربتها أو التَّغيير فيها، كما يأتي ثمرةً لذلك وتلقائيًّا تثبيتُ التَّصرُّفات الصَّحيحة، وترسيخ الأفكار والآراء المقبولة.. هكذا يحصل الفهم والوعي والاقتناع الذَّاتي.. وتنتظم الحياة بشكل سلس ومرن، وبواقعيَّة واعتدال.

٧ـ ظهرتْ في هذه الحوارات وَحدة المرجعيَّة بقوَّة وعمق، وهي الدِّين الإسلامي، وقد ارتبطت به المنظومة الاجتماعيَّة الخاصَّة.. في هذا المظهر ينكشف وجه من وجوه الرِّساليَّة في الكتاب.

خلاصة القول، هذه الحوارات عالجتْ واقعًا معيشًا، اجتهدتْ في الإصلاح، عرضتْ أفكارًا مهمَّة، أرسلتْ تحذيرات، قدَّمتْ رسائل، اقترحتْ حلولًا، استشرفتْ المستقبل.. لكلِّ ذلك أقول: يجب الإسراع بنشر هذه الحوارات..كما أرجو أن تُقرأ قراءة فاحصة نافذة ناقدة.

أُكرِّر وأقول: هذه انطباعاتي العامَّة عن الكتاب، منها أدعو كلَّ شخص غيور على دينه ومجتمعه وشخصيَّته وهويَّته، وكلَّ محبٍّ لوطنه ومن يتحرَّك عليها، وكلَّ مَن يبغي إحراج مَن يبغي على كرامته وعزَّته ويتطاول عليهما، ويسعى أن يبقيه قابعًا في خندق التَّخلُّف والتردِّي، ويجهد نفسه أن يتركه تائهًا في الظَّلام، ويحطَّ به ويُرديه في نَفَق التِّيه والضَّلال.

أدعو كلَّ هؤلاء لقراءة هذه الحوارات، واستيعاب ما فيها من مضامين ورسائل وتحمُّل مسؤولية، واللَّه نسأل أن يوفِّقنا جميعًا للتَّحلِّي بالوعي ويرزقنا الفهم العالي، وأن يخرجنا من ظلمات الوهم، ويجنِّبنا التِّيه والضَّلال والخذلان.

نسأل اللَّه لكم التَّوفيق والمزيد من الأعمال الهادفة المسهمة في التَّوعية والتَّثقيف والتَّصحيح، إنَّه وليُّ التَّوفيق والهداية والسَّداد والرَّشاد.

الجزائر يوم الاثنين: ٣ من صفر ١٤٣٩هـ

٢٣ من أكتوبر ٢٠١٧م

الدّكتور محمد بن قاسم ناصر بوحجام

رئيس جمعيَّة التُّراث

القرارة، ولاية غرداية، الجزائر

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه الذي بنعمته تتم الصالحات، وبالعمل بطاعته تطيب الحياة وتنزل البركات، سبحانه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا ينفع ذا الجد منه الجد، لا حدَّ لأوليته، ولا أول لأزليته، ولا آخر لأبديته، ولا يفنى دوامه، ولا تحصى أنعامه، عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، وهو علام الغيوب، المدبر لكل شيء، والجامع لكل شيء، والرازق لكل حي، قدَّر الرزق المقسوم، ووقَّت الأجل المعلوم، اللَّه لا إله إلا هو الحي القيوم.

وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين، وسراجًا للمهتدين، وإمامًا للمتقين، فبلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الغمة، وجاهد في سبيل ربه حتى أتاه اليقين، صلى اللَّه عليه وسلم، وعلى آله وصحبه، وكل من اهتدى بهديه، وسار على نهجه، واسْتَنَّ بسنته، ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

أما بعد:

لا يختلف اثنان في أهمية الكلمة وما يمكن أن يكون لها من وقعٍ على النفس، وخاصة إذا تم انتقاؤها لتتواءم مع قريناتها في سياق الكلام. وإن مما يزيد الكلام جمالًا، ويعطي له تأثيرات أعمق في النفس، ما يقوم به المتكلم أو الكاتب من سبكٍ حسنٍ للكلمات والعبارات، وخاصة إذا جيء به في نَسَقٍ خاصٍّ يستطيع الغوص في جوانح النفس،

فيملؤها حيوية وسحرًا.

وفن الحوارات ليس بالجديد على الناس؛ فهم يستخدمونه فيما بينهم في غالب تعاملاتهم اليومية. لذلك، حاولتُ في هذا الكتاب استخدام هذا الفن لمعالجة بعض قضايا المجتمع، التي أحسب أنها تُشكِّل قَدْرًا لا بأس به من واقع الناس وهموم الأمة. وقد اخترتُ أسلوب التحاور مع بعض شرائح المجتمع لأُقرِّب للقارئ الواقع الذي تعيشه تلك الشرائح في مجتمعاتنا، وما فيه من إيجابيات وسلبيات.

واختياري لهذه الشرائح كنماذج لطرح أبعاد ووسائل علاج بعض قضايا المجتمع لا يعني بحالٍ أن القضايا الأخرى ليست ذات أهمية أو أنه من الصعب معالجتها أو حتى الحديث عنها. كذلك، إن الجوانب المختلفة التي ذكرتها عند طرح كل قضية لا يستثني وجود أبعاد أخرى لها. أما وسائل العلاج التي اقترحتها فهي قد تتناسب مع مجتمعات معينة ولا تتناسب بكليتها مع مجتمعات أخرى. لكنها تبقى في النهاية نماذج لأسلوب التفكير الذي علينا استخدامه في معالجة قضايانا.

وقد سعيتُ من خلال طرحي لهذه القضايا أن أضمِّن حديثي الكثير من الأساليب الدعوية التي أن يستشفها الداعية ويستفيد منها في مشوار دعوته. ولا شك أن هذه الأساليب تبقى أيضًا مجرد أطروحات، حالها كحال الأساليب التي استخدمتُها في طرح قضايا المجتمع المختلفة وسبل علاجها.

وإني لأسأل المولى ـ سبحانه وتعالى ـ أن يكتب لهذا العمل السداد والقبول، وأن يغفر لي ما يكتنفه من قصور وأخطاء، وأن يكون تشجيعًا لإخواني وأخواتي ممن يحملون همَّ الإصلاح لهذه الأمة للمبادرة الحثيثة لدراسة هذه القضايا بطريقة أفضل وأوسع، وأن يسعَوْا إلى نصرة دين اللَّه وأمة رسوله ـ محمد صلى اللَّه عليه وسلم ـ بكل ما آتاهم المولى ـ سبحانه ـ من قدرات وطاقات ومعارف. وصلى اللَّه وسلَّم على سيدنا محمد،

وعلى آله وصحبه ومَن سار على نهجهم، واتَّبع هداهم إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين.

صالح بن مطر بن محمد الهطالي

٢٩ من ربيع الأول لعام ١٤٣٩ هـ / ١٨ من ديسمبر لعام ٢٠١٧ م

www.alhatali.com

بريد التواصل: saleh@alhatali.com

حوار مع
الروح

الحوار الأول:
التوبة النصوح والاستقامة على دين الله

الساعة الآن تقترب من الثالثة قبل الفجر، وأنا لا زلتُ مستلقيًا على سريري، أشاهد بعض اللقطات المثيرة من أحد الأفلام الجنسية الذي أعارني إياه أحد أصحابي، وكنتُ قد أغلقتُ أنوار الغرفة خشية أن يشكَّ أحدٌ من أهلي في بقائي مستيقظًا إلى ذلك الوقت.

وبينما كنتُ مستغرقًا في مشاهدة ذلك الفيلم إذا بي أسمع صوتًا خافتًا يناديني: أحمد!! فقلتُ لنفسي: لا بُدَّ أن والدي أو والدتي قد اكتشفا بقائي إلى هذا الوقت!! وهنا، أغلقتُ التلفاز بسرعة، وجذبتُ اللحاف، وغطَّيتُ وجهي، وتظاهرتُ بأني مستغرقٌ في النوم!!

بعد لحظات، سمعتُ الصوتُ يأتي من جديد، وهو يقول لي: أحمد!! فقلتُ لنفسي: من الأفضل أن أردَّ على الصوت، وإلا شكَّ والدي أو والدتي في أمري. رددتُ بصوتٍ خافتٍ، وقلتُ: مَن؟!! فسمعتُ الصوتَ يقول لي: هل تسمح بلحظة أتكلم فيها معك؟!!

أصابني ذعرٌ شديدٌ مما سمعتُ، فما كانت عادة والدي أو والدتي أن يخاطباني بهذا الأسلوب، ولا في مثل هذا الوقت!! وأيضًا، فالصوتُ لا يأتي من جهة الباب، ولكني أسمعه وكأنه قريبٌ مني!! تمالكتُ نفسي، ثم قلتُ وأنا أرتجف: مَن يُكلِّمني؟!!

ردَّ عليَّ: أنا روحك!!

ما إن سمعتُ كلمة الروح حتى ارتجفتُ من شدة الخوف، فكثيرًا ما أسمع الناس يَقرِنونها بالموت!! فقلتُ لنفسي: لا بُدَّ أنه قد حان أجَلي، وأن روحي قد جاءت لتُودِّعني

قبل نزعها من جسدي!! تذكرتُ أني قبل قليل كنتُ أشاهد فيلمًا جنسيًّا، فأصابني هلعٌ وخوفٌ لا يوصفان، وبدأتُ أتذكر حياتي التي عشتُها في لهوي ومجوني ومجاهرتي لربي بالمعاصي والذنوب!!

تظاهرتُ بأني غير خائف، فقلتُ للصوت: ماذا؟!! روحي؟!! ومن أين أتيتِ؟!!

فقالت: أنا وُلِدْتُ معك، وسأبقى معك إلى أن تفارق هذه الحياة!!

تذكرتُ أنه فعلًا توجد روحٌ لكل إنسان، فقلتُ لها: وماذا تريدين مني؟!!

الخوف من المصير الأخروي أول مراحل التوبة النصوح

فقالت: أَمَا آنَ لك أن تتوب؟!! أَمَا آنَ لك أن تُقلِع عن غيِّك وفجورك؟!! ألا تخاف من بارئك الذي يراقبك وأنت تشاهد تلك الأفلام الخليعة؟!! ألا تخشى أن تنتهي حياتُك وأنت على تلك الحال؟!!

عندما سمعتُ هذه الكلمات تصدر منها، علمتُ أنه ليس هناك ما أخشاه، وأن الموت لن يأتيني الآن، وإنما هذه بعض ما يسمى بالأحاديث النفسية التي تأتي للإنسان بين حينٍ وآخر، فتُكدِّر عليه صفْوَ حياته. لذلك، لم أكترث بها، وإنما فتحتُ التلفاز مرة أخرى، وتابعتُ مشاهدة ذلك الفيلم!!

بعد لحظات، سمعتها مرة أخرى تناديني، وتقول: أحمد!!

تأفَّفتُ من هذا البلاء الذي حلَّ بي، وقلتُ لها بتضجُّر: ماذا؟!!

لم تردَّ عليَّ بكلام، وإنما سمعتُها تُردِّد قول اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ (الحديد: ١٦).

عندما سمعتُ هذه الآية لأول مرة لم أُعِرها انتباهي، وإنما كنتُ مشدودًا إلى ما أشاهده في التلفاز من لقطاتٍ مثيرة. كنتُ أحاول أن أتجاهلها، وكنتُ أضع الوسادة حول رقبتي لئلَّا أسمع حديثها، حتى وإن كانت آية من كتاب اللَّه!!

لكن شاء اللَّه أن يجعل ذلك الصَّوتَ الرنيم يصلُ إلى مسامعي، ولا أتمالك أحيانًا إلا أن أصغي إليه. خفتُ من أن تؤثر هذه الآية عليَّ، فصرختُ عليها، وقلتُ: كُفِّي كُفِّي... ماذا تريدين مني؟!!

لم تردَّ عليَّ بشيء، وإنما واصلتْ ترديد تلك الآية!! أحسستُ أنها تريد أن تخبرني بشيء، ولكنها لا تريد الحديث وأنا أشاهد ذلك الفيلم. أغلقتُ التلفاز، ثم ناديتُها: نعم!! تفضلي!! ماذا عندك؟!!

عندها، تكلمتْ فقالت: أنا خائفة عليك!!

قهقهتُ من كلامها، ثم بدأتُ أتهكَّم بها وبكلامها، وقلتُ لها: خائفة عليَّ؟!! هذا أمرٌ مضحك!! وممَّ تخافين عليَّ؟!! هل هناك ثورٌ بالخارج يريد أن يدخل عليَّ فينطحني؟!! لا، بل أظنه فيلًا ضخمًا بنابَيْن طويلين!! أو ربما هو أسدٌ هصورٌ جائع يريد أن يفترسني!! يا وقحة أخبريني ماذا تريدين، فقد نغَّصتِ عليَّ ليلتي، وحرمتِني من المتعة التي بقيت مستيقظًا من أجلها إلى هذا الوقت!!

ردَّتْ عليَّ بصوتٍ ملؤه الحزن، وقالت: بل خائفة عليك من الموت!!

عندما سمعتُ كلمة **الموت** ارتجفتُ، وبقيتُ واجمًا لا أدري ما أقول!! إنها تقول بأنها خائفة عليَّ من الموت!! أتُراها تعرف شيئًا عن موتي؟!! وماذا لو كانت محققة، وأني سأموت قريبًا؟!! ولماذا هي خائفة عليَّ؟!! وما دخلها بي؟!! ألستُ أنا الذي سيموت؟!! فلماذا جزعُها عليَّ؟!!

بقيتُ على هذه الحال لأكثر من دقيقة، أحاول أن أقول شيئًا، ولكن الكلمات تخونني!! ثم تمالكتُ نفسي، وقلتُ لها: وما دخلُكِ أنتِ بموتي وحياتي؟!! إني إلى الآن لا أدري من أين نزلتِ عليَّ، ولا مَن أرسلكِ إليَّ!! وقد كنتُ بدونِكِ على خير حال، فلما ظهرتِ عليَّ لم أسمع منكِ إلا منغِّصات الكلام ومكدِّراته!! أرجوكِ، ارحلي عني فإني في غنًى عنكِ!!

تأوَّهَتْ قليلًا، ثم قالت: إني فعلًا سأرحل عنك!! ولكنك عندها سترحل برحيلي!!

عجبتُ من هذا المنطق، فقلتُ لها ساخرًا: وما دخلي بكِ؟!! إني أعيش هنا في رَغَدٍ من العيش، ولا أريد الرحيل إلى مكان آخر، فأرجوك مرة أخرى أن تتركيني وترحلي عني!!

أحسَّتْ بأني أواصل حديثي معها بأسلوبٍ ساخرٍ، فخاطبتني هذه المرة بنبرة حادَّة، وقالت: إني عندما أرحل عنك، فحينها ستفارق أنتَ الحياة!!

هزَّتني هذه الكلمات، وقلتُ لنفسي: ماذا؟!! سأفارق الحياة؟!! هذا يعني أني سأموت!! لكني لا أريد أن أموت!! إني أريد أن أعيش وأتنعَّم بهذه الحياة!! لكني لا زلتُ لم أفهم لماذا تُذكِّرني بالموت، ولماذا تَقرُنُني معها؟ قلتُ لها: اسمعي!! أنا لا دخل لي بكِ، فارحلي متى شئتِ!! أما أنا فإني أريد أن أبقى!!

ردَّت عليَّ وصوتها يجهش بالبكاء: يا ويلي من غفلتك!! ألم تسمع قول اللَّه سبحانه: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (آل عمران: ١٨٥)؟

الندم على الذنب من أساسيات التوبة النصوح

عندما سمعتُ هذه الآية، أدركتُ حقًّا بأني سأرحل، ولكن كيف أرحل وأنا على هذه الحال من الذنوب والمعاصي؟!! أدركتُ فعلًا أني بحاجة إلى مَن يُوجِّهني وينصحني!! أدركتُ ضعفي وجهلي، فقلتُ لها بانكسار: وماذا تريدينَني أن أفعل؟!!

قالت: إني أحدثك في أمر جلَل يهمني ويهمك، فأرجوك أن تتبصَّر فيما سأقوله لك.

قلتُ لها: تفضلي!!

بدأتْ تتحدث معي بحكمة وعقلانية، فقالت: نحن نعيش في هذه الحياة متلازِمَيْن، ولا يمكن لأحدنا أن يعيش بدون الآخر!! إن سعادَتك هي سعادتي، وشقاءَك شقائي،

وبلاءَك بلائي، ويوم تغمرك الصحة أصير أنا في بهجة، ويوم تقع في مأزق تتنغَّص حياتي وتتكدَّر!! فلماذا لا تكون بيننا أُلْفَة ومحبة؟!! لماذا لا نتفق على خطة واحدة نسير عليها؟!! لماذا لا نكون شيئًا واحدًا تغمرنا المحبة لبعضنا، ويسود الرضا فيما بيننا، وكل واحدٍ منا يهمه أمر الآخر؟!!

شعرتُ وكأن حديثها قد بدأ يلامس شغاف قلبي، فقلتُ لها: حسنًا، هذا كلام جميل، ولكن ماذا تقترحين عليَّ؟!!

فقالت: إن عليك أولًا أن تدرك أن اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ لم يخلقنا ليتمتع كلٌّ منا بحياته، ويسير عليها حسب هواه ومزاجه، وإنما علينا أن نسير فيها وفق المنهج الذي اختطَّه ـ سبحانه وتعالى ـ لنا!! إن علينا أن نعيش في هذه الحياة سعداء شرفاء كرماء، لا نكتفي بأن نسير كما يسير الناس، ونرعى في جنبات هذه الأرض كما ترعى البهائم!! إن علينا أن نعيش طائعين لله، متمسِّكين بهداه، سائرين على منهجه، أينما كنا وحيثما ارتحلنا!!

بدأتُ أشعر بالغبطة لسماع هذا الكلام، ولكني عندما أتذكر ذنوبي، أقول لنفسي: هذا الكلام لا ينطبق عليَّ؛ فأنا متلبِّسٌ بالذنوب والمعاصي، ولا أظنُّ أن اللَّه سيغفر لي!! رددتُ عليها بنبرة فيها من الحزن والأسى ما لا يخفى، وقلتُ لها: إنَّ ما تقولينه كلام جيِّد ومنطقي، ولكنك تعلَمين أني اقترفتُ في هذه الحياة من الذنوب والمعاصي ما لا يعلمه إلا اللَّه، ولا أظنُّ أن اللَّه سيغفر لي!!

فقالت لي بسرعة: لا يا صاحبي، لا تقل هذا!! إن هناك الكثير من الناس ممَّن أسرفوا على أنفسهم بالذنوب والمعاصي والبعد عنه سبحانه. ومع كل ذلك فإن اللَّه يدعوهم في كتابه ليعودوا إليه، فهو غفار الذنوب، وهو الذي يقبل توبة عبده وإن كانت ذنوبه مثل زَبَد البحر. ألم تسمع قول اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣)؟

فقلتُ لها: ولكني لم أقترف ذنبًا واحدًا، بل حياتي كلها ذنوب؛ فأنا نادرًا ما آتي شيئًا

من الفرائض والطاعات، وقد هجرتُ القرآن منذ زمن، وضيَّعتُ حقوق والديَّ وأهلي والناس، وغرتني هذه الحياة، فأسرفتُ على نفسي حتى صرتُ أقضي معظم أوقاتي في مشاهدة الأفلام والصور الخليعة ومعاكسة الفتيات، وإذا ما جلستُ مع أصحابي لا نتسلَّى إلا بالغيبة والنميمة والافتراء على الناس!!

فقالت: يا صاحبي، ليس المهم ما كنتَ تفعله، وإنما المهم هو أن تعود إلى اللَّه، وتقلع عن كل ما ترتكبه من ذنوب ومعاصٍ، وتتوب إليه توبة نصوحًا، واللَّه يقبل توبة المذنب، ويكفِّر السيئات، ويعفو عن الخطايا.

العمل الصالح من لوازم التوبة النصوح

شعرتُ بأن بابًا عظيمًا من الأمل قد فُتح أمامي، وأني- بإذن اللَّه- مقبلٌ على حياة جديدة. لكني لا زلتُ لا أعلم من أين أبدأ، وماذا عليَّ القيام به بعد التوبة، فقلتُ لها: إنكِ تعلمين أني أجهل الكثير من أمور ديني، فهلَّا شرحتِ لي كيف أبدأ، وهل يكفيني فقط أن أقلع عما أفعله الآن، وأتوب إلى اللَّه منها، أم إن عليَّ أمورًا أخرى لا بُدَّ من الإتيان بها؟

استبشرتْ كثيرًا بطلبي هذا، وقالت: كم أنا سعيدة بأنك تريد الإقبال على اللَّه، وترك حياة اللَّهو والمجون. لكن عليك أن تعلم أن من لوازم التوبة النصوح أن تُقلِع عن الذنب، وتعقد النية الصادقة على عدم العودة إليه مرة أخرى. كذلك، الإقلاع وحده لا يكفي، وإنما عليك أن تُتبِع ذلك بإتيان الفرائض وأداء الواجبات والحقوق. واعلم يا صاحبي أن سعادتي وحياتي هي في ارتباطك باللَّه سبحانه وتعالى، وشقائي هو في بعدك عنه، فأخلِص عبادتك لله، وأكثر من النوافل وتلاوة القرآن.

عندما سمعتُ كلمة القرآن تأوهْتُ قائلًا: القرآن!! نعم، القرآن!!

فقالت لي: لماذا تتأوَّه؟!! وما شأنك والقرآن؟!!

فقلتُ لها: إنكِ تعلمين كم أنا مقصِّر في القرآن، فآخر مرة قرأتُ فيها بعض آيات من القرآن كان قبل أكثر من سنة، عندما حضرنا مأتمًا لأحد الأقارب، وكانوا يقرؤون

فيه القرآن، فخشيتُ أن يراني الناس منشغلًا بشيء آخر وهم يتلون كتاب اللَّه، فشاركتهم القراءة!!

فردَّت عليَّ بصوتٍ فيه تأوُّه، وقالت: وهل تظنني لا أعرف ذلك؟!! لقد كنتُ أراقبك وأنت لاهٍ عن كتاب اللَّه، وكنتُ أعتبر نفسي في عداد الأموات، فحياتي هي مع كتاب اللَّه وذكره. يا صاحبي، إن اللَّه لم ينزل علينا كتابه لنقرأه على الأموات أو في المآتم، وإنما ليكون منهج حياة لنا. كذلك، إن اللَّه لم يتعبَّدنا فقط بتلاوته، وإن كان في ذلك خيرٌ كثير، ولكنه ـ سبحانه ـ أمرنا بتدبُّره، والوقوف عند أوامره ونواهيه، وتطبيقه في حياتنا.

إن عليك أن تقضيَ ساعاتٍ طويلة مع كتاب اللَّه، تلاوةً وحفظًا وتدبُّرًا وفهمًا له. والسُّبُل إلى ذلك قد صارت الآن ـ بحمد لله ـ مُيَسَّرة؛ فكُتُب التفسير متوافرة، والعلماء والمشايخ موجودون. وعليك أن تكون قويَّ الثقة باللَّه من أنه ـ سبحانه ـ لن يُضيِّعك، وإنما سيُمهِّد لك ما تحتاج إليه. إن اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ يريد من عبده أن يبادر، فإن فعل فتح اللَّه له الأبواب، ويَسَّر له السُّبُل. قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ (الليل: ٥ـ٧).

أحسستُ أني بحقٍّ قد ابتعدتُ عن اللَّه كثيرًا، وأنه يلزمني معرفة الكثير عن ديني من أجل أن أستطيع عبادة اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ كما أمر. قلتُ لها: ما دُمتِ قلتِ من قبل بأننا متلازمان، فأرى أن تقضي معيَ ساعاتٍ طوالًا لتُفهميني أمور ديني التي أجهلها، ولا أخالني أعلم شيئًا عن هذا الدين العظيم.

ابتسمتْ، ثم قالت: لا بأس، فإني أيضًا حريصة على أن تتفقه في أمور دينك، لكي تستطيع عبادة اللَّه كما أمرك. لكن العلم بدون عمل لا يكفي، وقد علمتَ الآن أن عليك القيام بأمورٍ كثيرة كترك الذنوب والمعاصي، والإخلاص في التوبة، ثم الإتيان بالفرائض وأداء الحقوق والواجبات بالصورة التي أمرنا اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ بها، وأخيرًا الاهتمام بكتاب اللَّه، تلاوة وحفظًا وتدبُّرًا وتطبيقًا.

وأرى أن تبدأ بهذه الأمور أولًا، وتُجهِد نفسك في الإتيان بها على الوجه الأكمل،

وسأكون معك أشُدُّ من عزيمتك، وأُسْدي لك النصائح التي تضمن لنا- بإذن اللَّه- السعادة في الدارين. وعندما تُطبِّق هذه الأمور في حياتك تطبيقًا صحيحًا، حسبما جاء في كتاب اللَّه وسنة نبيهﷺ، فعندها تكون في الطريق الصحيح المؤدي لرضوانه سبحانه.

قلتُ لها: أنتِ محقة في هذا، وأنا أشعر الآن بالإرهاق، ولا أظنني سأستوعب المزيد، ولذلك أُفضِّل أن أنام قليلًا إلى أن يؤذن لصلاة الفجر، وستكون هذه- بإذن اللَّه- فاتحة الطريق لحياة جديدة أحياها مع اللَّه ودينه وكتابه.

احذر أعداءك الثلاثة

فقالت: كم أنا سعيدة بهذا التغيُّر الذي طرأ عليك، ولكن عليك أن تعلم أن هذا التغيُّر العاطفي لا بُدَّ أن يُصدِّقه العمل، وعليك أن تحذر من شياطين الجنِّ ووساوسهم، وشياطين الإنس ومكائدهم، والنفس ورغباتها وأهوائها، وعليك أن تتذكر دومًا أن هذه الثلاثة عليك بالمرصاد، ولن تنفكَّ عنك حتى توردك المهالك، ولذا عليك أن تُخلِص جميع أعمالك لله- سبحانه وتعالى-.

عندما سمعتُها تحذرني من النفس، عجبتُ لذلك، وقلتُ لها: كيف تحذرينَني من نفسي؟!! ألستِ أنتِ والنفس شيئًا واحدًا؟!!

فقالت: هداك اللَّه يا صاحبي، كيف تكون النفس والروح شيئًا واحدًا؟!! لقد وصف اللَّه- سبحانه وتعالى- النفس بأنها أمَّارة بالسوء، فهي لا تنفكُّ تدفع صاحبَها لفعل الموبقات، وهي دومًا تجنح إلى الراحة ورغد العيش وسفاسف الأمور!!

أما أنا فسِرٌّ عظيم استودعني اللَّه في كل إنسان، ولا يعلم كُنهي إلا هو سبحانه، كما قال في كتابه العزيز: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٥)، والإنسان لا قيمة له إلا بالروح؛ فمتى صَلَحتْ صَلَح حاله، ومتى فسدتْ فسد حاله.

قلتُ لها: كما قلتُ لكِ إنَّ عليَّ أن أتعلم الكثير عن ديني، ولكن عسى أن يكون ذلك

في جلسات أخرى.

فقالت: بإذن اللَّه ستكون بيننا وقفات كثيرة، والآن أتركك لتنام قليلًا لتستيقظ لصلاة الفجر.

شكرتها على ما قدَّمته لي في هذه الليلة من نصائح وتوجيهات، ثم أغمضتُ عينيَّ، وبقيتُ أفكر فيما قالته لي إلى أن غلبني النوم.

الحوار الثاني: الاهتمام بالعلم والدعوة

مضى عليَّ الآن ما يقارب عامًا كاملًا منذ أن هداني اللَّه- سبحانه وتعالى- بسبب المناجاة التي دارتْ بيني وبين روحي. ومنذ ذلك اليوم أقلعتُ- بحمد اللَّه- عما كنتُ أقترفه من موبقات، وصرتُ بفضله- سبحانه- أواظب على صلوات الجماعة في المسجد، ولا يفوتني شيءٌ منها. كذلك، خصَّصتُ أوقاتًا لتلاوة كتاب اللَّه، وحفظه، وتدبُّر آياته. وتعوَّدتُ أيضًا الاستيقاظ في كل ليلة لقيام الليل، فأصلي ما شاء اللَّه من الركعات، ثم أدعو اللَّه بما يتيسر لي من الدعاء. وعندما أفرغ من ذلك، أجلس أتلو كتاب اللَّه تلاوة تدبُّر إلى أن يؤذن لصلاة الفجر.

وقد كانت روحي تشدُّ من عزيمتي، وترفع من همتي، وتبصِّرني بما ينبغي عليَّ فعله أو تركه. وكانت تشجعني على حضور دروس العلم ومجالسة العلماء، لكي أستطيع الإلمام ببعض أمور الدين التي أجهلها، كما كانت تحفِّزني على قراءة الكتب النافعة، والاستماع إلى المحاضرات المسجلة للعلماء المعروفين. وبحمد اللَّه، أحسستُ أن حالي بدأ يتغيَّر جذريًا، وصرتُ أحرصُ على هذه الأمور أكثر من حرصي على الأكل والشرب والنوم.

وفي إحدى الليالي بينما كنتُ أتلو سورة الحديد، استوقفني قول اللَّه- سبحانه وتعالى-: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ (الحديد: ١٦)، وبقيتُ أردِّدُها وأنا أبكي، وأتذكر ذلك اليوم الذي سمعتُ روحي تردِّدُها عليَّ، وكانت بحمد اللَّه سببًا في هدايتي.

الثبات على الاستقامة يحتاج إلى مواظبة وإخلاص

وبينما أنا على تلك الحال، إذ سمعتُ روحي تناديني: أحمد. مسحتُ دموعي، ثم قلتُ لها: نعم. فقالت: يا أحمد، كم أنا سعيدة بما حباكَ اللَّه به- سبحانه وتعالى- من هداية واستقامة. فقلتُ لها: الحمد لله، ذاك من فضل ربي. فقالت: ربما أدركتَ الآن أن على الإنسان الذي يسلك طريق الاستقامة أن يجتهد في عبادته لله، ويخلص كل أعماله وأقواله له سبحانه. فقلتُ لها: حقًّا، إن السَّيْر في طريق الاستقامة، والثبات عليه، يحتاج من الإنسان إلى مواظبة وإخلاص، إلى أن يلقى اللَّه وهو عنه راضٍ.

فقالت: أجل يا أحمد، إن اللَّه لا يُضيع عمل عامل، وإنه- سبحانه- يضاعف الحسنات والأجور، فهو الحليم الكريم، ربُّ العرش العظيم. لكن عليك أن تدرك يا أحمد أن نعمة الهداية التي امتنَّ بها سبحانه عليك تحتاج إلى شكر، وشكرها يكون بالمحافظة على الفرائض والواجبات، والإكثار من النوافل والطاعات.

الحرص على نشر الخير من أساسيات الدين

وعليك أن تعلم كذلك أن اللَّه- سبحانه وتعالى- ما خلق المسلم ليعيش أنانيًّا في هذه الحياة، وإنما استوجب عليه أن ينشر هذا الخير الذي امتنَّ به- سبحانه- عليه، وأن يُبصِّر غيره بهذا الدين، ويُجهِد نفسه في ذلك، لكي ينتشر هذا الدين، ويعمَّ فضله على البشرية.

فقلتُ لها: إني بعدما سلكتُ- بحمد اللَّه- طريق الاستقامة، وذقتُ طعم الإيمان، وأحسستُ بحلاوته، شعرتُ بأن عليَّ مسؤولية كبيرة في نقل هذا الخير للآخرين. وإني أدرك أن غالبية الناس يعيشون في ظلمات من الحيرة والتخبُّط، ولو قيَّض اللَّه لأحدهم مَن يأخذ بيده إلى طريق الصلاح، فلا أخاله سيمتنع عن ذلك.

فقالت: فعلًا، ففطرة الإنسان فيها من الخير ما يجعل كل إنسان قابلًا لأن يسلك طريق الاستقامة، ولكن يحتاج ذلك إلى صبرٍ وحكمة.

القرآن الكريم منهج حياة

قلتُ لها: كما تعلمين فإني لا أريد أن أفوِّت فرصة كهذه، طالما أنها في مرضاة اللَّه، وفي خدمة دين اللَّه. لكن مشكلتي هي أني لا أعرف الطريقة التي أستطيع من خلالها مخاطبة الناس بحيث يُقبلون على دين اللَّه، ويتركون ما هم عليه من شركيات وكبائر وموبقات.

فأجابتني بسرعة: إن الأمر يسير!! ألا تذكر أن اللَّه- سبحانه وتعالى- قد زودنا بمنهج رباني فيه كل ما نحتاج إليه، وهو القرآن الكريم؟

فقلتُ لها: أجل. ولكن، كيف لي أن أستخلص من القرآن الكريم ما يصلح لمخاطبة الآخرين ودعوتهم إلى دين اللَّه؟

فقالت: هداك اللَّه يا صاحبي، إن كتاب اللَّه فيه سعادة الناس في الدارين إن هم تمسَّكوا به، ولا يحتاج منهم أن ينتقوا منه أمورًا ويتركوا أخرى، فإن كل ما فيه خيرٌ. إن ما على الإنسان القيام به هو أن يفهم كتاب اللَّه كما أنزله على رسولهﷺ، ويزاوله في حياته، وعندئذ سيرى- بإذن اللَّه- ثمرات ذلك المنهج باديَة في حياته، متجسدةً في أقواله وأفعاله وفكره.

فقلتُ لها: ولكن- كما تعلمين- فإن اللَّه- سبحانه وتعالى- أراد لكتابه العزيز أن يكون منهج حياة للبشرية جمعاء، ولذلك استودع فيه من العلوم والأحكام والأسرار ما جعل العلماء يُفنون حياتهم وهم يحاولون أن يفهموا ولو شيئًا يسيرًا مما استودعه اللَّه فيه. لذلك، أنَّى لمثلي أن يفهم كتاب اللَّه، بحيث يستطيع تطبيقه في نفسه ونشره لغيره؟!!

فقالت: يا صاحبي، إن اللَّه- سبحانه وتعالى- يقول: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر: ١٧). وهذا يعني أن كل ما عليك القيام به هو أن تُقبل على كتاب اللَّه تلاوة وتعلُّمًا وتدبُّرًا، وستجد- بإذن اللَّه- أن اللَّه يفتح عليك من المعاني واللطائف ما يخفى على كثير من الناس. ولكن عليك أن تعلم أن ذلك لن يأتي إلا بالجِدِّ

والمثابرة والصبر والتحمُّل.

فقلتُ لها: لقد أدركتُ الآن أن الكسل والخمول لا يأتيان بشيء، ولا يحقِّقان للمرء أيَّ نجاح.

فقالت: أحسنتَ يا أحمد، ولكن هناك من الناس مَن يَكِدُّون ويتعبون في هذه الحياة، ولكن ليس في طاعة اللَّه، وإنما في جمع حطام الدنيا، وفي اللَّهو واللعب، والتمتع بملذات الحياة.

فهم القرآن الكريم يتطلب تعلُّم علومٍ أخرى

قلتُ لها: وهل يكفيني أن أركِّز فقط على كتاب اللَّه، أم إنَّ عليَّ فعل أمورٍ أخرى؟

فقالت: إن فهم كتاب اللَّه- سبحانه وتعالى- فهمًا حقيقيًّا يتطلب منك تعلُّم الكثير من العلوم الأخرى؛ فعليك أولًا أن تعي بدقة وعناية اللغة التي اختصها اللَّه- سبحانه وتعالى- لينزل القرآن بلسانها، وهي اللغة العربية. ثم إن عليك فهم سنة نبيك محمدﷺ فهي مُفصِّلة لما جاء في كتاب اللَّه، وعليك أيضًا أن تدرس سيرته- عليه الصلاة والسلام- وستجد فيها تجسيدًا حيًّا لما جاء في القرآن الكريم. وأخيرًا، عليك أن تعي أمور الفقه والشريعة، وما يتعلق بالتاريخ والسِّيَر، وما يهم الشعوب والأجناس والأقوام.

فقلتُ لها مندهشًا: هذا يعني أن عليَّ أن أكون مُلمًّا بعلومٍ كثيرة؟!!

فقالت: أجل!! إن عليك أن تنكبَّ على هذه العلوم بالبحث والمطالعة، تُلخِّص منها ما فهمتَ، وتستذكر منها ما نسيتَ، وتتدارس ما يخفى منها عليك مع مَن هو أعلم بها منك.

تبليغ هذا الدين أمانة في عنق كل مسلم

قلتُ لها: وماذا عليَّ بعد ذلك؟

فقالت: إن طريق العلم ليس له نهاية، وإنه بمجرد أن تخطو خطواتك الأولى في هذا المشوار، ستبدأ مسؤولياتك تكبرُ، ومهامك تكثُر!! إن اللَّه قد حمَّلك أمانة تبليغ هذا الدين للناس أجمعين!! إنك في الوقت الذي تحاول فيه فهم كتاب اللَّه وتعلُّم العلوم الأخرى، فإن عليك أيضًا تبليغ ما تتعلمه للآخرين، وتبصيرهم بما تفهمه من كتاب اللَّه، فلعلَّ اللَّه يهدي بسببك أقوامًا ينتظرون وصول هذا الخير إليهم.

قاطعتُها بسرعة، وقلتُ لها: ولكنكِ تعلمين أني شخصٌ واحدٌ، ولا أمتلك القدرة على دعوة جميع الناس.

فقالت: بلى، إنك تستطيع؛ فإن اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ الذي حمَّلك هذه الأمانة يعلم طبيعتك وقدراتك وإمكانياتك، وهو لم يُحمِّلْكَ إياها إلا وهو يعلم أنك قادرٌ على حملها وتبليغها. وعندما تبدأ في حمل هذه الأمانة وتبليغها للناس، وترى أن اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ قد هدى بسببك أقوامًا حُرِموا من هذا الخير، فإنك عندئذٍ ستنسى ما قد تصادفه في هذا الطريق من عناءٍ ومشقة، وستحاول مضاعفة جهدك، لتزيد من نجاحك وعطائك.

العمل الجماعي في الدعوة من أساسيات هذا الدين

قلتُ لها: إنكِ ما إن تَضعي عليَّ حملًا ثقيلًا، حتى تهوِّنيه عليَّ. إني لا أريد أن أفرِّط في هذا الخير، ولكني أخاف أن لا أستطيع حمل هذا الهمِّ بنفسي، فهلَّا بحثتِ لي عمَّن يعينني عليه؟

فقالت: هوِّن عليك يا صاحبي، وهل تظن أن اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ قد كلَّفك بهذا الأمر وحدك؟ إن اللَّه قد بعث محمدًاﷺ داعيًا للناس أجمعين، وهاديًا إلى صراط رب العالمين، ولذلك فإن الناس منذ عهدهﷺ وإلى يومنا هذا يتسابقون للسَّيْر في هذا الطريق.

إنك لن تكون وحدك، وإنما سيكون معك الألوف، بل الملايين. إنك ستجد في هذا الطريق مَن يؤيدك ويناصرك ويحاول أن يخفف عنك العبء ويرفع عنك الحِمل، وستجد مَن يَدُلُّك على فعل الخيرات وينافسك في فعل الطاعات. عندها، ستحمد اللَّه

بأن جعلك لا تستأثر بهذا الخير وحدك، وأنه لم يجعلك وحيدًا في هذا الطريق لكي لا تملَّ أو تفتر.

وإنكَ ستجد في هذا الطريق من إخوانك مَن هم خيرٌ منك، ومَن قد ساروا في هذا الدرب قبلك، وقطعوا في هذا المشوار خطوات أكثر منك، وحققوا نجاحات أفضل مما حقَّقت أنت. كذلك، ستجد وراءك مَن يحاول اللحاق بك وبغيرك. إنك ستجد نفسك في موكب عظيم من الأخيار الأطهار الذين اصطفاهم اللَّه- سبحانه وتعالى- ليحملوا رسالته إلى الناس أجمعين.

فقلتُ لها: وهل ستصاحبينَني في هذا الطريق؟!!

فقالت: لقد أخبرتك من قبل بأننا متلازمان، ولذلك فإننا سنسير في هذا الدرب سويًّا بإذن اللَّه، وستكون بيننا وقفات نتسامر فيها، ويشد كل واحد منا أزْرَ الآخر؛ إن أثقَلكَ الحِمْلُ لطَّفتُ عليك، وإن أحسستَ بالبؤس واليأس حاولتُ أن أرفع من معنوياتك، وإن آلمك صدودُ الناس وعدم استجابتهم لما تدعوهم إليه هوَّنتُ عليك، وذكَّرتُك بأنك تعمل لله- سبحانه وتعالى-، وأنه ليس من مهمتك مناقشة النتائج، ولا التشكيك فيما يحصل لك، وإنما عليك أن تعي بأن النتائج بيد اللَّه- سبحانه وتعالى-، وأنه سبحانه سيُظْهِر تلك النتائج، وسيُقِرُّ أعيننا بها إنْ عاجلًا في حياتنا أو آجلًا بعد مماتنا، وأنه- سبحانه وتعالى- قد تكفَّل بأن يُثيبَك على أعمالك، سواءٌ في هذه الدنيا أو بعد مماتك. وستجد يا صاحبي يوم القيامة- بإذن اللَّه- جبالًا من الحسنات بسبب ما ستقوم به في هذه الدنيا من تحقيقٍ لمنهجه- سبحانه وتعالى- ومن سيرٍ في طريقه، ومن القيام بما يأمر به والتخلِّي عما ينهى عنه.

قلتُ لها، وأنا أشعر بغبطة لا توصف: الحمد لله الذي رزقني روحًا طيبة تدلني على فعل الخير، وتحفِّزني على فعل الطاعات.

عندها رأيتُ روحي منشرحة مسرورة، فقالت: الحمد لله، إنما هو من فضل اللَّه. وإني لأرجو اللَّه أن تكون من الذين قال عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا

تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ (فصلت: ٣٠ـ٣٢)، ومن الذين وصفهم سبحانه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ۝ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد: ٢٢ـ٢٤). والآن، أتركك لتُكمل تلاوتك لكتاب اللّه، فقد قارب الفجر أن يطلع.

شكرتها، ثم واصلتُ تدبُّر ما تبقى من سورة الحديد.

حوار
مع الأم

الحوار الأول: تربية الأطفال أمانة عظيمة

استيقظتُ صباح هذا اليوم، فأخبرتني زوجي بأنها تشعر بغثيان وآلام في الظهر، فأخذتها إلى المستشفى، وبعد مقابلة الطبيبة، وإجراء بعض الفحوص دخلت زوجي مرة أخرى على الطبيبة لترى نتائج الفحوص، وبعد قليلٍ خرجت، ثم قالت لي بنبرة مضطربة: هيا بنا!! فسألتها: ما الخبر؟!! فردَّت عليَّ: سأخبرك بكل شيء في السيارة!!

بقيتُ في خوفٍ وقلقٍ لا يوصفان، وخشيتُ أن تكون الفحوص قد أظهرت أنها مصابة بمرضٍ خطير!! عندما ركبنا في السيارة، أقبلتُ عليها، والقلق بادٍ على وجهي، وقلتُ لها: خيرًا إن شاء اللَّه يا أمَّ عبداللَّه؟!! أخبريني ماذا جرى.

التفتَتْ إليَّ، وقالت بابتسامة: أريد أن أخبرك بأمرٍ سيسرُّك إن شاء اللَّه. رددتُ عليها والقلق ما زال باديًا عليَّ: خيرًا إن شاء اللَّه؟ فقالت لي بصوتٍ يمتزج بالبهجة والسرور: أنا حامل يا أبا عبداللَّه!! ما إن سمعتُ مقولتها حتى كدتُ أن أقفز من مكاني، فقلتُ لها: أصحيحٌ ما تقولين؟!! فقالت: نعم، لقد أكَّدَتْ لي الطبيبة ذلك، فقلتُ: الحمد لله رب العالمين، وبدأتُ أدعو اللَّه بأن يُسهِّل عليها الحمل والوضع والرضاع والتربية.

بعد أن تحركت السيارة، لاحظتُ أن زوجي قد بدتْ مهمومة وسارحة، فالتفتُّ نحوها، وقلتُ لها: خيرًا يا أمَّ عبداللَّه؟!! ماذا بك؟ هل أنتِ مريضة؟ فقالت بصوتٍ حزين: أنا بخيرٍ والحمد لله، ولكني خائفة!! ظننتُ أنها تفكر في يوم الولادة، وهي خائفة من ذلك اليوم، لما تسمع به من الآلام الشديدة والمعاناة المريرة التي تمرُّ بها النساء الحوامل، وخصوصًا في ذلك اليوم. رددْتُ عليها مازحًا، وأنا أريد تسليتها: هوِّني عليكِ يا أمَّ عبداللَّه، فإنه لا يزال أمامك بضعة أشهر حتى ذلك اليوم.

ردَّتْ بنبرة فيها من الألم والحُرقة ما لا يخفى، وقالت: إن الأمر ليس كما تصوَّرتَ يا أبا عبداللَّه، فإني لستُ خائفة مما سأعانيه من مشقة الحمل ومكابدة آلام الوضع، فذلك، وإن كان شاقًّا عسيرًا، لكني على ثقةٍ بأن اللَّه سيُسهِّله عليَّ، ولن يتركني لنفسي، وإنما سيزيل عني- بإذن اللَّه- تلك المتاعب والآلام. فقلتُ لها: ولماذا كل هذا الخوف والقلق إذن؟!! فقالت: إني أفكر فيما بعد الولادة!!

ظننتُ أنها تفكر في وضعنا المالي، وأن حالتنا المادية الصعبة التي نمرُّ بها قد تكون سببًا في شقائها وشقاء الطفل، فراتبي الذي أتقاضاه لا يكاد يَسُدُّ احتياجات البيت. ظننتُ أنها تفكر أن طفلنا سينشأ ولن يجد عنده ما هو موجودٌ عند أقرانه من الأطفال من أنواع اللعب وصنوف الملابس. قلتُ لها: لا تقلقي يا أمَّ عبداللَّه، فإن اللَّه سيُدبِّر لنا- بإذن اللَّه- أمورنا بعد الولادة، وسيُهيِّئ لنا المال الذي سنحتاجه لشراء أفضل أنواع الألعاب وأجود أنواع الثياب، ولن يشعر طفلنا- بإذن اللَّه- بأيِّ فارقٍ بينه وبين الأطفال الآخرين الذين سيلعب معهم أو يصاحبهم في المدرسة.

سكتتْ زوجي ولم تردَّ عليَّ، وإنما بقيتْ واجمة، فعرفتُ أن ما قلتُه لم يكن السبب في حزنها وقلقها، وإنما هي تفكر في أمرٍ آخر، فقلتُ لها: يبدو أنك تفكرين في أمرٍ ليس على بالي، فردَّتْ عليَّ بسرعة وصوتها يتقطع، فقالت: عهدي بك أنك من العقلاء، ومن الذين يخافون اللَّه سبحانه وتعالى.

عجبتُ من كلامها هذا، فقلتُ لها: إني أحاول أن أكون هكذا يا امرأة، فما الذي غيَّر نظرتك تجاهي؟!! فقالت: إذن، إذا كنتَ كذلك، أريدك أن تعلم أني خائفة من مصير ابني!! ازددتُ عجبًا مما أسمع منها، وظننتُ أنها تفكر فيما لو أصيب الطفل بمرض أو حادث أو أيِّ شيء آخر قد يؤدي به إلى الوفاة، فقلتُ لها مندهشًا: ويحك يا امرأة، إن الطفل لا يزال جنينًا، والأعمار بيد اللَّه، فلماذا تتشاءمين هكذا؟!!

ردَّتْ عليَّ مرة أخرى بنبرة حزينة، وقالت: إن الأمر ليس كما تفكر يا أبا عبداللَّه. إن إنجابي لطفلٍ في جمال يوسف- عليه السلام-، وفي حلم المصطفىﷺ، وفي فصاحة

هارون ـ عليه السلام ـ، ثم أن يقبض اللَّه روحه بعد إنجابه لأهون عليَّ من الأمر الذي أفكر فيه!!

فقلتُ لها: أستغفر اللَّه، ما هذا الكلام يا امرأة؟ أراك اليوم في حالة من التشاؤم واليأس!! ما الذي حلَّ بك؟!! لقد عهدتُّكِ امرأة حليمة، واقعية، راضية بقضاء اللَّه وقدره في جميع أمورِك، وتحمَدين اللَّه في جميع أحوالك، فما الذي أسمعه منكِ اليوم؟!!

إنجاب الأطفال قد يكون سببًا في صلاح المجتمع أو شقائه

ردَّت عليَّ بكلماتٍ خافتة متقطعة، وقالت: إني أفكر في مصير الأمانة العظمى التي شاء اللَّه أن يُحمِّلنا إياها!! إنك تعلم أن الحمل والولادة ما هي إلا تهيئة للأبوين ليحملا عبء الأمانة الكبرى التي أُلقِيَتْ على عاتقهما.

أحسستُ بأن الكلام قد بدأ يأخذ منحًى آخر، وأن المرأة في خاطرها أمرٌ تريد الإفصاح عنه وتجليته لي، فقلتُ لها: أفصحي يا أم عبداللَّه، فإني لا زلتُ لم أستوعب ما تقصدين.

قالت: إنك تعلم أن اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ ما جعل سنة الزواج فقط لأجل أن يقضي الزوجان وطرهما، ويسدَّان بذلك شهوتهما، ولكن الأمر أبعد من ذلك بكثير، وأخطر من ذلك بمراحل، فإن اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ أراد للأسرة أن تكون البذرة التي من خلالها يتواصل النسل، وبسببها يحصل صلاح المجتمع أو فساده، وهذا ما يقلقني كثيرًا؛ فإني أخاف أن لا أُوفَّق إلى تربية طفلي حسبما أراد اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ فنكون قد أنبتنا بذرة شرٍّ والعياذ باللَّه، ونكون سببًا في إفساد المجتمع لا سمح اللَّه.

بدأتُ أفهم ما تعنيه زوجي، وبدأتُ أشعر أيضًا بثقل الأمانة التي شاء اللَّه ـ سبحانه ـ أن يُحمِّلنا إياها، فما مجيء المولود إلا ابتلاء للزوجين وتمحيصٌ لإيمانهما، ومجيؤه ـ كما قالت زوجي ـ إما أن يكون سببًا لسعادة والديه وأهله والمجتمع، وإما أن يكون عكس ذلك، والعياذ باللَّه.

الاعتماد على اللّٰه هو الخطوة الأولى لنجاح التربية

حاولتُ أن أُلطِّف عليها وأهوِّن عنها ما تجده من ثقل هذا الحِمْل الذي شرفنا اللّٰه به، وكرمنا بأن جعلنا راعين له، فرددتُ عليها وقلتُ: صدقتِ يا أم عبداللّٰه، فإن الأمر كما قلتِ، وإنه لحقٌّ لمثلِكِ ومثلي أن يعتريه القلق والخوف من التقصير في حمل هذه الأمانة، ولكن أحبُّ أن أخبرَك بأمرٍ علّه يُسلِّيكِ، ويسليني أنا أيضًا.

أقبلت عليَّ بوجهها، وكادت أن تُفصِح عن ابتسامة لولا أنها كانت لا تزال تجد في نفسها حُرقة مما تحسُّ به، وردَّت بسرعة، وهي تظن أني قد وجدتُ لها مخرجًا مما ينتابها من شعور مرير مما سيؤول إليه أمر أسرتنا بعد بضعة أشهر، وقالت: ما هو؟!! تكلم يا أبا عبداللّٰه، قل لي ما هو!!

قلتُ لها: إنك تعلمين إن اللّٰه ـ سبحانه وتعالى ـ قد أكرمنا بالإسلام، وزيَّن قلوبنا بالإيمان، ورزقنا حبه وحبَّ نبيهﷺ، وبعث في قلوبنا داعيَ الخير لنقوم بأمر الدعوة إلى دينه والعمل لكل ما يحبه ويرتضيه سبحانه.

ردَّت عليَّ بصوتٍ متثاقل، وكأني خيَّبتُ أملها فيما كانت تظنُّ أن يكون متنفَّسًا من آلامها ومخرجًا من كربتها، فقالت: أدري ذلك، ولكن ما علاقة هذا بما قلتُه أنا لك؟!!

قلتُ لها: إنك تعلمين أيضًا أن كل ما في هذا الكون مسخرٌ بأمر اللّٰه، وأنه لا يحدث فيه شيءٌ خارجٌ عن إرادته، وبعيدٌ عن حكمته وحسن تدبيره.

قالت: ونِعْمَ باللّٰه.

قلتُ لها: إذن عليكِ أن تعلمي يا أمَّ عبداللّٰه، أن اللّٰه ما أوجدنا في هذا الزمان بالذات إلا لحكمة يعلمها سبحانه، وما جمع بيني وبينِكِ إلا لأمرٍ يريده، وما رزقنا هذا المولود إلا لسبب يعلمه.

وإذا كنا نحسن الظن به ـ سبحانه ـ، ونفوِّض أمورنا إليه، وندرك تمام الإدراك أنه

لا يريد بنا إلا خيرًا، وأنه قد اختصَّنا بالإسلام والإيمان والتقوى، فإنه لن يتركنا لأنفسنا، ولن يترك الأمر لطاقاتنا وقدراتنا، ولكنه سبحانه- وأنا على يقين من هذا- سيبقى معنا، وسيُدبِّر أمورنا، وسيُلهمنا رشدنا، وسيعيننا على حمل هذه الأمانة على أكمل وجه.

على الأبوين أمانة تعلُّم أساليب التربية الصحيحة

سُرَّت زوجي كثيرًا بما قلتُه لها، ولكن- فيما يبدو- كانت لا تزال في نفسها أمورٌ لم تتجلَّ، فقالت: إني أثق في قدرة اللَّه- سبحانه وتعالى- ومشيئته وحكمته، وإني على يقين كذلك بأنه- سبحانه- لن يتركنا، وأنه سيوفر لنا السبل والوسائل التي ستعيننا على القيام بهذا الواجب على أكمل وجه. ولكن- كما تعلم- فإن هناك الكثير من الأمور التي علينا أن نتعلمها لكي نستطيع أن ننشِّئ أطفالنا كما يريده- سبحانه وتعالى- منا. لذلك، أقترح يا أبا عبداللَّه أن نُخصِّص لأنفسنا في كل يوم وقتًا نتعلَّم فيه ما يتعلق بتربية أطفالنا، لكي نستفيد من بعضنا البعض.

ابتسمتُ لها، ثم قلتُ: إنها فكرة طيبة يا أمَّ عبداللَّه، وإني أقترح أيضًا أن تستفيدي من خبراتِ النساء الأخريات اللواتي ينظرنَ إلى مسألة تربية الأطفال على أنها رسالة، وفي الوقت نفسه فعندهنَّ من التقوى والعلم ما يجعل الإنسان يثق بكلامهنَّ وتجاربهنَّ.

قالت: صدقتَ يا أبا عبداللَّه، فإن أمثال هؤلاء النسوة قد مررْنَ بما نمرُّ به نحن الآن، وأصبح عندهنَّ من العلم والفهم ما نفتقر إليه.

تربية الأطفال لا تكون على حساب الدين

قلتُ لها: ولأننا قاربنا الوصول إلى البيت، وأريد الذهاب مباشرة إلى العمل، فإني أريد أن أذكر أمرًا يقلقني ويشغل بالي كثيرًا.

نظرتْ إليَّ باستغراب، ثم قالت: وما هو يا أبا عبداللَّه؟!!

قلتُ لها: أعلم أنك امرأة مطيعة لربك، مهتمة بأمور دينك، حريصة على الاستزادة

من العلم والمعرفة من خلال القراءة والاستماع إلى المحاضرات. وما أتخوف منه هو أنه عندما نرزق بطفلنا الأول، فإنه- بلا شك- سيأخذ من وقتِكِ الشيء الكثير، وأخاف أن يكون ذلك على حساب دينِك وواجباتِك.

ردَّت بانشراح: جزاك اللَّه خيرًا يا أبا عبداللَّه على تذكيري بهذا الأمر، فإنه أمرٌ بالغ الأهمية، وإني أشاطرك الرأي أن تربية الأطفال تستنزف غالبية وقت الأم، وربما يؤثر ذلك على أدائها للفرائض والواجبات والحقوق، وقد تفرِّط في حقوق ربها وزوجها وأقاربها.

قلتُ لها: وكما تعلمين، فهذا أمرٌ خطيرٌ جدًّا؛ فالأم قد تكون عندها النية الحسنة لتنشئة أطفالها على الاستقامة والصلاح، ولكنها بتفريطها في حقوق ربها والناس ستكسب من المعاصي والآثام ما يُوقِعها في سخط اللَّه- سبحانه وتعالى- وغضبه، وعندها تتحوَّل جهودها في تربية أطفالها وبالًا عليها.

إن ما دعاني لهذا القول هو ما ألاحظه من انشغال بعض الأمهات بأطفالهنَّ وبإعداد الطعام للأسرة، وبالمقابل، إهمالهن لحقوق ربهن وأزواجهن. وقد سمعتُ بعض الأزواج يتشكَّوْنَ من أن زوجاتهم أصبحن لا يكترثن بهم كثيرًا، وإنما جُلُّ اهتمامهنَّ هو أطفالهن، فتجدها في الليل قائمة ساهرة على الطفل، والزوج يتقلب في الفراش ولا يجدها بجانبه.

كذلك، عندما تقوم الزوجة لأداء الصلاة، فإنها تصليها وقلبها يفكر في الطفل، فلا تعي من صلاتها شيئًا. وبالإضافة إلى ذلك، قد تضيِّع واجبات أخرى كقراءة القرآن وأداء النوافل والطاعات والاستزادة من العلم. والمصيبة أن غالبية النساء لا يُدرِكْن ما يَقَعْن فيه من تفريط في تلك الحقوق، ولا يدرين أن تربية أطفالهن قد صارت على حساب دينهن، وعلى حساب حقوق ربهن وأسرتهن.

قالت، وبواعث السرور والانشراح بادية على وجهها: أحسنتَ يا أبا عبداللَّه في إيضاح هذه الأمور لي، وفي تبصيري بأمورٍ كانت غائبة عن بالي.

قاطعتها قائلًا: إن الفضل يعود أولًا وآخرًا إلى اللَّه- سبحانه وتعالى- الذي ألَّف بين قلوبنا بطاعته، وجمع بين أفئدتنا بحبه وتقواه، ونسأله- سبحانه- أن يجعلنا ممن يحبهم ويرتضيهم. وأحب أن أقول لكِ بأنكِ وإن كنتِ تحملين ذلك الجنين في رحِمِكِ فإني أحمله في قلبي، وأضع له مكانًا خاصًّا بجوار منزلتك الرفيعة التي تتبوئينها في مهجتي.

قالت: الحمد لله على هذه النعمة العظيمة، فإن مجرد سماع هذا الكلام منكَ يجعلني أنسى كل همومي، وأسأله- سبحانه- أن يعيننا على حمل هذه الأمانة العظيمة التي شرَّفنا بها- سبحانه-.

قلتُ لها مبتسمًا: صدقتِ يا أمَّ عبداللَّه. والآن، عليكِ أن تأخذي قسطًا من النوم، فالجنين- بلا شك- قد أصابه الكثير من الإعياء، ونحن ننتقل به من مكان لآخر!! أما أنا فإني سأذهب إلى العمل، فقد تأخرتُ قليلًا.

ابتسمتْ وشكرتني، ثم دعتِ اللَّه أن يوفقني ويحفظني، ثم دخلتْ البيت، بينما توجهتُ أنا مباشرة إلى العمل.

الحوار الثاني: تهيئة البيئة الصالحة للطفل

كنتُ أزور إحدى جاراتي، فأخبرتني بأنها شاهدتْ إعلانًا بأن مدرسة أشبال القرآن الخاصة ستقيم ندوة حول أساليب ووسائل التربية الصحيحة للأطفال، وأن مَن سيقدمها هي الأستاذة عبير، المتخصِّصة الاجتماعية بالمدرسة، وهي امرأة فاضلة معروفة بصلاحها، وتقيم ندوات ومحاضرات كثيرة حول تربية الأطفال. اتفقنا أنا وجارتي سمية على الذهاب لهذه الندوة.

عندما حضرنا الندوة، وبدأتْ الأستاذة عبير الحديث، قالت بأنها ستنتهج في هذه الندوة أسلوبَ المحاورة، لتكون الفائدة أعم، وليتاح للحاضرات المشاركة بأسئلتهنَّ واستفساراتهنَّ. سُعِدتُّ كثيرًا لهذا؛ فقد كانت في بالي الكثير من التساؤلات حول القضايا المتعلقة بتربية الأطفال. كذلك، أخبرتنا الأستاذة عبير بأنها ستخصِّص هذا اللقاء للحديث عن كيفية تهيئة البيئة الصالحة لتنشئة الطفل، سواءٌ داخل البيت أم خارجه.

تهيئة الجو الإيماني في البيت

ما إن أنهتْ الأستاذة عبير مقدمتها، وأتاحتْ للحاضرات فرصة المشاركة، حتى قامتْ جارتي سمية، وهي أمٌّ فاضلة استطاعت- بتوفيق اللَّه وعونه- تنشئة أطفالها الستة على الأخلاق الفاضلة والتفوُّق الدراسي.

شكرتْ سمية الأستاذة عبير على هذه الندوة، ثم قالت: الأستاذة عبير وأخواتي الفاضلات، إن المسكن الذي تتوافر فيه وسائل الراحة والهدوء والأمن نعمةٌ عظيمة علينا استغلالها فيما يرضي رب العزة والجلال. كذلك، إن وجود عدد من أفراد العائلة في منزلٍ واحد يُعدُّ أيضًا نعمة عظيمة، ولكن علينا أن نفكر في كيفية الاستفادة منهم في طاعة

اللَّه؛ وذلك بأن نُشغِلهم بما سيعود عليهم وعلى غيرهم بالفوائد العظيمة.

إنه من المعلوم أن الطفل- حتى وإن كان جنينًا- فإنه يتأثر كثيرًا بالجو الذي يكون في المنزل. لذا، فإني أعتقد أنه من الضروري تهيئة الجو الإيماني في البيت، من ذكر اللَّه وتلاوة القرآن، والهدوء وخفض الصوت عند الحديث. وعلى الوالدين أن يكونا قدوة لأطفالهما، وذلك من خلال تمسُّكهما بهذا الدين وممارستهما للشعائر التعبُّدية بكل إخلاص وتقوى؛ فإن القيام بمثل هذه الأعمال يجعل مشاعر الأم وأحاسيسها تسير وفق ما أراده اللَّه- سبحانه وتعالى-، وهذه المشاعر والأحاسيس ستنعكس بدورها على الطفل.

وأما إذا كان البيت لا يُسمع فيه إلا الصراخ والشتائم والسباب، ولا يُذكَر فيه اللَّه ورسوله إلا قليلًا، ولا يرى الطفل أبويه يهتمان بأمور الدين، فإنه- لا محالة- سينشأ على ما يسمع ويشاهد. وإذا كان لا يسمع إلا القرآن والكلام الطيب النابع من إيمان عميق من الأبوين، فإن ذلك سيكون- بإذن اللَّه- سببًا في زرع بذرة الخير في نفسه.

بعد أن جلستْ جارتي سمية قامت إحدى الأخوات فأردفتْ قائلة: وعلينا كذلك أن لا ننسى الدعاء، فإنه سلاح المؤمن، كما أوصى بذلك رسولنا- عليه أفضل الصلاة والسلام-. والأم بحاجة إلى التضرُّع إليه- سبحانه- ليس فقط لتسهيل أمور الحمل والوضع عليها، وإنما لغرس بذور الإيمان في ذلك الجنين، ولتوفيقها وزوجها لتربية طفلهما على الاستقامة والصلاح. ولنا في نبي اللَّه زكريا- عليه السلام- أسوة حسنة حين نادى ربه: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (آل عمران: ٣٨)، فكانت النتيجة: ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (آل عمران: ٣٩)، وأيضًا حين نادى إبراهيم- عليه السلام- ربه فقال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (الصافات: ١٠٠)، فكانت النتيجة: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ (الصافات: ١٠١).

قامت أخت ثانية، فقالت: إن إكثار الأم من تلاوة القرآن وذكر اللَّه وخشوعها في

صلاتها، وغير ذلك من أنواع العبادات، سيبعث في نفس الأم السكينة والطمأنينة، وهذه بدورها ستؤثر في الراحة النفسية للجنين.

علَّقت الأستاذة عبير قائلة: وعلى النقيض مما ذكرتُنَّ يا أخواتي، فإن الجنين يتأثر أيضًا بالعادات السيئة التي تمارسها الأم أثناء حملها؛ فإدمان الأم على التدخين مثلًا يؤثر تأثيرًا بالغًا على صحة الجنين البدنية. كذلك، إن ممارسة الأم للكذب والغيبة والنميمة أو سماعها لها، أو خوضها في المحرمات الأخرى، قد يؤثر على الجنين من النواحي الروحية والأخلاقية.

تعلُّم أساليب التربية الصحيحة

قامت إحدى الأخوات، فقالت: أعتقد أن من أهم القضايا التي على الأبوين العناية بها بعد زواجهما قضية تعلُّم فنون وأساليب التربية الصحيحة للأطفال؛ فكثيرٌ من الآباء والأمهات ليس عندهم العلم الكافي لتمييز النافع من الضار من أساليب التربية، ولا من الفهم ما يعينهم على تتبُّع مراحل عمر كل طفل من أطفالهم، وتخيُّر ما يناسب كل مرحلة من الأساليب والوسائل. وسؤالي للأستاذة عبير: كيف يمكن للوالدين أن يكسبا ما يحتاجانه من علم ومعرفة تتعلق بتربية أطفالهم؟

ردَّت الأستاذة عبير، فقالت: يا أخواتي، إن الأمر قد بات ـ بحمد اللَّه ـ ميسَّرًا في هذه الأيام؛ فهناك الكثير من الوسائل التي يمكن أن تُعين الأبوين على تعلُّم أساليب التربية، وتعطيهم الفهم الذي يحتاجان إليه للتعامل مع أطفالهم بطريقة صحيحة. وأنتنَّ تعلمْنَ أن هناك الكثير من الكتب والمقالات والمحاضرات السمعية والمرئية التي تتحدَّث عن تربية الأطفال، والتي بمقدور معظم الناس اقتناؤها. ولا ننسى أيضًا أنه تقام بين فترة وأخرى بعض الدورات المتخصِّصة في تربية الأطفال وفي أساليب التعامل معهم.

قامت أختٌ أخرى، فقالت: عندي تعليق على ما ذكرتِ يا أستاذة عبير حول ما يمكن الاستعانة به من مواد لتعلُّم وسائل وأساليب التربية الصحيحة. إني ألاحظ أن معظم

الأمهات لا يلجأْنَ إلى هذه المواد إلا بعد أن يبدأ طفلهن الأول القيام بأفعال لا يَدْرِين كيف يتصرَّفْنَ حيالها. وفي رأيي أن على الزوجين أن يُهيِّئا نفسيهما للحمل الأول منذ الأيام الأولى لزواجهما؛ وذلك بحضور الدورات المتخصِّصة في تربية الأطفال، وقراءة الكتب النافعة، والاستماع إلى المحاضرات المفيدة.

ردَّت الأستاذة عبير قائلة: أحسنتِ يا أختي الكريمة، فإن تربية الأطفال عملية متشعِّبة جدًّا، ولا يمكن للأبوين الاقتصار على حضور دورة واحدة فقط أو القراءة في كتاب أو كتابين، وإنما هي عملية مستمرة تبدأ منذ الزواج، وتتواصل إلى أن يكبر الأولاد ويتزوجون!! كذلك، إن على الأبوين أن يستفيدا من أوقاتهما في مطالعة الكتب وسماع المحاضرات، وأن يضعا لهما برنامجًا يتحاوران فيه حول ما يقرآنه من كتب أو يسمعانه من محاضرات، أو ما يستفيدانه من الدورات التي يحضرانها.

أضافت جارتي سمية، فقالت: أعتقد أن على الأم خاصة ـ والأبوين عامة ـ أن يكون عندهما حصيلة لا بأس بها من القصص الممتعة والهادفة، والتي تناسب عمر كل طفل، والتي يستطيعان قصَّها على أطفالهما عندما يكونان في البيت أو في السيارة، أو عندما يذهبان للنزهة. وكما هو معروف، فإن الأطفال يحبُّون القصص، ويتعلمون منها أكثر مما يتعلمون بطريقة التلقين.

كذلك، أرى من الضروري أن يكون لدى الأبوين من الأساليب والعبارات التي تزرع بذور الإيمان في نفس الطفل، وتغرس فيه حبَّ اللَّه وحبَّ رسولهﷺ وحبَّ القرآن. وبالإضافة إلى ذلك، فإن على الأبوين أن يكونا قادرَيْن على استغلال المواقف لغرس معاني الإيمان ومفاهيم الدين في عقل الطفل؛ فلو شاهدا طائرًا أو جبلًا أو سيارة أو أيَّ شيءٍ آخر، فعليهما أن يُعلِّقا على ذلك بعبارات تغرس في الطفل المعاني والقِيَم السامية التي جاء بها ديننا الحنيف، والأفضل أن يكون ذلك على شكل قصة، فهي أدعى للقبول عند الطفل.

علَّقت الأستاذة عبير قائلة: أظن أن ما ذكرته الأخت الفاضلة هو في غاية الأهمية؛

لأن الأبوين يصبحا وكأنهما مدرسة تنتقل مع الطفل حيثما كان، وفي الوقت نفسه هي وسيلة رائعة لاستغلال أوقات الأطفال وقدراتهم الذهنية في كسب المعلومات النافعة والسلوك الحسن. لكن ذلك يستدعي أن تُجهِد الأم نفسها، وبشكل متواصل، في البحث عن تلك القصص والعبارات في الكتب والمجلات المتخصِّصة في الأسرة وتربية الأطفال، وكذلك في مواقع الإنترنت المعنية بهذا الشأن.

المكتبة المنزلية وأهميتها في التربية

علَّقت إحدى الأخوات قائلة: وأحبُّ أن أضيف إلى ما ذكرته الأستاذة عبير أنه من الضروري إيجاد مكتبة في المنزل تحتوي على مواد منتقاة بعناية من قِبَل الوالدين، ليستطيع الطفل قضاء بعض أوقاته في هذه المكتبة، وأقترح أن تحتوي على الكتيبات المفيدة والقصص الهادفة المناسبة لسنِّ كل طفل. كذلك، يمكن أن تحتوي على أقراص بها مواد سمعية ومرئية تناسب أعمار الأطفال كالتلاوات القرآنية والأناشيد والقصص، ويمكن أن تحتوي أيضًا على برامج وألعاب كمبيوتر منتقاة باستشارة أهل الصلاح والمربين.

أضافت الأستاذة عبير: إن وجود مكتبة من مواد منتقاة في البيت يُعتبَر من أهم وسائل التربية المنزلية، وعلى الأبوين أن يجعلا من غرفة المكتبة مأوًى لأفراد الأسرة؛ وذلك بأن تكون للأسرة بشكل عام وللأطفال بشكل خاص برامج تعينهم على الاستفادة من مكتبة المنزل، ويجب تجهيز الغرفة بالكراسي والطاولات والسماعات وربما شاشة للعرض وجهاز فيديو وجهاز حاسوب، ويمكن استخدامها للدرس الأسبوعي وقيام الليل وأداء صلوات النوافل كصلاة الضحى، ويمكن استخدامها أيضًا لمذاكرة الدروس وتسميع ما يحفظه أفراد الأسرة من القرآن الكريم والأحاديث والقصائد، وقد تُستَخدم أيضًا لإقامة البرامج المفيدة والممتعة للأطفال مثل مسابقات الحفظ والقراءة والتلخيص وكتابة البحوث، بالإضافة إلى مسابقات (سين/ جيم) المشهورة، ويمكن أن تكون هناك أيضًا مسابقات لتحفيز الأطفال على المذاكرة وحلِّ الواجبات، بالإضافة إلى تخصيص بعض

الأوقات لمشاهدة أفلام الفيديو المفيدة وخاصة تلك التي تتحدث عن مخلوقات اللَّه وأحوال المسلمين والتاريخ الإسلامي وعظماء الإسلام.

علَّقت إحدى الأخوات قائلة: وإذا كنا نريد أن نربي أطفالنا ليصبحوا قادة فلا بُدَّ من توفير نوعيات معيَّنة من الكتب لكي يقرؤوها ويكتسبوا منها شتى المهارات؛ مثل الكتب التي تُشجِّعهم على النجاح والتميُّز، وأخرى تعلمهم مهارات التواصل، وثالثة تغرس فيهم الخصال القيادية، بالإضافة إلى الكتب السياسية والتاريخية التي تُجسِّد لهم نماذج صالحة من القدوات القيادية التاريخية.

الدرس الأسبوعي وأهميته

أردتُ أن أَلفِت نظر الأخوات إلى أهمية الدرس الأسبوعي، فقلتُ: أعتقد أن للدرس الأسبوعي أهمية بالغة في تعليم أفراد الأسرة وصقل مواهبهم، وهو أيضًا وسيلة لتقوية الروابط بينهم، ثم زادت إحدى الأخوات بقولها: أنبه هنا إلى نقطة مهمة تتعلق بالدرس الأسبوعي؛ وهي أن غالبية الشباب والفتيات في أيامنا هذه ينفرون من المواضيع الدينية، ولذلك لا يلزم أن يكون الدرس دومًا في العلوم الشرعية، وإنما يمكن تخصيص بعض الدروس أو فترات من كل درس لمناقشة قضايا المسلمين والأسرة والمجتمع. وإذا كان الموضوع الديني مقصودًا لذاته، فينبغي أن يكون في ثوبٍ عصريٍّ جذَّاب، وأفضل من ذلك أن يكون متضمَّنًا في موضوع علمي كالإعجاز وقدرة اللَّه. كذلك، يمكن أن تكون الدروس عبارة عن قراءة في كتاب، وأيضًا يمكن تقسيمها إلى فئتين إن كان هناك ثمة تباين في أعمار المستهدَفين، لتأخذ كل فئة ما يتناسب وسنَّها.

وبالنسبة لمدة الدرس فأعتقد أنها يجب أن لا تتجاوز الساعة، وأن يكون في وقتٍ مناسبٍ لجميع أفراد الأسرة؛ كأن يكون يوم الخميس أو الجمعة بين المغرب والعشاء، وخاصة إذا كان هناك من أفراد الأسرة مَن يقضون أيام الأسبوع في الدوام ولا يعودون إلى البيت إلا في العطلة الأسبوعية.

أضافت الأستاذة عبير: كما ذكرت الأخوات فإن الدرس الأسبوعي بالغ الأهمية بالنسبة للأسرة، والإعداد المسبق له مهمٌّ جدًّا لإنجاحه. والطريقة هي أن يُكلِّف الأب أو الأم أفراد الأسرة، وحتى الأطفال منهم، بإعداد فقراتٍ تناسب أعمارهم ومستوياتهم العلمية والعقلية. ولا بأس أن يتم في نهاية كل درس توزيع بعض الجوائز التشجيعية وخاصة للأطفال، وكذلك طرح أسئلة في شكل مسابقة أسبوعية تُوزَّع جوائزها في وقت الدرس.

فهم الواقع وتخيُّر الصحبة الصالحة للطفل

قامت جارتي سمية، فقالت: كما تعلَمْن يا أخواتي إن الإنسان ـ كما يقال ـ مدنيٌّ بطبعه، ولذلك فلا يمكن للآباء أن يُنشِّئوا أولادهم في بيئة مغلقة، فلا بُدَّ أن يأتي يوم ويخرج فيه الطفل إلى المجتمع، وعندها سيختلط بالأطفال الآخرين، وسيشاهد ما يجري في المجتمع، مما يجعله عرضة للتأثُّر بما يقع فيه من أمورٍ بعيدة عن تعاليم ديننا، ولا تُرضي اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ، فما تعليق الأستاذة على هذا؟

شكرتْ الأستاذة عبير الأخت سمية على سؤالها، ثم قالت: يا أختي الفاضلة، لقد تحدَّثْتِ عن أمرٍ جَلَل، وإنه من المؤسف حقًّا أن تغيب هذه الحقيقة عن بال كثير من الآباء والأمهات. إن معظم أولياء الأمور يَرَوْنَ أنه لا مفر من هذا الواقع، ولذلك فهم يتركون أولادهم يختلطون بأطفال المجتمع دون رقابة أو حصانة. وإني أعرف من الأمهات مَن تقيم الدنيا ولا تُقعِدُها إن رأت ولدها قد عاد إلى البيت وقد اتَّسَخَتْ بعض ثيابه، وبالمقابل لا يهمُّها إن اتَّسخ فكره وساء خلقه بمخالطة رفقاء السوء.

إن على كل أمٍّ أن تكون حريصة على أطفالها فلا ترميهم في الشارع، دون أن تعرف أين يذهبون ومع مَن يختلطون، وعليها كذلك أن تجلس معهم عندما يعودون إلى البيت، فتسألهم أين ذهبوا وماذا فعلوا ومع مَن كانوا، وعندها تستطيع أن توضِّح لأبنائها أنواع السلوك الخاطئة التي قاموا بها أو لاحظوها.

قامت سمية مرة أخرى، فقالت: صدقتِ يا أستاذة عبير؛ فإذا كانت هناك أمورٌ كثيرة علينا نحن الكبار أن نعيها ونفهمها، لنستطيع تحصين أنفسنا مما يدور حولنا ومما نسمعه ونشاهده في مجتمعنا، فكيف يمكن للصغير العاجز أن يدفع عن نفسه ضرًّا أو يجلب إليه نفعًا؟!! وكما ذكرتِ يا أستاذة، فعلى الأبوين أن لا يرميا بطفلهما ليكون فريسة لذئاب المجتمع، ومطية لتحقيق مآرب وطموحات مَن شاء، من خلال ما ينفثونه في قلوب الأطفال وعقولهم من سموم وأفكار هدامة، وإنما عليهما أن يدرسا المجتمع الذي يعيشان فيه، ويتعرَّفا على ما يدور فيه ليستطيعا تحصين أنفسهم وأطفالهم.

علَّقت أختٌ أخرى: أعتقد أن قضية فهم المجتمع من القضايا المهمة جدًّا، لأننا نعلم أن المتمسِّكين بهَدْي هذا الدين قلة في زماننا هذا مقارنة بالكثرة الساحقة التي ليست على هدى من اللَّه، أو تلك التي خلطت بين الصلاح الظاهري والغواية الباطنة والعياذ باللَّه. وهذا يُحتِّم علينا أن نضاعف جهودنا في الاهتمام بأطفالنا؛ فمن ناحية علينا أن نوجِد بيئة الخير التي ستدفع ـ بإذن اللَّه ـ عنا وعن أطفالنا الضُّر، وتُهيئ لهم وسائل الخير والرشاد، ومن ناحية أخرى، فعلينا أن لا نكتفي بتنشئة أطفالنا على الصلاح والتقوى، وإن كان هذا في حد ذاته مهمة ليست باليسيرة إلا على مَن أعانه اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ عليها ووفقه إليها وهداه إلى الأخذ بأسبابها، ولكن علينا أن ننشئ أطفالنا ليكونوا أيضًا أدوات إصلاحٍ للمجتمع.

زادت إحدى الأخوات بقولها: أعتقد أنه إذا كنا جادِّين في تحصين أطفالنا مما في المجتمع من منكرات؛ فعلينا أن نتخيَّر لهم الصحبة الصالحة والبيئة الصالحة التي تُمكِّنهم من الاختلاط بأطفالٍ لا يُخشى منهم. لكن العقبة التي قد تواجه الأبوين هي العادات والتقاليد التي تُحتِّم علينا ـ أحيانًا ـ الاختلاط بأناسٍ يُخشى منهم أن يؤثروا سلبًا على أطفالنا ـ حتى ولو كانوا من أقاربنا ـ. وإذا كان الأبوان ـ في بعض الأحيان ـ لا يستطيعان الاقتصار على مصاحبة مَن هو مؤتمنٌ على دينه، فكيف بالأطفال الذين لا حول لهم ولا قوة؟!! وأعتقد أن على الأبوين أخذ هذا الأمر بجدِّية؛ وذلك بعدم ترك أولادهما مع بقية أطفال الذين يزورنهم أو يذهبون لزيارتهم، وإنما تكون هناك رقابة على

تصرفاتهم، ويمكن أن يكون ذلك من خلال إحدى البنات الكبار التي تعي ما يمكن أن يقوم به الأطفال من سلوك لا يليق.

جهاز التلفاز وكيفية التحكُّم فيه

رأيتُ أن هذه فرصة سانحة لي للمشاركة، فقمتُ وقلتُ: يا أخواتي، أنا في بدايات حملي الأول، وإني متخوفِّة جدًّا من وجود التلفاز في البيت، فقد شاهدتُ أطفالًا في بعض البيوت يقضون ليلهم ونهارهم أمام شاشة التلفاز، وينتقلون من قناة لأخرى دون رقيب أو حسيب، وقد تناقشتُ مع زوجي حول ضبط هذه المسألة قبل مجيء طفلنا، واقترحتُ عليه أن نرمي هذا الجهاز من بيتنا لنتَّقي شرَّه وبواره.

علَّقت الأستاذة عبير قائلة: أختي العزيزة، إنك بهذا تتصرَّفين كما تتصرَّف بقية النساء عندما تدفع أولادها لمشاهدة التلفاز؛ فهذا الجهاز أداة بناء وهدم، وإقصاؤه عن المنزل يعني أن الأبوين عاجزان عن القيام بمسؤوليتهما حياله.

فقلتُ للأستاذة عبير: ولكن كيف يمكننا أن نُبقي ذلك الشيطان في البيت، وأنتِ تعلمين ما فيه من آفات متلاطمة، وفي الوقت نفسه نكون متأكدين من أنه لن يؤثر سلبًا على أطفالنا؟!!

ابتسمت الأستاذة، ثم قالت: أعلم يا أختي الكريمة أن هذه مهمة شاقة، ولكن- بالمقابل- هناك طرق عديدة يمكن أن تُعين في هذا الجانب، وأذكر هنا بعضًا منها. أولًا، على الأبوين أن يتخيَّرا القنوات التي يمكن لأطفالهما مشاهدتها، ويمكنهما معرفة هذه القنوات عن طريق سؤال أهل الصلاح.

وعليهما كذلك أن لا يكتفيا بتحديد قنوات معينة لأطفالهم، وإنما عليهما تتبُّع تلك القنوات ومشاركة أطفالهما في مشاهدة البرامج التي تُبَثُّ فيها، وعندما يرَيان مشهدًا لا يناسب المبادئ والقِيَم التي يريدان تنشئة أطفالهما عليها، فعليهما أن يقوما بواجبهما بتوضيح ما في ذلك المشهد من مخالفات، ويكون ذلك طبعًا بأسلوب يتناسب مع سنِّ

الطفل وقدراته الإدراكية.

لُعَبُ الأطفال وأهميتها في التربية

تشجَّعتُ من تعليق الأستاذة عبير على ما قلتُه حول التلفاز، فقمتُ مرة أخرى، وقلتُ: هل عندك يا أستاذة أو عند الأخوات الحاضرات أيُّ تعليق حول ما يمكن اقتناؤه من لعب الأطفال؟

ردَّت الأستاذة عبير: أشكرك يا أختاه على طرح هذه القضية المهمة، وإني أترك المجال أولًا للأخوات الحاضرات للتعليق عليها.

قامت إحدى الأخوات، فقالت: كما ذكرتُنَّ يا أخواتي، فإن من مهمة الأبوين تهيئة البيت لاستقبال الطفل الجديد، وأرى أن انتقاء الألعاب هو أحد جوانب هذه التهيئة؛ فلا يمكن للأبوين شراء أية لعبة يجدانها في السوق، وإنما عليهما أن يتخيَّرا منها ما يمكن أن يُنشِّئ أطفالهما على القِيَم والمبادئ التي جاء بها ديننا. وعلينا أن نعلم أن هناك من الألعاب ما يمسُّ العقيدة ويهدم قِيَم الدين.

علَّقت الأستاذة عبير قائلة: كما تُدركْنَ يا أخواتي فإن للألعاب أهمية بالغة في حياة الأطفال؛ فهي تُنمِّي مداركهم وقدراتهم الذهنية، وتُنمِّي فيهم الجانب المعرفي، وتُشجِّعهم على التعاون والعمل الجماعي من خلال مشاركة الآخرين في ألعابهم، بالإضافة إلى تنمية مهارات التخطيط والقيادة عندهم. من أجل هذا، فإن على الأبوين مسؤولية كبرى في انتقاء الألعاب التي تحقِّق هذه الجوانب، وفي الوقت نفسه لا تضرُّ بدين الطفل أو فكره أو عقله.

وعليكنَّ أن تعلَمْنَ إن ما هو موجودٌ في السوق أو الإنترنت من هذه الألعاب فيه الغثُّ والسمين والضارُّ والنافع، وكثيرٌ من ألعاب الكمبيوتر والسيجا والبلاي ستيشن تُعلِّم الطفل الاتكالية والسهولة في الحياة؛ فكل شيء بضغطة زر، وهي- في حقيقة الأمر- أخطر من التلفاز، لأنها تُعلِّم الطفل العنف والإحباط والفشل، والحل ليس في

حرمانهم من هذه الألعاب بتاتًا، ولكن بتحديد أوقات اللعب وأنواع الألعاب التي يمكن لعبها، والأَوْلى من كل ذلك أن ننمي لديهم الهوايات النافعة مثل الرسم والفكِّ والتركيب.

قامت أخت أخرى، فقالت: أعتقد أن هناك فهمًا خاطئًا بين كثير من الآباء والأمهات، وهو اعتقادهم بأن الأطفال ـ وخصوصًا في الأشهر الأولى بعد الولادة ـ لا يفهمون الفارق بين هذه اللعبة وتلك، وإنما هي مجرد مجسمات يحركونها. وحقيقة الأمر أن الطفل يتعلم من كل ما يسمعه ويشاهده. ولذلك، علينا أن نحرص على أن لا يقع في سمع الطفل ما فيه مخالفة شرعية، كالموسيقى والغناء والكذب والكلام البذيء. كذلك، علينا أن نحرص على عدم مشاهدة الطفل ما لا يتوافق مع ديننا الحنيف، لأن ذلك سيَرسَخ في ذهنه ويبقى في ذاكرته إلى أن يكبُر.

قامت جارتي سمية، فقالت: أحبُّ أن أنبِّه أخواتي إلى أمرٍ مهم، وهو ضرورة تحديد وقتٍ معيَّن للطفل ليقضيه مع ألعابه، بحيث لا يكون هذا الوقت على حساب الأمور الأخرى في حياة الطفل، كحفظ القرآن الكريم، وتعلُّم أمور الدين، ومذاكرة الدروس، وقراءة الكتيبات والقصص، والمشاركة في مهام المنزل. ومن المؤسف حقًّا أن نرى كثيرًا من الأمهات يصرِفْنَ أولادهنَّ إلى غرفة الألعاب، ويتركنَهم هناك ما شاؤوا من الوقت بحجة أنه لا ضرر عليهم في ذلك.

بعد أن أنهت سمية حديثها، قالت الأستاذة عبير: أظن أننا تحدَّثنا اليوم في هذه الندوة في قضايا كثيرة، ولذلك فإننا سننهيها اليوم على أمل أن نلتقي ـ بإذن اللَّه ـ في الأسبوع القادم لنكمل الحديث حول قضايا أخرى تتعلق بموضوع تربية الأطفال.

شكرت الأستاذة عبير الأخوات اللاتي حضرنَ الندوة، وشجَّعتهنَّ على الحضور في الأسبوع القادم، وطلبت منهنَّ اصطحاب نساء أخريات إلى الندوة القادمة ليعمَّ الخير وتنتشر ثقافة التربية الصحيحة بين النساء.

الحوار الثالث: أخطاء تربوية شائعة

في الأسبوع التالي، ذهبتُ مرة أخرى مع جارتي سمية إلى مدرسة أشبال القرآن الخاصة، وذلك لحضور الندوة الثانية التي تقيمها الأستاذة عبير، المتخصِّصة الاجتماعية بالمدرسة، حول تربية الأطفال، وقد كان الحضور في هذه المرة أكبر من الندوة السابقة. في بداية الندوة شكرت الأستاذة عبير الأخوات الحاضرات على المشاركة، وأخبرتهنَّ بأنها ستخصِّص هذا اللقاء للحديث عن الأخطاء التربوية الشائعة عند الآباء والأمهات.

ظاهرة إهمال الأمهات لأولادهن

واصلت الأستاذة عبير حديثها، فقالت: وأريد أن أفتتح هذه الندوة بالحديث عن ظاهرة متفشِّية في مجتمعاتنا وهي إهمال الأمهات لأولادهنَّ، وصرف معظم أوقاتهنَّ في تنظيف البيت وترتيبه، وفي طهي الطعام وغسل الملابس وكيِّها، وفي محادثة الجارات والصويحبات، وأريد منكنَّ التعليق على هذا الأمر.

قامت إحدى الأخوات، فقالت: أولًا، نشكر الأستاذة عبير على مواصلة هذه الندوة المثمرة بإذن اللَّه، وبالنسبة لموضوع الندوة فأقول بأن ما تقولينه صحيح؛ فواقع نساء المسلمين مؤلِمٌ جدًّا؛ فهُنَّ يقضين جُلَّ أوقاتهن في الأمور التي ذكرتها، ولا يكون لأطفالهن نصيبٌ من وقتهن إلا اليسير. بل إني لاحظتُ ـ وللأسف الشديد ـ من النساء مَن تدفع أبناءها للخروج من المنزل أو البقاء أمام التلفاز أو تكِل أمرهم إلى الخادمة، لا لشيءٍ هادف وإنما لتصرفهم عن مضايقتها، وليفرُغ لها الوقت لقضاء أعمال المنزل. وأعتقد أن هذا يعود إلى قلة علم هؤلاء الأمهات بالمسؤوليات الملقاة على عاتقهنَّ، وأيضًا إلى كثرة انشغالهنَّ، أو بالأحرى إشغال وإلهاء أنفسهنَّ، بأمورٍ بعيدة عن الواجبات الحقيقية التي عليهنَّ ممارستها. والشاعر يقول:

وينفعُ الأدبُ الأحداثَ في صغَرٍ ... وليسَ ينفعُ عند الشَّيْبَةِ الأدَبُ

إنَّ الغُصونَ إذا قَوَّمْتَها اعتَدَلَتْ ... ولنْ تلينَ إذا قوَّمْتَها الخشُبُ

قامت جارتي سمية، فقالت: يا أخواتي، إن توفير الطعام والشراب والكساء للطفل لا يقوم مقام التكاليف الأخرى التي على الأبوين القيام بها تجاه أطفالهم، فمؤانسة الطفل في معظم أوقاته لهي من الأمور المهمة جدًّا؛ فإنه كما يملُّ الكبار يملُّ الصغار. فالطفل الذى يُترَك للبكاء والألم لا يستوي مع غيره ممن لقي الملاعبة والحنان والعناية.

لذلك، علينا أن نقضي معهم أوقاتًا ممتعة ومفيدة؛ فعلينا مثلًا أن نكون بجانبهم عند مشاهدة التلفاز، أو عند قضائهم فترات اللعب؛ فوجودنا بجانبهم سيُحقِّق لهم المؤانسة والطمأنينة، ويحقق لنا إمكانية انتقاء البرامج النافعة لهم، وتقديم النصائح والتوجيهات أثناء مشاهدتهم لتلك البرامج، بالإضافة إلى إيضاح الأمور المبهمة عليهم.

علَّقت الأستاذة عبير، فقالت: بلا شك أن هذا الأمر في غاية الأهمية؛ فإن وجود الأبوين بجانب أطفالهم سيبعث في نفوس الأطفال الانشراح والطمأنينة، ويجعلهم ينظرون إلى الأبوين على أنهما المثال والقدوة، ولذلك ينبغي على الأبوين عندما يجلسان مع أطفالهم أن يتفحَّصا ما يقولانه وما يتصرَّفان به، لئلَّا يكون في ذلك ما يمكن أن يؤثر سلبًا على الطفل.

ظاهرة العناد عند الأطفال والانفعال والعنف عند الأبوين

استأذنتُ الأستاذة عبير في الحديث ثم قلتُ: من الظواهر التي قرأتُ عنها كثيرًا ورأيتُها جلية في كثير من الأطفال ظاهرة العناد، وما يصاحبها من انفعالات عند الأبوين وعدم قدرتهما على التحكُّم في أعصابهما، فما تعليقكُنَّ على هذا؟

قامت إحدى الأخوات فقالت: يا أخواتي عليكُنَّ أن تعلَمْنَ بأن عناد الطفل لا يدلُّ

على أنه شيءٌ سلبيٌّ عند الطفل؛ فهو- غالبًا- ما يصدر من الأطفال حادِّي الذكاء، والذين يريدون بمثل هذه التصرُّفات أن يكتشفوا العالم من حولهم. لكنه ومع ذلك فإنه

يبقى قضية لا بُدَّ للوالدين أن يعرفا كيفية التحكُّم فيها والتغلُّب عليها. وأهمُّ أمرٍ على الوالدين أن يتعلما التحكُّم في أعصابهما، وعدم الانفعال أو التسرُّع في معاقبة الطفل عندما يصدر منه مثل ذلك العناد.

قامت أختٌ أخرى، فقالت: وفي هذا السياق، أريد التعليق على ظاهرة الانفعال والعنف التي يقع فيها كثيرٌ من الآباء والأمهات؛ إذ إننا نعلم أن الطفل- بطبيعته- في داخله طاقة هائلة يحتاج إلى تصريفها، وهو في الوقت نفسه قليل الحيلة، قليل العلم والفهم، ولذلك قد يقوم بتصرفات، أو يقول كلامًا لا يُعجِب الأبوين، فينفعل أحدهما أو كلاهما فيردَّ على الطفل بأسلوب قد يؤثر عليه سلبًا من الناحية التربوية والنفسية.

فمثلًا، قد يتصرَّف الطفل بطريقة لا تعجب الأبوين، فيرفع أحدهما صوته عليه، والطفل لا يدري ما الذنب الذي ارتكبه، وعندئذٍ سيحاول تفسير الأمور حسب فهمه البسيط. وإذا تكرر هذا الفعل من أحد الأبوين أو كليهما فقد تبدأ تنغرس في ذهن الطفل معتقدات خاطئة إما حول الأبوين وإما حول الأمور التي يقوم بفعلها.

لذلك، ينبغي أن يتعامل الأبوان مع أطفالهما بالحكمة؛ فلا ينفعلان عندما يشاهدان أحدهم يقوم بأمرٍ يعتقدان خطأه، وإنما عليهما الجلوس معه جلسة مودَّة وإخاء، ويعاملانه وكأنه صديق عزيز وليس كطفلٍ صغيرٍ، ومثل هذا التصرُّف من جانب الأبوين سيُشعِر الطفل بمكانته عندهما، ويجعله يتقبل الكلام الذي يصدر منهما بنفس راضية.

علَّقت الأستاذة عبير، فقالت: كما قالت إحداكُنَّ، فظاهرة العناد ليست سيئة في حدِّ ذاتها، ولكن السيِّءَ تصرفات الوالدين تجاهها. ولو أمعنا النظر في الحالة النفسية للطفل المعاند لوجدنا أنه يتلذَّذ بالتصرفات التي يقوم بها، وخاصة عندما يرى انفعال والديه، لأن ذلك- في اعتقاده- انتصار له.

والحلُّ لهذه الظاهرة تحسيس الطفل أن الأبوين هما المتحكِّمان في شؤونه، ولا ينبغي أن يكون ذلك بالقوة والعنف، وإنما أولًا بضبط النفس، ثم بحسن المعاملة للطفل، وشرح الأفعال الخاطئة التي يقوم بها بكلماتٍ واضحة، وإبراز جوانب الخطأ

فيها بأسلوب يستوعبه الطفل. كذلك، إن توفير أوقاتٍ كافية للعب- وخاصة بألعاب الذكاء- كفيلةٌ بأن تفرّغ كثيرًا من طاقات الطفل. ويمكن أيضًا أن يكون للقصة الرمزية الهادفة وسِيَر الصحابة والصالحين دورٌ في تعديل سلوكه.

وفي حالة استنفاذ جميع الحلول السلمية معه، فإنه يمكن للأبوين استخدام طرقٍ أخرى أكثر صرامة ولكنها لا تؤذيه. من تلك الطرق ما يعرف بـ «أكاديمية التعليم»، وهي أنه إن رفض الطفل الانصياع لأمرٍ ما فإن المربي يقول له: أنت بحاجة إلى تدريب على فعل هذا الأمر، ثم يؤجل الأمر إلى وقتٍ غير مناسبٍ للطفل كمشاهدة التلفاز أو اللعب على الحاسب الآلي، ثم يأتيه المربي ويقول له: لقد حان وقت التدريب الآن، ثم يطلب منه القيام بالأمر الذي رفضه سابقًا ويكرره مرات ومرات لنصف ساعة أو أكثر، بحيث يتعلم الطفل من تكرار هذا العمل الممل الانصياع والطاعة وعدم العناد، وهناك تفاصيلٌ لهذه الطريقة، بالإضافة إلى وسائل أخرى كثيرة ونافعة.

ظاهرة إحراج الأطفال وإضعاف شخصيتهم

قامت أختٌ أخرى، فقالت: وأريد أن أضيف أمرًا آخر إلى هذه المسألة، وهي إحراج الأطفال أمام الآخرين، فقد رأيتُ حالاتٍ كثيرة عندما كنتُ أزور بعض النساء، حيث يأتي أطفالهن ويتصرفون بطريقة لا تعجبهنَّ، كأن يأخذ الطفل قطعة حلوى، أو يدلق كأس ماء، أو يصعد على الطاولة، أو يقوم بأفعال أخرى تثير حفيظة الأم، فتنفجر في وجهه، وتُعلي صوتها عليه، وربما يأخذها الغضب والانفعال فتضربه، وأعتقد بأن مثل هذا التصرُّف يُضعِف شخصية الطفل، ويجعلها مهزوزة أمام الآخرين، وأنا شخصيًّا لا أميل ولا أرتاح للضرب والعقاب البدني؛ فهناك طرق وأساليب أخرى بديلة للمحاسبة والمعالجة، ولا أستخدم الضرب إلا في حالات ضيقة جدًّا، وبعد استنفاد كافة الوسائل.

علَّقت الأستاذة عبير بقولها: إن معاملة الطفل على أنه صغيرٍ لا يفهم، وتحقيرِ كل ما يفعله، واستخدام أساليب الضرب والتوبيخ والإهانة والنقد المتواصل يجعل تخيُّله لإمكانية نجاحه في المستقبل أمرًا صعبًا؛ لأن القسوة تقتل عنده كثيرًا من جوانب التوازن

والإبداع، وتجعله يفقد الثقة بنفسه، وخاصة عندما يرى أهله يعاملونه بقسوة، ويشعرونه أنه فاشل أو غير ذكي أو فيه صفات سلبية، فيستنتج بصورة أو بأخرى أن المجتمع سيقابله بما هو أسوأ من ذلك، فينشأ خجولًا منعزلًا غير متوازن.

وهنا علَّقت جارتي سمية قائلة: إن إضعاف شخصية الطفل لا يحتاج إلى الضرب؛ فقد سمعتُ أن هناك من الآباء مَن يُحرجون أطفالهم في حضرة الكبار لأسباب تافهة. فمثلًا، قد يحاول الطفل التعليق على كلامٍ قاله أحد الكبار، فيزجره أبوه ويطلب منه السكوت والتأدُّب في حضرة الرجال، وقد يسخر الأب من كلام ولده، وربما وصف كلامه بأنه سخيف أو لا معنى له.

كل هذه الأفعال تهزُّ شخصية الطفل، وتجعله انطوائيًّا، وتؤثر عليه سلبًا عندما يكبر بحيث لا يجرؤ على المشاركة في التجمُّعات، فنجده مثلًا لا يُحسن المشاركة في الصف أو في الجماعات الطلابية، وإذا حضر مجلسًا فيه رجال، وطُلِب منه أن يبدي رأيه في أمرٍ فإنه لا يدري ما يقول، وربما يعتذر عن المشاركة، وهذا يُنبئ عن ضعفٍ في شخصيته، وعن خوفٍ داخليٍّ من الإحراج أمام الآخرين، والذي كان منشؤه ما كان يوقعه الأبوان له وهو في سنه المبكرة.

زادت الأستاذة عبير بقولها: الحقيقة أن هناك أمورًا كثيرة لا بُدَّ من مراعاتها مع الأطفال، وإن أيَّ تصرُّف من قِبَل الأبوين مع أطفالهم قد يؤثر على شخصيتهم وحياتهم فيما بعد. وقد رأيتُ بعض الأطفال الصغار لا يبرحون التعلُّق بأمهاتهم، وربما الجلوس على أفخاذهن، وإن قُمْنَ عنهم بكوا.

وفي اعتقادي أن منشأ ذلك هو كثرة المراقبة والمتابعة للطفل منذ أيامه الأولى؛ فالأم تبقى محتضنة له، ولا تدعه يَفْلُتْ من يديها، وقد يرى الطفل الرضيع لعبة أو أيَّ شيء آخر فيحبو إليه، ولكن الأم لا تتركه يفعل ذلك، بحجة أنها تخاف عليه. كل ذلك يجعل الطفل لا يحب الحركة، ويخاف من ابتعاد الأم عنه، وهذا في اعتقاد الأم أمرٌ حسن؛ إذ هي تحافظ عليه، ولكن الحقيقة أن ذلك التصرُّف من قِبَلها يؤذيه، ويؤثر في شخصيته كثيرًا.

ظاهرة فقدان العدل بين الأطفال

كنتُ قد تناقشتُ مرة مع زوجي موضوع العدل بين الأولاد، فأحببتُ أن آخذ رأي الأستاذة عبير والأخوات المشاركات حول هذه القضية، فقمتُ وقلتُ: أريد التحدُّث عن موضوع آخر وهو العدل بين الأولاد، لأني شاهدتُ بعض الأمهات تُحابي بعض أولادها وتترك آخرين، مما يثير أحقادًا في نفوسهم تجاه بعضهم بعضًا، وربما تجاه الأم نفسها.

علَّقت الأستاذة عبير قائلة: مما لا شكَّ فيه أن ميل الإنسان الفطري لإنسان دون آخر هو أمرٌ قد يصعب التخلُّص منه. لكن الأمر المهم الذي على الأبوين الانتباه إليه هو عدم ترجمة ذلك الميل القلبي إلى تمييز في المعاملة والعطاء بين الأولاد؛ فنجد الأب مثلًا يَبَشُّ في وجه ابنته المتفوِّقة دراسيًّا، بينما تراه فظًّا مع ابنه الآخر ذي التحصيل المتوسط أو المتدنِّي. وقد تقسو الأم مثلًا على البنت الصغيرة إن رأتها تأخرت في الاستيقاظ من النوم، بينما تترك البنين ينامون إلى ما شاؤوا من الوقت.

قامت جارتي سمية، فقالت: أعتقد أن موضوع العدل بين الأطفال في غاية الأهمية، وربما يؤدي إلى تدمير الأسرة إن لم يتنبه الأبوان إليه من البداية؛ فهما عندما يرزقان بطفلهما الأول، فإنهما يفرحان به كثيرًا، وسيحاولان تدليله وتوفير كل ما يعتقدان أنه صالحٌ ومفيدٌ له، وهذا أمرٌ لا بأس فيه ما داما يستطيعان التحكُّم في أقوالهما وأفعالهما وتصرفاتهما عندما يكونان بجانبه.

لكن المشكلة تبدأ عندما يُرزقان بالطفل الثاني ثم الثالث، وهكذا، فعندها يحدث نوع من الارتباك في طريقة تربية الأطفال؛ فالأبوان يكونان قد تعوَّدا على محبة طفلهما الأول، ويكون قد رسخ في ذهن ذلك الطفل أن حياته مرتبطة بحياتهما، فتجده لا يريد مفارقتهما، وتجد الأبوين يحنَّان عليه كثيرًا.

وعندما يُرزقان بالطفل الثاني، يبدآن تحويل اهتمامهما إليه، وعندها يشعر الطفل الأول بتناقص اهتمام الأبوين به، ويراهما يهتمان بأخيه الصغير أكثر من اهتمامهما به،

ولذا فإنه سيحاول صرف اهتمامهما إليه من خلال أفعال وأقوال يأتي بها، والتي عادة ما تُزعِج الأبوين، فيتصرفان حياله تصرُّفًا لم يتعوَّد عليه من قبل، فتنشأ في نفسه عداوة تجاه الطفل الصغير الذي في اعتقاده أنه انتزع حنوَّ أبويه منه، ويبدأ في محاولة الانتقام منه.

وتبدأ المعركة بين الأبوين والطفل الأول؛ فهما ينظران إلى تصرفاته على أنها غريبة وغير معهودة، وأنها لا تليق بمَن في مثل سنِّه، وأنها قد أصبحتْ لا تتماشى مع ما علَّماه من قبل من آداب وأخلاق وسلوك، وعندئذٍ يبدآن في التصرُّف معه بشدة وعشوائية، فيرى هذا التصرُّف غير المألوف من والديه، فيزداد غيظًا وحقدًا على أخيه الصغير، وتبقى الأسرة في عراك مستمر.

علَّقت إحدى الأخوات، فقالت: أعتقد أن هذه المسألة في غاية الأهمية؛ إذ بإمكانها أن تُدمِّر شخصية الطفل التي كانت من قبل راسخة ثابتة، ويمكن أيضًا أن تقلب المبادئ والمفاهيم التي انغرست في ذهنه. وأظن أن تصرُّف الأبوين حيال طفلهما الجديد ينبغي أن يكون بصورة لا توقظ أية كراهية أو عداوة ضده من قِبَل إخوته الكبار. وهذا الأمر ليس بالسهل، فإنه يحتاج من الأبوين أن يضبطا مشاعرهما، وأن يزيد حنوُّهما على طفلهما الأكبر لكي لا يشعر بالغيرة والكراهية تجاه الطفل الصغير.

العنف الأسري وتأثيره على المراهق

علَّقت الأستاذة عبير، فقالت: وبطبيعة الحال، تبدأ الأمور في التعقيد أكثر كلما ازداد عدد الأطفال في الأسرة، وخاصة عندما يبدأ بعض الأطفال في دخول سنِّ المراهقة، بينما هناك من الأطفال الصغار من يحتاجون إلى رعاية واهتمام أكبر، ويصبح الأبوان في حيرة كبيرة، لا يدريان كيف يتصرفا مع ابنهما المراهق بطريقة تُكسبه الاحترام والوِدَّ، وفي الوقت نفسه لا يهملان الأطفال الصغار.

فقامت إحدى الأخوات وقالت: إني أعتقد أن أكثر المشاكل التي تنشأ بين الأبوين والأطفال يكون منشؤها تصرفات الأطفال الكبار؛ فالطفل الكبير يرى أنه كلما زاد طفل

جديد في الأسرة قلَّ اهتمام الأبوين به، وانصرف الاهتمام إلى إخوته الصغار.

وعندما يتقدَّم سِنُّ الطفل الكبير فإنه لا يقوم بالانتقام من هذا التصرُّف من قِبَل الأبوين- والخاطئ في نظره- بطريقة مباشرة، ولكنه يلجأ في بعض الأحيان إلى تبنِّي أخلاق أو عادات شائنة، لكنها- في نظره- يمكن أن تكون انتقامًا رادعًا لأبويه، فربما يبدأ في الكذب، وقد يلجأ إلى السرقة، أو العنف الجسدي مع إخوته الصغار، وخاصة في غياب الأبوين، فيحاول الانتقام من إخوته الصغار إما بالضرب أو بإيقاعهم في أمورٍ تؤذيهم جسديًّا أو تُغضِب والديهم عليهم.

وربما تتأزَّم حال الأطفال الكبار- وخاصة المراهقين منهم- فيلجؤون إلى التدخين أو المخدرات أو فعل الفواحش كالعادة السرية أو عمل قوم لوطٍ- والعياذ باللَّه-، وكلها بسبب ضعف العلاقة بين الطفل وأبويه، والتي ينشأ عنها أيضًا عدم اكتراث الأطفال بما يسمعانه من الوالدين من توجيهات ونصائح.

دور الأبوين في تلافي الأخطاء التربوية

علَّقت الأستاذة عبير قائلة: ربما تُلاحِظْنَ يا أخواتي من خلال المحاورات السابقة أن قضية التربية هي في غاية الحساسية، إذ إن أيَّ خطأ في تصرفات الأبوين قد يؤثِّر سلبًا على حياة أطفالهم؛ وربما يجعل أطفالهم يشبُّون عالة على المجتمع لا قيمة لهم ولا أهمية، وربما يرتكبون من المعاصي والآثام ما يكون سببًا في شقائهم في الآخرة، وربما شقاء أبويهم معهم.

وإني أعتقد أن على الوالدين أن يكونا على دراية بهذه الأمور، ويتناقشا في أهميتها، ويتبيَّنا أبعادها وعواقبها قبل حدوثها، فلعلَّهما يستطيعان اتخاذ التدابير الناجعة حيالها، فهذا خيرٌ لهما من أن يغضَّا الطرف عنها ويتناسيا الأمر، ولا يفيقا إلا عندما يشاهدان تلك التصرفات تقع أمامهما، وعندها لا يدريا كيف يتصرفان حيالها بطريقة صحيحة، مما قد يؤدي بهما إلى الانفعال والتصرُّف بطريقة خاطئة قد تؤثر على أطفالهما.

وأذكِّر أخواتي مرة أخرى بما قلناه في الندوة السابقة من ضرورة تخصيص جلسات بين الأبوين، يتناقشان فيها ما يشاهدانه من تصرُّفات أطفالهم، حتى وإن كانت من طفلهما الرضيع؛ فلو شاهدا مثلًا الطفل يبتسم أو يحرك يده أو يقوم بفعل معين أو ينطق بكلمة فإن عليهما أن يتذاكرا ذلك ويتناقشانه فيما بينهما. كذلك، لو شاهدا تصرفات من أمهات أو آباء- سيئة كانت أو حسنة- فعليهما طرح ذلك أيضًا للمناقشة، وإذا استطاعا الالتزام بمثل هذا اللقاء فإنهما سيستفيدان- بإذن اللَّه- كثيرًا، ويكونان أقدر على تخطِّي العديد من العقبات والتحديات التي عادة ما يتعرضان لها.

وبعد أن ختمت الأستاذة عبير كلامها هذا، قالت: إني أعلم أن موضوع تربية الأطفال شائكٌ ومتشعِّب، ولا يمكن استقصاؤه في ندوة أو ندوتين. لكن هناك- كما ذكرنا- وسائل أخرى كالكتب والأشرطة والدورات التخصُّصية التي يمكن أن تفيد في هذا الجانب، وما عليكُنَّ يا أخواتي إلا المبادرة والاهتمام. أشكركُنَّ جميعًا على حضور هذه الندوة، وأتمنى لكنَّ حياة سعيدة تغمرها المحبة والوئام، وأسأل اللَّه أن يُبصِّرَكُنَّ بتربية أطفالكنَّ على الوجه الصحيح.

حوار مع الطفل

الحوار الأول: التربية الإيمانية للطفل

تعوَّدتُ الجلوس مع زوجي وأولادي في درس أسبوعي، نتذاكر فيه بعض أمور الدين، ونناقش القضايا التي تتعلَّق بالأسرة، وتعوَّدنا إقامة الدرس في مكتبة البيت ليستشعر الأولاد أهمية المكتبة، والدور الذي تؤديه في حياتهم، وقد خصَّصتُ درس هذا الأسبوع للحديث عن التربية الإيمانية للطفل.

في بداية الدرس، كنتُ أطلب من أحد الأولاد أن يقرأ بعض الآيات التي أكون قد انتقيتُها لتتوافق مع الموضوع الذي نريد الحديث عنه، وبعد ذلك أطلب من طفل آخر أن يقرأ حديثًا نبويًّا له ارتباط بموضوع الدرس.

بدأ ولدي أحمد بتلاوة الآيات ٢٣ إلى ٢٧ من سورة الإسراء: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ۝ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ۝ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾.

لما انتهى أحمد من تلاوة الآيات، طلبتُ من هاجر، التي تدرس في الصف الثالث، أن تقرأ حديث هذا الأسبوع، فقرأتْ: قال النبي ﷺ: « **لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** »[1].

بعد ذلك، قلتُ للجميع:

---

(١) رواه البخاري (حديث رقم: ١٥)، ومسلم (حديث رقم: ٧٠).

ـ مَن منكم يُلخِّص لنا ما فهمه من هذه الآيات؟

رفع محمد، الذي يدرس في الصف السابع، يده، ثم قال:

ـ يُشير ـ سبحانه وتعالى ـ في هذه الآيات إلى أن على كل إنسان أن يُفرِده بالعبادة، وأن يُحسِن إلى والديه وخاصة عندما يكبران في السِّن، وأن يصل أرحامه، ويعطف على الفقراء والمساكين، وأن لا يُبذِّر أمواله لأن التبذير من أعمال الشياطين.

إفراد العبودية لله وحده

شكرتُ محمدًا، ثم قلتُ:

ـ يا أحبابي، كما ترَوْن فإن اللَّه قد أمرنا في بداية هذه الآيات بإفراده بالعبادة، وأن لا نشرك معه أحدًا أو شيئًا من خلقه، وأنتم تعلمون أن الإنسان يكون دائمًا بحاجة إلى مَن يعتمد عليه ويتوكل عليه، وبحاجة إلى قوة عظمى عادلة تكفل له العيش الكريم، والأمن والاطمئنان، قوة تعطيه ما يسأل، وتمنع عنه ما يخاف، وتفصل بينه وبين غيره بالحق، قوة تُحقِّق له أمانيه، وتحفظ روحه وجسده من الهلاك، هذه القوة العظمى هي اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ.

هذا يعني أن لا نعبد أيَّ شيء سوى اللَّه؛ فلا نعبد الشمس ولا القمر ولا النجوم، ولا أيَّ شيء آخر في هذا الكون، وإنما نعبد اللَّه خالق هذا الكون ومدبِّر أموره، وخالق الحياة والممات، وخالق الإنس والجن، وخالق السماوات والأرض، وخالق الماء والزرع، وخالق العقل والدم واللحم، ومُسيِّر السحاب، وناصر المظلوم، وكاشف الكرب، ودافع الهَمِّ والغَمِّ.

محبة اللَّه هي أساس الإيمان

واصلتُ حديثي قائلًا:

كذلك، إن علينا أن نُحبَّ اللَّه أكثر من حبِّنا لأيِّ شيءٍ آخر، كما جاء في الحديث

الذي قرأته علينا هاجر، وأن يكون اللَّه أغلى في نفوسنا من أيِّ شيءٍ في هذه الحياة؛ فهو أغلى من الطعام والشراب والمال والأولاد والزوجة والوظيفة والسيارة، وكل شيءٍ آخر نمتلكه أو لا نمتلكه.

وعلينا أن نطيع كل أوامره، وأن نبتعد عن كل ما أمرنا باجتنابه، وعلينا أن نتوكل عليه في كل أمورنا، وأن لا نخاف أحدًا سواه، ولا نسأل أحدًا غيره. كذلك، على الإنسان أن يُطهِّر قلبه من جميع الأمراض القلبية، كالنفاق والرياء والكِبْر.

قالت زوجي:

ـ وأضيف إلى ما قاله أبوكم حديثًا مرويًّا عن رسول اللَّهﷺ يوضح لنا الكثير من الأعمال التي تُعمِّق في نفوسنا محبة اللَّه، فقد ذكر عبداللَّه بن عمر ـ رضي اللَّه عنهما ـ « **أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ ـ يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ شَهْرًا ـ وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يَتَهَيَّأَ لَهُ أَثْبَتَ اللَّهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الْأَقْدَامِ**»(١).

سألت ابنتي هاجر قائلة:

ـ كيف يكون الحب لله؟

فقلتُ لها:

ـ أحسنتِ يا ابنتي، أنتم تعلمون يا أبنائي أن الإنسان، وحتى الحيوان، يحب مَن يُحسِن إليه، ويكره مَن يُسئ إليه، وتعلمون كذلك أن الأطفال يحبون أبويهم لأن الأبوين

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (حديث رقم: ١٣٦٤٦).

يحافظان على أولادهم، ويوفران لهم كل ما يحتاجونه من أكل وشراب ولباس، ولأن اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ قد أعطانا الحياة وهيأ لنا كل ما نحتاج إليه، وسخَّر لنا كل ما في هذا الكون، فلذلك وجب علينا أن نحبه ونطيع أوامره. ولا تنسَوْا بأن اللَّه قد أكرمنا بأعظم نعمة، وهي نعمة الإسلام، وجعل لنا في هذا الدين من السماحة والسهولة والتيسير والتخفيف والرحمة ما يلائم الناس ويواكب حاجاتهم.

وتعرفون كذلك ـ يا أبنائي ـ أن رعاية الأبوين لا تدوم؛ فقد يمرض أحدهما أو يسافر أو ربما يموت، وأما اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ فإنه الحيُّ القيوم الدائم الباقي الذي لا يموت، والذي لا تأخذه سِنةٌ ولا نوم، فهو معنا أينما كنا، وهو الذي يحفظنا ويرعانا أكثر من آبائنا وأمهاتنا، ولذلك علينا أن نحبَّه أكثر من حبِّنا لوالدينا وأولادنا وغيرهم من الناس.

رفع محمد يده، فقال:

ـ وكيف نعرف مَن يُحبُّ اللَّه ومَن لا يُحبُّه؟

أجبتُه قائلًا:

ـ أحسنتَ يا محمد على هذا السؤال. إن محبة اللَّه تظهر في أفعال الإنسان وأقواله وأخلاقه؛ فعندما نرى شخصًا يؤدي ما أمرنا اللَّه به من عبادات، ويؤديها على أكمل وجه وأفضل هيئة، فإنا نعلم أن هذا الشخص يحب اللَّه، وأما لو شاهدناه يُفرِّط في العبادات ويتهاون فيها، وهو في الوقت نفسه سيِّء الخلق، فنعلم أنه لا يحب اللَّه.

وتعلمون ـ كذلك ـ بأن اللَّه يأمرنا في كتابه وعلى لسان نبيه محمد ﷺ بمساعدة الناس، والتخفيف عنهم، وإدخال السرور إلى قلوبهم، ومساعدة فقيرهم، وإعانة ضعيفهم، وإغاثة ملهوفهم، وعيادة مريضهم، وكفالة يتيمهم، وتعليم جاهلهم، وتوقير كبيرهم، والعطف على صغيرهم، والعفو عن مُسيئهم. لذلك، مَن نراه يقوم بهذه الأمور فإننا نعلم أنه يحب اللَّه.

علَّقت زوجي قائلة:

ـ إن محبة اللَّه ـ عزَّ وجلَّ ـ أساس المحبة لكل ما جاءنا عنه ـ سبحانه وتعالى ـ؛ فعندما نُحبُّ اللَّه فإننا سنُحبُّ القرآن الكريم لأنه كلام اللَّه، وسنُحبُّ تأدية الصلاة لأنها مناجاة لله، وسنُحبُّ التصدُّق إلى الفقراء لأنها قربة إلى اللَّه، وهكذا مع بقية ما جاءنا من عند اللَّه.

وتعلمون ـ يا أحبابي ـ بأن اللَّه يحب التوابين، والمتطهرين، والمحسنين، والمتصدقين، والصابرين، والمقسطين، والمتوكلين، وتعلمون أن اللَّه مع الصابرين، وأنه ـ سبحانه ـ وليُّ المؤمنين، وأنه يدافع عنهم، ولذلك فعلى كل واحدٍ منا أن يجتهد ليتَّصِف بهذه الصفات، ابتغاء الحصول على مرضاته ـ سبحانه ـ وحبه وولايته لنا ودفاعه عنا.

وبالمقابل، فعندما نعلم أن اللَّه لا يحب الخائنين، ولا الكافرين، ولا المتكبرين، ولا المعتدين، ولا الظالمين، ولا المفسدين، لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (النساء: ٣٦)، ولقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ (النساء: ١٠٧)، وغيرها من الآيات، فإن علينا أن نبتعد عن كل هذه الصفات حبًّا في اللَّه، ورغبة في إرضائه.

ابتسمتُ، وقلتُ لزوجي:

ـ ما شاء اللَّه هذا تحليلٌ جميل، وأحبُّ أن أضيف إلى ما قلتِه يا أمَّ أحمد شيئًا آخر؛ وهو أن حب اللَّه سيجعل المسلم يستشعر أنه ـ عزَّ وجلَّ ـ يرعاه ويحفظه في كل وقت ومكان، وهذا سيترتب عليه الشعور بالراحة والاطمئنان والثبات وعدم القلق أو الخوف أو الحزن، وكذلك سيمنحه سلامة النفس والجسد من الأمراض، والأهم من كل ذلك السلامة من المعاصي والآثام.

وما إن فرغتُ من حديثي حتى سأل أحمد:

ـ وما هي الأعمال التي تساعدنا على تقوية حبِّنا لله ـ سبحانه وتعالى ـ؟

قالت زوجي:

- إن من أهم الأعمال التي تقوي صلتنا به سبحانه، وتغرس في نفوسنا محبته الإكثار من ذكر اللَّه؛ فاللَّه أخبرنا في كتابه بأن من صفات أصحاب القلوب الحيَّة والعقول المستنيرة أنهم يذكرون اللَّه في جميع أحوالهم، حيث يقول- سبحانه- في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩٠-١٩١)، والأذكار- كما تعلمون يا أبنائي- عباراتٌ بسيطة من السهل على الصغير والكبير أن يحفظها وينطق بها، ومع ذلك فإن اللَّه يعطينا عنها الأجر العظيم.

كما أن علينا أن نتفكَّر في مخلوقاته التي تدل على عظمته وقدرته سبحانه، كما طلب منا ذلك في الآيات التي تلوتُها عليكم قبل قليل؛ فهذه السماء وما فيها من كواكب ونجوم وأفلاك ومجرات، وهذه الأرض وما عليها من كائنات ونباتات وما فيها من كنوز، وهذه البحار وما فيها من عجائب وغرائب كلها من آيات اللَّه المبهرة.

محبة الرسول- عليه أفضل الصلاة والسلام- من أهم علامات المحبة لله

قلتُ:

- وعلينا أن لا ننسى يا أبنائي أن من مظاهر محبتنا لله- عزَّ وجلَّ- أن نتَّبع رسولهﷺ، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة: ٣١). ونبينا محمدﷺ كان السبب في هداية هذه الأمة وإخراجها من الكفر إلى الإيمان، ونجاتها من العذاب في النار إلى النعيم في الجنة.

ومحمدﷺ أفضل خلق اللَّه جميعًا، بل إنه أفضل الأنبياء والرسل، وله- عليه الصلاة والسلام- مكانة عظيمة عند اللَّه في الدنيا والآخرة، وقد زكَّاه- سبحانه وتعالى- في القرآن الكريم، فقال عنه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: ٤)، فهو أكمل الناس

خُلُقًا، وأشرفهم نسبًا، وأعلاهم مقامًا عند اللَّه، ولذلك تميل نفوس المؤمنين إلى جعله- عليه الصلاة والسلام- القدوة في كل شيء.

فقالت ابنتي هاجر:

- وما معنى أن نجعله قدوة؟

ردَّت عليها زوجي:

- تعرفون يا أبنائي أن جميع الناس- الصغار والكبار- يحبُّون تقليد المشاهير والعظماء، وبالنسبة لنا نحن المسلمين فإن أفضل شخصٍ علينا أن نقلِّده هو النبي محمدﷺ كما قال لنا- عزَّ وجلَّ- في كتابه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١)، ولا يمكننا الاقتداء به- عليه الصلاة والسلام- إلا إن تعرَّفنا على شخصيته وتفاصيل حياته، وذلك من خلال ما وصفه اللَّه به- سبحانه- في القرآن الكريم، وأيضًا من خلال دراسة سيرتهﷺ.

فقلتُ لزوجي:

- بوركتِ يا أم أحمد فيما قلتِه، وعلينا أن ندرك يا أبنائي أن من علامات صدق إيماننا أن نجعل رسول اللَّهﷺ أحب إلينا من أنفسنا وأموالنا وأولادنا، كما جاء في الحديث الشريف الذي قرأته علينا هاجر في بداية هذا الدرس؛ فقد روى الإمام البخاري عن عمر بن الخطاب- رضي اللَّه عنه- أن رسول اللَّهﷺ قال: « **لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ، وَوَالِدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** »[١].

كذلك، إن من علامات محبتنا له أن نكثر من الصلاة عليه، وأن نتَّبع كل ما جاء به من عند ربه، وأن نستمسك بسنته، وأن لا نتوانى في الدفاع عنه ونصرته ونصرة سنته عندما نسمع أو نرى شخصًا ينتقص منه- عليه الصلاة والسلام- أو من سنته.

(١) رواه البخاري (حديث رقم: ١٥)، ومسلم (حديث رقم: ٧٠).

ومن علامات محبتنا لهﷺ أن نشتاق إلى لقياه يوم القيامة ومرافقته في الجنة؛ فإنه- عليه أفضل الصلاة والسلام- يقول: « **المرءُ مع مَن أحبَّ** »[1]، وأيُّ شيءٍ أفضل وأكرم لنفوسنا من أن نحشر معه- عليه الصلاة والسلام-؟ ولا ننسى يا أحبتي بأن الرسولﷺ هو صاحب الحوض المورود، وأنه سيسقي يوم القيامة مَن أحبَّه وسار على طريقته شربةً هنيئةً من هذا الحوض.

فقال أحمد:

- لقد سمعتُ أن كثيرًا من الكفار صاروا في هذه الأيام يسبُّون الرسولﷺ ويسخرون منه.

قلتُ:

- نعم يا ولدي، إن أعداء الإسلام حاقدون على هذا الدين، ويحاولون أن يُظهروا معايبه للناس- كما يتوهَّمون- مخافة أن يدخل الناس فيه، وإن من الوسائل التي يستخدمونها لتشويهه الانتقاصَ من الرسول- عليه الصلاة والسلام-؛ فتراهم يسبُّونه علنًا في الصحف والتلفاز ومواقع الإنترنت، وكذلك يسبُّون أزواجه وصحابته.

زادت زوجي على ما قلتُه:

- يا أبنائي، إذا كان الواحد منا لا يرضى أن يشتمه أحدٌ أو يسخر منه، فكيف يمكننا أن نسكت إذا قام شخصٌ بسبِّ الرسولﷺ؟ وكيف ندَّعي أننا نحبه عليه- أفضل الصلاة والسلام- ونحن لا نغار عليه ولا على أزواجه وصحابته.

فقال محمد:

- وكيف يكون دفاعنا عنه- عليه الصلاة والسلام-؟

قلتُ له:

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهم من أصحاب السنن.

ـ يا ابني: يكون ذلك بوسائل عديدة، منها: عرض سيرته ـ عليه الصلاة والسلام ـ مترجمة للعالم ليعرفوا حقيقة هذا الرسول العظيمﷺ من خلال أصحابها، أي نحن المسلمون، وبذلك يتبيَّن لهم كذب المفترين وادِّعاءاتهم. كذلك، لا بُدَّ أن يكون المسلمون قدوة للعالم في حُسْن أخلاقهم وطيب معاملتهم لغيرهم؛ فتصرُّفات المسلمين المشينة تؤكِّد للآخرين ما يُنسَب إلى الإسلام من دعاوى باطلة، وما يُنسَب إلى الرسول من افتراءات وأكاذيب.

بر الوالدين من دلائل المحبة لله

أضافت زوجي قائلة:

ـ ومن الأدلة على محبة الإنسان لربه طاعة أوامره، ومنها الإحسان للوالدين، والعطف عليهما، واحترامها، وخاصة عندما يكبران. وأنتم تلاحظون في الآيات التي قرأها علينا أحمد في بداية هذه الجلسة أن اللَّه قد قرَن بين إخلاص العبادة له ـ سبحانه ـ والإحسان إلى الوالدين، فاللَّه ـ عزَّ مِن قائل ـ يقول: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (الإسراء: ٢٣ـ٢٤). ويقول في سورة النساء: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (النساء: ٣٦)، وهنا نرى أن اللَّه قرَن بين إفراده ـ سبحانه ـ بالعبودية والإحسان للوالدين، وهذا يدلُّ على أهمية هذا الأمر، وخطر مَن يُفرِّط فيه.

قالت ابنتي هاجر:

ـ وكيف يكون الإنسان بارًّا بوالديه؟

قالت زوجي:

ـ أحسنتِ يا حبيبتي، فبِرُّ الوالدين من الأمور المهمة التي يجب أنْ يَعْلَمها جميع الناس، وخاصة الصغار منهم لكي يتربَّوْا عليها، وأول شيء علينا القيام به في حق والدينا ـ

بل قد يكون أهم شيء ـ أن نطيعهما فيما لا معصية فيه لله ورسوله؛ فإذا أمرانا بشيء فعلينا امتثال أوامرهما وتلبية رغباتهما، وعلينا أن لا نتضجَّر من كثرة طلباتهما.

قاطع أحمد أمه قائلًا:

ـ وماذا إن كنتُ لا أستطيع القيام بما يأمرانَني به؟

فردَّت زوجي عليه قائلة:

ـ أحسنتَ يا ولدي؛ فاللَّه لا يكلِّف نفسًا فوق طاقتها وقدرتها، ولكن علينا أن نعتذر لهما بالحسنى وبأسلوب مؤدب. كذلك، من وجوه احترامهما مخاطبتهما بأحسن الألفاظ، وعدم النطق بأية عبارات تؤذيهما أو يكرهان سماعها، وعندما يتحدث أحدهما فمن البِرِّ به أن نصغي السمع له، وأن لا نقاطع حديثه.

رفع أحمد يده مرة أخرى، فقالت له أمه:

ـ تفضل يا حبيبي.

قال أحمد:

ـ وهل الانشغال عن الوالدين بالهاتف أو الحاسوب أو غير ذلك يعتبر من عدم البِرِّ بهما؟

ابتسمتْ وقالت:

ـ ما شاء اللَّه، هذا سؤال مهم جدًّا!! نعم يا ولدي، إن انشغال الولد أو البنت بشيء آخر في حضرة والديهما يعتبر من سوء التأدُّب معهما.

قاطعتُ زوجي وقلتُ:

ـ أريد أن أوضح ما قالته أمكم أكثر. إن انشغال الأولاد بشيء آخر أثناء حديث والديهم لهم يعتبر من سوء الأدب معهما، كما قالت أمكم، وأما إن كان الوالدان مشغولَيْن

بأمرٍ آخر، أو يتحدثان إلى شخصٍ آخر، فلا بأس أن يشتغل الأولاد بما لا يُؤذي الوالدين.

تابعت زوجي حديثها فقالت:

ـ أحسنتَ يا أبا أحمد على هذا التوضيح، وأضيف بأن من وسائل البِرّ بالوالدين الإحسان إليهما، وخاصة عندما يكبران في السِّن، وهذا له صورٌ عديدة منها قضاء حوائجهما، ومساعدتهما في أعمالهما، والاعتناء بهما عندما يكونان مريضَيْن أو غير قادرَيْن، وكذلك إدخال السرور إلى قلبَيْهما بكثرة الجلوس معهما، ومؤانستهما بحسن الحديث إليهما والثناء عليهما والدعاء لهما في حضرتهما، وتقديم الهدية لهما ـ وخاصة في المناسبات ـ.

صلة الرحم والإحسان إلى الجيران وذوي القربى من دلائل المحبة لله

قلتُ:

ـ ومن دلائل محبة اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ أيضًا طاعته في صلة الرحم والإحسان إلى الجار، ورسولنا ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ أخبرنا بأنَّ مَن لا يصل رحمه فإنه لا يدخل الجنة، حيث قال: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ**»[1]. كذلك، إن الرسولﷺ أمرنا بالإحسان إلى الجار فقال: «**مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُه**»[2]، وحذَّرنا من الإساءة إلى الجيران فقال: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**»[3]، وفي رواية أخرى أن رسول اللّهﷺ قال: «**لَا وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، لَا وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، لَا وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ. قَالُوا: وَمَنْ ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: جَارٌ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ، قِيلَ: وَمَا بَوَائِقُهُ؟ قَالَ: شَرُّهُ**»[4].

---

(١) رواه مسلم (حديث رقم: ١٩)، وأبو داود (حديث رقم: ١٦٩٦).
(٢) رواه البخاري (حديث رقم: ٦٠١٥)، ومسلم (حديث رقم: ١٤١).
(٣) رواه مسلم (حديث رقم: ٧٣)، وأحمد (حديث رقم: ٨٨٥٥).
(٤) رواه أحمد (حديث رقم: ٨٤٣٢).

شكر النعم من دلائل المحبة لله

فسأل محمد قائلًا:

- وهل شكر النعم يعتبر نوعًا من المحبة لله؟!!

قلتُ:

- نعم يا محمد، فإن مَن يشكر الناس يعتبر صاحب خلقٍ حسن، فكيف بمَن يشكر اللَّه الذي امتنَّ علينا بكل هذه النِّعَم العظيمة؟!! وأنتم تدركون أنه لو اشترى أحدكم لعبة بعشرة ريالات فإنه سيفرح إن أراد شخصٌ آخر أن يشتريها منه بمائة ريال، ولكن هل يرضى أحدكم أن يُعطى ألف ريال أو حتى مليون ريال مقابل واحدة من عينيه أو أذنيه أو لسانه أو غير ذلك من جوارحه؟!! طبعًا، لن يقبل إنسان بذلك، وهذا يدلنا على أن كل واحدة من هذه الجوارح نعمة عظيمة، وعلينا أن نشكر اللَّه- سبحانه وتعالى- عليها، واللَّه يقول: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم: ٧).

النفاق أسوأ من الكفر بالله

فسأل أحمد:

- وهل هناك من المسلمين مَن لا يحبُّون اللَّه أو لا يحبُّون رسوله؟!!

قلتُ:

- نعم يا ولدي، فأنت تعلم أن اللَّه أمرنا بتطهير أنفسنا من الذنوب والمعاصي، وذلك بالتوبة الصادقة منها، وأمرنا كذلك بتطهير قلوبنا من الشرك والشك والحسد والحقد والغل والغش والكِبْر والعُجْب والرياء والسمعة، ولا يكون ذلك إلا بالإخلاص واليقين وحب الخير والحِلم والصدق والتواضع، وإرادة وجه اللَّه تعالى في كل أعمالنا وأقوالنا، وذلك بإخلاص النية له- سبحانه-.

لكن هناك من الناس مَن لم تتطهر قلوبهم ولم تَصْفُ سرائرهم له سبحانه، ولذلك فهم يتَّصفون بالنفاق والرياء والكِبْر، وهذه من أهم السِّمات التي يتحلى بها مَن يدَّعون أنهم مسلمون، وهي - في حقيقتها - تنفي عنهم الإيمان والحب لله.

قاطعتني ابنتي هاجر، فقالت:

- وما معنى النفاق والرياء والكِبْر يا أبي؟

قلتُ:

- النفاق يا ابنتي أن يظهر الإنسان أمام الناس وكأنه مؤمن تقي، ولكن قلبه يكره الإسلام ويكره المسلمين، وهذا أخطر أنواع النفاق، وهو ما يُسمى بالنفاق الاعتقادي. لكن هناك نوعٌ آخر من النفاق، وهو ما يُعرف بالنفاق العملي، وهو أن يتساهل الإنسان في اقتراف بعض المعاصي، وكأن اللَّه غير مطَّلعٍ عليه.

قاطعتني هاجر مرة أخرى قائلة:

- يا اللَّه!! ألا يخاف هؤلاء اللَّه؟!!

قلتُ لها:

- المنافق يا ابنتي لا يخاف اللَّه، وإنما يظن أنه بتصرُّفه هذا يخادع اللَّه، كما قال - سبحانه وتعالى - عنهم في سورة البقرة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (البقرة: ٨-١٠).

فسأل محمد:

- وهل هؤلاء مسلمون يا أبي؟

قلتُ: هم يعيشون بين المسلمين، ويعتبرون أنفسهم منهم، ولكنهم في الحقيقة أسوأ

من الكفار.

فعلَّق محمد قائلًا:

ـ هذا يعني أنه لا يستطيع أحدٌ معرفتهم، أليس كذلك؟!!

ردَّت زوجي:

ـ بالرغم من أنهم يندسُّون في صفوف المسلمين، ويحاولون أن لا يكتشفهم أحد، غير أن رسولنا الحبيب ـ عليه الصلاة والسلام ـ أوضح لنا بعض صفاتهم عندما قال عنهم: « **آيَةُ الـمُنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ** »(١)، وهذا يعني أن مَن يكذب ففيه خصلة من النفاق، ومَن لا يفي بوعده ففيه خصلة من النفاق، ومن يخون الأمانة ففيه خصلة من النفاق.

الكذب كبيرة من كبائر الذنوب

فقالت ابنتي هاجر ببراءتها:

ـ إني أسمع كثيرًا من الطالبات في المدرسة يكذبْنَ، فهل معنى هذا أنهنَّ منافقات؟!!

قلتُ لها:

ـ يا ابنتي إن الكذب خلقٌ ذميم، وهو يبدأ وكأنه مزاح وتسلية، ولكنَّ تَعَوُّد الإنسان عليه قد يُوْدي به إلى النار ـ والعياذ باللَّه ـ، كما جاء في الحديث الشريف: « **وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ، وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا** »(٢). كذلك، الكذاب يُعتبر فيه صفة من صفة المنافقين، ونحن نعلم أن المنافقين أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة، كما قال اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ عنهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (النساء: ١٤٥).

---

(١) رواه البخاري (حديث رقم: ٣٣)، ومسلم (حديث رقم: ١٠٧).
(٢) رواه مسلم (حديث رقم: ١٠٥).

علَّقت زوجي:

ـ من أجل هذا، فإن عليكم يا أحبابي أن تتعوَّدوا على قول الصدق، وأن لا تقولوا الكذب حتى وإن كان مزاحًا، وإذا سمعتم مَن يقول الكذب فعليكم أن تنصحوه، وإن لم تستطيعوا نصحه أو لم يتقبل منكم النصح فعليكم أن لا تجلسوا معه.

فقال أحمد:

ـ وإذا كان الكذب هو الخصلة الأولى من خصال المنافقين، فماذا عن الخصلة الثانية؟

خُلْف الوعد من صفات المنافقين

أجبته قائلًا:

ـ يا بُنيَّ، كما أن الكذب يعتبر من كبائر الذنوب، فكذلك عدم الوفاء بالوعد يعتبر من الأخلاق الذميمة التي على الإنسان أن يتجنبها، وديننا الحنيف يأمرنا بالوفاء بوعودنا مهما كلَّفنا ذلك، وجعل الوفاء بالوعد من صفات الأبرار.

فقال محمد:

ـ وهل يعني هذا أني إذا وعدتُ شخصًا بشيء، فعليَّ أن أعطيه ذلك الشيء؟!!

قلتُ له: نعم!!

فقال:

ـ ولكن، ماذا لو كنتُ أمزح معه فقط؟!!

قلتُ له:

ـ في هذه الحالة تكون قد كذبتَ عليه، وهذا أمرٌ لا يرضاه اللَّه ورسوله، كما بيَّنا قبل قليل.

خيانة الأمانة من صفات المنافقين

رفعت هاجر يدها، فقالت:

ـ وكيف يكون الإنسان خائنًا للأمانة؟

ردَّت عليها زوجي:

ـ يا ابنتي، إذا أعطاكِ شخصٌ شيئًا وطلب منكِ أن تحتفظي به عندكِ، فذلك الشيء يعتبر أمانة عندكِ، وعليكِ المحافظة عليه، إلى أن يأتي صاحبه فيطلبه منكِ، وخيانة الأمانة أن تُنكري ذلك الشيء، وهو أمرٌ خطيرٌ يا أولادي؛ ففيه أكلٌ لأموال الناس وحقوقهم بغير حق.

علَّقتُ على ما قالته زوجي، فقلتُ:

ـ إن مفهوم الأمانة أبعد مما هو معلومٌ عند غالبية الناس؛ فأنتم مثلًا عندما تكونون في المدرسة فعليكم المحافظة على كل ما فيها من مرافق وأثاث وأجهزة وأشجار وغير ذلك، وإذا قام أحد الطلاب بالعبث أو إتلاف شيء منها فإنه يُعتبَر خائنًا للأمانة.

كذلك، إن على الموظف أن يحافظ على الأشياء الموجودة في مكان عمله، وأن لا يقوم بإتلاف شيءٍ منها أو استخدامها فيما هو غير مسموح به، فمثلًا، تكون في مكاتب كثيرٍ من الموظفين هواتف خاصة بالعمل، فإذا قام أحدهم باستخدام هاتف العمل للاتصال بأهله وأصدقائه أو لقضاء أعماله دون إذن المسؤولين، فإنه يُعتبَر خائنًا للأمانة.

أضافت زوجي:

ـ ولا تقتصر أمانة الموظف في المحافظة على ما هو موجود في بيئة العمل فقط، ولكن تأدية العمل على أكمل وجه يُعتبر من أهم صور الأمانة، والتقصير فيه أو الانشغال عنه بالأمور الشخصية يُعتبر من أهم صور خيانة الموظف لوظيفته.

فقالت هاجر:

ـ ألاحظ أن بعض الطالبات يقُمْن برمي الطباشير على بعضهنَّ البعض، ومنهنَّ مَن يقُمْن بالكتابة على الجدران أو اللوائح المعلقة، فهل يُعتبَر هذا خيانة للأمانة؟!!

قلتُ لها:

ـ نعم يا ابنتي، فإن على الطالب المحافظة على كل ما هو موجود في المدرسة، ورمي الطباشير فيه إتلافٌ لها، والكتابة على الجدران واللوائح فيه إتلافٌ للجدران واللوائح.

فقال أحمد:

ـ وهل على الطلاب أمانة المحافظة على هذه الأمور فقط في المدرسة؟!!

ردَّت عليه زوجي قائلة:

ـ يا أحمد، المسلم مؤتمن على كل ما في هذا الكون، وعليه أن لا يسيء استخدام شيء منه، ولو فعل شيئًا من ذلك فإنه يُعتَبر خائنًا للأمانة؛ فإذا ذهبنا مثلًا إلى الحديقة العامة فعلينا أن لا نعبث بورودها والألعاب الموجودة فيها، وأن لا نرمي القمامة فيها، وإذا ذهبنا إلى الشاطئ فعلينا أن نحافظ على جماله، وأن لا نرمي فيه الأوساخ أو نعبث بالمرافق الموجودة فيه.

زدتُ قائلًا:

ـ والسائق في سيارته يُعتبر مؤدِّيًا للأمانة إن هو التزم بقوانين المرور، واحترم الآخرين الذين يسيرون في هذا الشارع، وأما المتهوِّر في السياقة والـمُسرِع والمخالِف لأنظمة المرور فإنهم يُعتَبرون خائنين للأمانة.

الرياء هو الشرك الأصغر

ثم سأل أحمد:

ـ وماذا عن الرياء يا أبي؟

قلتُ:

ـ الرياء هو أن يُزيِّن الإنسان العبادة من أجل أن يمدحه الناس.

فقالت هاجر:

ـ وكيف يُزيِّن الإنسان عبادته؟!!

فردَّ عليها أحمد:

ـ مثلًا، إذا كان الإنسان يصلي لوحده فإنه قد يُسرِع في صلاته، ولكنه عندما يشاهد شخصًا قادمًا فإنه يخشع في صلاته، من أجل أن يمدحه ذلك الشخص.

علّق محمد، فقال:

ـ إني أشاهد كثيرًا من الأولاد يقومون بذلك في المسجد.

فقالت زوجي:

ـ الرياء ليس خاصًّا بالأولاد فقط، ولكن الكبار يقعون فيه كثيرًا، وهذا منشؤه عدم الخوف من اللَّه، وعدم الشعور بمراقبته سبحانه، فعلى الإنسان أن يعلم أن اللَّه يراقب جميع أقواله وأفعاله، وأن لكل إنسان مَلَكٌ عن يمينه وآخر عن شماله يكتبان أعماله. كذلك، قد ذكر اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه أن جميع الجوارح ستشهد على الإنسان يوم القيامة، إذ قال سبحانه في سورة النور: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النور: ٢٤)، وقال في سورة فصلت: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (فصلت: ٢٠ـ٢٢).

فقال محمد:

ـ يا اللَّه!! إذا كان اللَّه والملائكة والجوارح يراقبون أعمال الإنسان وأقواله، فكيف يمكنه أن يعمل أمورًا لا يرضاها اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ؟!!

قلتُ:

ـ يا أبنائي، إن الرياء أمرٌ خطير، وقد سمَّاه الرسول ﷺ بالشرك الأصغر، لأن مَن يقوم بأعماله من أجل أن يمدحه الناس، فكأنه اتخذ أولئك الناس آلهة أخرى مع اللَّه. يقول رسول اللَّه ﷺ: « **قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ** »(1). ولهذا، فعليكم يا أبنائي عندما تقومون بعمل أن تخلصوا النية فيه لله وحده، وأن لا يكون همُّ أحدكم مدح الناس وثناءهم عليه، وأن تتذكروا أن اللَّه لا يقبل العمل من الإنسان إلا ما كان خالصًا لوجهه ـ سبحانه وتعالى ـ.

تأدية الفرائض والنوافل

قالت زوجي:

ـ وعلينا أن لا ننسى يا أحبابي أن اللَّه لا يقبل من الإنسان عملًا ما لم يؤدِّ أولًا ما افترضه عليه من واجبات وحقوق، وأيضًا أن لا يتهاون في تأدية النوافل.

قاطع محمد أمه قائلًا:

ـ لقد كان درسنا اليوم في مادة التربية الإسلامية يتعلق بشرح آية البِرِّ، والتي يقول فيها ـ عزَّ مِن قائل ـ: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٧).

---

(١) رواه مسلم (حديث رقم: ٦٤).

فقلتُ له:

ـ أعطنا نبذة مما استفدتَه من هذه الآية الكريمة.

فقال:

ـ إن الآية الكريمة تقول بأن البِرَّ هو أعلى مراتب الإيمان، ولا يمكن أن يتحقق إلا إن قام الإنسان بالأعمال التي ذُكِرت في الآية ومنها الإيمان باللَّه واليوم الآخر والملائكة والنبيين، ثم التصدُّق على الأقارب واليتامى والفقراء، ثم تأدية الفرائض كالصلاة والزكاة، ثم الوفاء بالعهد، والصبر على الشدائد والـمِحَن.

فعلَّقت زوجي قائلة:

ـ ما شاء اللَّه يا محمد، لقد كفيتنا مؤونة الكلام الذي كنتُ أريد أن أقوله لكم، وأزيد على ما قلتَه بأن علينا أن نتذكر أن نؤدي كل تلك الأعمال بإخلاص لله ـ سبحانه وتعالى ـ. كذلك، إن الأعمال التي ذُكِرت في الآية هي فقط بعض الأعمال، وهناك أعمالٌ كثيرة غيرها كالصيام والحج وبرِّ الوالدين وزيارة الأقارب وصلة الأرحام والتصدُّق عليهم، وكذلك المشاركة في الأعمال الخيرية التي تقام في المجتمع وبذل المال عليها.

أضفتُ على ما قالته زوجي:

ـ وقبل ختام هذا الدرس أريد أن أنبِّه إلى أن الإنسان الحذر من الوقوع في المعاصي بسبب مكائد الشيطان، كما حذَّرنا سبحانه من ذلك، فقال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ٢٧). ولكن مَن أغوته نفسه، ووقع في حبائل الشيطان، فعليه المبادرة إلى التوبة، وحبيبنا المصطفى ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ يُذكِّرنا بذلك فيقول: « **كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ** »[1]. وقد أوجد لنا ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ مخرجًا من

(١) رواه الترمذي (حديث رقم: ٢٤٩٩)، وابن أبي شيبة (حديث رقم: ٣٤٢١٦).

الذنوب والمعاصي والخطايا التي نرتكبها؛ وذلك بالتوبة والاستغفار والدعاء والتضرُّع له ـ سبحانه ـ بأن يغفر لنا الذنوب ويكفِّر عنا السيئات ويحفظنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، ويعلِّمنا ـ سبحانه ـ في سورة آل عمران كيف ندعو اللَّه فيقول بصيغة الدعاء: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ۝الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ۝رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ۝ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ۝رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (آل عمران: ١٩٠ـ١٩٤)، ويقول الشاعر:

لا تسألنَّ بُنيَّ آدمَ حاجةً ... وسَلِ الذي أبوابُهُ لا تُحجَبُ
فاللّهُ يغضبُ إن تركتَ سؤالَهُ ... وبُنيُّ آدمَ حين يُسألُ يغضبُ

فعلَّقت زوجي قائلة:

ـ أحسنتَ يا أبا أحمد، وعليكم أن تعلموا ـ يا أبنائي ـ بعض آداب الدعاء التي منها: اليقين في الإجابة، وألا نستعجل الإجابة فإن هناك من الدعاء ما يجاب، ومنه ما يُدفع به البلاء، ومنه ما يُدَّخر ليوضَع في ميزان حسنات الإنسان يوم القيامة، وعليكم أن تعرفوا أن الدعاء خيرٌ كله،كما جاء في حديث النبيﷺ: « **إِنَّ اللَّهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحِي مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَبْسُطَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ، ثُمَّ يَرُدَّهُمَا خَائِبَتَيْنِ** »[(١)].

قلتُ:

ـ بورك فيك يا أم أحمد، وبورك فيكم جميعًا يا أبنائي. لقد تعلَّمنا في هذا الدرس الكثير من الأعمال والفضائل التي علينا المحافظة عليها، والتي سنُفصِّل فيها ـ بإذن اللَّه ـ في الدروس القادمة.

(١) رواه الحاكم في المستدرك (حديث رقم: ١٨٣١).

الحوار الثاني:
التربية الأخلاقية والاجتماعية للطفل

نظَّمت مدرسة الأبرار للتعليم الأساسي ندوة حول التربية الأخلاقية والاجتماعية للطفل، حضرها لفيفٌ من المعلمين وخبراء التربية وأولياء الأمور، وفي بداية الندوة شكر مدير المدرسة الحضور على المشاركة في هذه الندوة، وخصَّ بالشكر مقدِّمي الندوة وأولياء الأمور، ثم ترك المجال للأستاذ ياسين ـ معلم التربية الإسلامية ـ ليدير الندوة.

الأخلاق من ركائز ديننا الحنيف

بدأ الأستاذ ياسين بشكر الحاضرين من أساتذة ومربِّين وأولياء أمور، ثم قال:

ـ أيها الإخوة: تعلمون أن مسألة السلوك الأخلاقي تُعدُّ الركيزة الأساسية التي يقوم عليها أيُّ نشاط إنساني؛ فهي القوة التي تُنظِّم الحياة الاجتماعية من كل جوانبها التعبدية والتعاملية، ومن هنا فإن فقدان الإنسان للسلوك الأخلاقي الطيب ينعكس وبصورة سلبية على تعاملاته. وكما تعلمون، فإن البيئة النظيفة تحتاج إلى إنسان لديه من القِيَم الخلقية ما يجعله يغار على تلك البيئة ويسعى جاهدًا للمحافظة عليها، باذلًا جهده ووقته وماله من أجل خدمتها والدفاع عنها.

من هنا، أشاد الإسلام بالخلق الحسن، ودعا إلى تربية المسلمين عليه، وتنميته في نفوسهم، وفي ذلك نجد الحق ـ تبارك وتعالى ـ قد أثنى على النبيﷺ بحسن خلقه، فقال في سورة القلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)، وأخرج أحمد عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: « **أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟** » فَسَكَتَ الْقَوْمُ، فَأَعَادَهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا،

قَالَ الْقَوْمُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: « **أَحْسَنُكُمْ خُلُقًا** »[1].

وقبل أن نشرع في القضايا الأخرى، نريد من الدكتور عبدالرحمن- المتخصِّص في التربية السلوكية في معهد الأنوار- أن يحدثنا أكثر عن أهمية الأخلاق في العملية التربوية.

استفتح الدكتور عبدالرحمن حديثه بشكر القائمين على هذه الندوة والحضور الكرام، ثم قال:

- تعلمون يا آبائي وإخواني بأن الحاجة للالتزام بالأخلاق الإسلامية تبدو اليوم ماسة أكثر من أيِّ وقت مضى، وذلك من أجل الخروج بالبشرية كلها إلى ساحة النجاة والأمان، بعدما أفسدت الفلسفات الوضعية ذات المنحى المادي القِيَم في معظم الأمم المعاصرة، وشَوَّهت صورة الأخلاق، مما جعل الناس يتخبَّطون فيما نراه اليوم من فساد، وانتشار للرذائل، وانهيار شامل في القِيَم والمُثُل.

إن المتأمل في واقع المجتمعات المعاصرة ليلمس وبكل سهولة مدى التدهور الأخلاقي، وانعدام العديد من القِيَم التي كانت تميز مجتمعاتنا في السابق؛ حيث نرى انتشار الكذب والرذيلة بصورة كبيرة، بل لقد أصبح الحياء عملة نادرة، وانتشر التهُّور بين جموع الشباب، وغاب التوقير والاحترام داخل الأسرة، وتقطعت الأرحام، وقلَّ الإخلاص، إلى ما هناك من المظاهر التى تُعبِّر عن التدهور الأخلاقي.

لذلك، إن الإعداد الخلقي للطفل هو الذي يجعل من الصفات الحسنة، كالصدق والأمانة، والإخلاص والوفاء، والشجاعة والعفة، والمروءة والعدل وغيرها عادات في سلوك أبنائنا وبناتنا وحركتهم الدائبة، كما تجعلهم ينفرون في سلوكهم اليومي من الصفات السيئة، كالحسد والحقد، والخيانة والكذب، والظلم والغدر وغيرها، وبهذا الإعداد تختفي أيضًا كثيرٌ من المظاهر الغير مرغوبة في السلوك الإنساني، كالحمق والتكبُّر، والصَّلَف والتهوُّر، والخوف والجزع، وقبول الذل والمهانة، والخشونة والغلظة في معاملة المؤمنين.

---

(١) رواه أحمد (حديث رقم: ٦٧٣٥).

وللأخلاق دورٌ كبير أيضًا في المحافظة على البيئة من التلوث بمختلف أنواعه ومجالاته؛ سواءٌ أكان في التلوث المائي أم الهوائي أم الإشعاعي أم الضوضائي. كذلك، إن للأخلاق دورًا مهمًّا في كبح جماح عمالقة العالم من سباق التسلُّح وما يصاحب ذلك من تدميرٍ للبشر والمجتمعات، ولا ننسى أن الأخلاق هي ركيزة المساواة بين الشعوب وزوال الطبقيات، وهي سبب لزوال ثالوث الفقر والجوع والبطالة.

الأعمدة التي تقوم عليها التربية الأخلاقية

شكر الأستاذ ياسين الدكتور عبدالرحمن على ما قدَّمه من إيضاح جليٍّ لأهمية الأخلاق، ثم طلب من الدكتور رائد- الموجه التربوي في وزارة التربية والتعليم- أن يتحدث عن المسؤول عن زرع الأخلاق وتنشئتها في قلوب أبنائنا وبناتنا.

استهلَّ الدكتور رائد حديثه بشكر القائمين على هذه الندوة لإتاحة الفرصة له للمشاركة، ثم قال:

- إن غرس الأخلاق الحميدة في نفوس الأطفال ليُعَدُّ من أبرز وأهم الأسس العلمية السليمة في التربية، ولا يمكن للأخلاق أن تنشأ وتترعرع إلا من خلال تغذيتها المتواصلة من بيئات التربية الثلاث الأساسية: الأسرة والمدرسة والمجتمع، ثم غيرها من البيئات.

أما الأسرة فإنها تُغذِّي الصغار بالصفات الخُلقية الحسنة عن طريق الممارسة اليومية، والسلوك الخلقي الحسن للوالدين، وترجمة ذلك لمعاني المسؤولية والصدق والأمانة؛ ليعرف الطفل الأخلاق سلوكًا طبيعيًّا عمليًّا قبل أن يعرفها في معانيها المجردة، فإذا ما تربى الطفل في صغره ونشأ على أساس تربية إسلامية صالحة، غدا في كِبَره صلبًا لا يُخشى عليه من المتاهات التي ربما تواجهه في حله وترحاله، أو تصونه من الانجرار في دوامة الفساد والإفساد، وأيضًا فإن غرس القِيَم التربوية السليمة يكون عن طريق القصة والأمثلة وتجارب الآخرين، وتحبيب التجارب الإيجابية إليهم، وتحذيرهم من التجارب السلبية.

إن الاهتمام بالطفل يبدأ منذ ولادته ليكون سعيدًا في الدنيا والآخرة؛ وذلك بتربيته على الجوانب الشرعية والإنسانية لِيَشُبَّ طفلًا متوازنًا يستطيع مواجهة مشاكل الحياة، ويكون صاحب شخصية قيادية في مجتمعه، ولذا على الأبوين زرع صفات مهمة في شخصيته كالتفوق وسرعة البديهة والثقة بالنفس، وأن يُعلِّماه كيف يُعبِّر بطلاقة عمَّا بداخله، وأن الأمانة والصدق هما من لوازم النجاح في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن صفة العطاء والرحمة بالآخرين هي صفة الأقوياء، وعلى الوالدين أيضًا تدريب أطفالهم على الجود والعفو والحِلم والشجاعة، وتخويفهم من السرقة والخيانة والكذب والغيبة والنميمة والغش في الكلام وأكل الحرام، وتعليمهم مراقبة اللَّه تعالى في السمع والبصر والفؤاد.

إن الأطفال يراقبون سلوك الكبار، ويقتدون بهم، ولذا لا يجوز خداعهم ولو هزلًا أو كذبًا، وينبغي أن يكون ذلك كله عن طريق الممارسة والتطبيق؛ فعند تسليتهم أو إضحاكهم أو سرد قصص وحكايات عليهم ينبغي ألا يدخل فيه الكذب حتى ينشأ الطفل صادقًا واثقًا من نفسه، وحينئذ تستقر العقيدة الصحيحة في حياة الطفل دون خلل، ويتعلم منها كيف يواجه الحياة بثقة وإيمان، وبذلك ينشأ على ركيزة ثابتة قادرة على مواجهة صعوبات الحياة.

ولا شك أن المسجد هو مكان الإشعاع الروحي والثقافي الذي يصوغ سلوك الإنسان من نقاء وطُهْر، وعفاف وتجرُّد، وانضباط والتزام، وإذا تمكنت الأسرة من ربط أبنائها بالمسجد فإن ذلك سيكون- بإذن اللَّه- عونًا لتنشئتهم على الأخلاق الفاضلة من خلال ما يشاهده الطفل من حُسْن التعامل بين المصلين، وما يسمعه من مواعظ وإرشادات، وما يأخذه من رقائق تطهر قلبه وتزكيه.

وأما في المدرسة فإن الطالب يتلقى العلم النظري للأخلاق من خلال المناهج الدراسية، وفي الوقت نفسه يشاهد الممارسة العملية لها والمتمثلة في سلوك الهيئة الإدارية والتدريسية، بالإضافة إلى سلوك الطلاب أنفسهم، وكلما تناغم سلوك الموجودين في

المدرسة، كان الطالب أكثر استقرارًا من الناحية الخلقية، وحفَّزه ذلك على تقمُّص ذلك السلوك، وأما إن رأى تضاربًا بيِّنًا بين مادة الأخلاق النظرية والتطبيق العملي لها، فإن ذلك قد يحفِّزه على تقمُّص أخلاقيات شائنة كالنفاق والرياء والكذب، بالإضافة إلى تبنِّي السلوك غير السَّويِّ الذي يبدو أكثر مواءمة لطبيعته المضطربة.

والمنهج الدراسي له وسائله المباشرة وغير المباشرة في تربية الأخلاق؛ فالدروس الخاصة بالتربية الخلقية والتي تهدف إلى تعليم الفضائل، وتحض على العادات الطيبة والسلوك الحسن هي من الوسائل المباشرة، وأما تهيئة الجو المدرسي الذي يتبادل فيه الطلاب التجارب الحسنة، والخبرات الطيبة، ويتدربون عمليًّا على ممارسة سلوك الفضيلة والخير والحق في بيئة اجتماعية صالحة موجَّهة فهذه من الوسائل غير المباشرة التي تُعدُّ أكثر نفعًا وأعظم جدوى من تعليم الأخلاق نظريًّا لأن علم الأخلاق ودراسته شيء، وممارسته في السلوك اليومي شيء آخر.

أما بالنسبة للمجتمع فإن التربية الأخلاقية تقوم على ضوابط معينة؛ فالصحبة الصالحة والرفقة الحسنة تعتبران المزرعة التي تجني الأسرة والمدرسة من خلالهما نتائج ما تزرعانه في نفس الطفل، وبدونهما تظل التربية الأخلاقية مجرد وهم، وقد قيل في الأمثال المعروفة: الصاحب ساحب، وقيل: قل لي مَن تصاحب أقُلْ لك مَن أنت.

ونحن نعلم أن الفرد يتأثر بمن حوله كما يتأثر بما حوله من بيئة يعيش فيها، وأسرة ينشأ بين جدارها، ولذلك شبَّه الرسولﷺ الجليس الصالح ببائع المسك، والجليس السوء بنافخ الكير، فكلاهما مؤثر في صاحبه، والإنسان بطبعه مقلِّد لأصدقائه في سلوكهم ومظهرهم وملبسهم، فمعاشرة الأبرار والشجعان تُكسِب الفرد طباعهم وسلوكهم، بينما تُكسِبه معاشرةُ المنحرفين انحرافَهم أو تقبُّلَ انحرافِهم.

ولا يقتصر دور المجتمع على جانب القدوة وإنما يجب أن تكون هناك بيئة صالحة يمارس فيها الطفل حياته الأخلاقية؛ فالمكتبة لها دورها في تهذيب أخلاقه وسلوكه، والمتجر له دورٌ في صقل عقلياته وفكره من خلال ما يُباع فيه؛ فلو تربى الطفل في البيت

على حرمة الخمر والسجائر وغيرها، وتعلَّم في المدرسة مثل ذلك، ولكنه يشاهد بيع الخمور أو السجائر في المحلات التجارية فإن ذلك سيُربك المنظومة الأخلاقية لديه، ويوقعه- في أقل أحواله- في ريبة قد تؤثر عليه سلوكيًّا وربما عقديًّا- والعياذ باللَّه-، وذلك مما يراه من انفصام بين ما يتعلم وبين ما يمارسه الناس.

كذلك، إن للإعلام تأثيره الواضح في تشكيل أخلاقيات الناشئة، وللأسف الشديد فليس هناك فيما يُعرَض في إعلامنا المرئي والمقروء ما يدعو إلى الارتياح؛ فقد صارت قنوات الجنس والمجلات الهابطة والروايات الساقطة والمواقع الإباحية هي ما يستيقظ عليه الطفل وينام، وإذا كان بمقدور الأسرة والمدرسة معالجة الفساد الأخلاقي أثناء حركة الطفل اليومية في البيت أو المدرسة، فإن معالجة- بل حتى التعرُّف على- الفساد الأخلاقي الذي يكتسبه الطفل وهو على سريره أو أثناء تصفحه لهاتفه بات أمرًا صعبًا.

من هنا، فإن على الأسرة والمدرسة والمجتمع التكاتف لنشر التوعية الكافية لجعل الممارسات التي يقوم بها الطفل في غرفته أو مدرسته أو في الشارع تسير وفق المنظومة الأخلاقية السليمة التي يُراد له اكتسابها وممارستها.

القدوة الصالحة: أهميتها وكيفية غرسها

بعد أن أنهى الدكتور رائد حديثه شكره الأستاذ ياسين على ما قدَّم، ثم أحال الميكروفون إلى الأستاذ علاء- المتخصِّص الاجتماعي بمركز شفاء- وطلب منه الحديث عن علاقة القدوة بالأخلاق وكيفية غرسها في الناشئة.

شكر الأستاذ علاء الحاضرين والمنظمين للندوة، ثم استهلَّ حديثه عن القدوة فقال:

إن المنهجَ الإلهيَّ في إصلاح البشرية وهدايتها إلى طريق الحق يعتمد على وجودِ القُدْوَة التي تُحوِّل تعاليمَ الشريعة ومبادءَها إلى سلوكٍ عمليٍّ، وحقيقةٍ واقعةٍ أمام البشر جميعًا؛ فكان رسول اللَّهﷺ هو القدوةَ التي تترجم المنهج الإسلامي إلى حقيقة وواقع، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١)، ولما سُئِلَت أم

المؤمنين عائشة- رضي اللَّه عنها- عن خُلُقِهﷺ قالت: « **كان خُلُقُهُ القُرآنَ** »[1].

فكما هو معروف فإن الطفل قد يصعب عليه إدراك المعاني المجردة؛ لذا فهو قد لا يقتنعُ بتعاليم المربي وأوامره بمجرد سماعها، بل يحتاج مع ذلك إلى المثال الواقعيِّ المشاهَد، الذي يدعمُ تلك التعاليم في نفسه، ويجعله يُقْبِل عليها ويتقَبَّلُها ويعمل بها. وهذا أمرٌ لم يَغْفَل عنه السَّلَف الصالِح، بل تنبَّهوا له، وأَرشَدوا إليه المربين، فها هو عمرُو بن عتبة يُرشِد مُعلِّمَ ولده قائلًا: «**لِيَكُنْ أَوَّلُ إصلاحِكَ لِبَنِيَّ إصلاحُك لنفسِك؛ فإن عيونَهم معقودةٌ بعينك، فالحَسَنُ عندهم ما صَنَعْتَ، والقبيحُ عندهم ما تركتَ**»؛ وهذا يؤكدُ أنه لا سبيل إلى التربيةِ السليمةِ إلا بوجود قُدوةٍ صالحةٍ تغدو نموذجًا عمليًّا للامتثال للأوامر، والاستجابة لها، والانزجار عن النواهي والامتناع عنها.

وللأسف، هناك خلطٌ كبير في الأذهان بين مفهوم القدوة بشكل عام، ومفهوم القدوة الحسنة بشكل خاص؛ فالأطفال يشِبُّون وقد وضعوا في أذهانهم أن الأبَ أو الأم هو القدوةُ التي يفترض أن تكون، وبالرغم من قصور الأبِ والأم أحيانًا نجد أن الطفل لا يُميِّز ذلك، بل وتفرض عليه طبيعة المجتمع أن يحتذي بوالديه أو أحدهما؛ لكي يحكم عليه المجتمع بكونه ابنًا بارًّا، وهذا ليس إلا صورة لِما كان سائدًا في الماضي، فإن لم يكن الأب أو الأم قدوة حسنة حقيقية فلا ضرورة لأن يحتذيَ بهما الطفل، وإلا نشأ مقتدِيًا بقدوةٍ ليست على الدرجة المطلوبة من الكفاءة والمثالية، وإنْ تفهَّم الأبُ والأم ذلك، فسيجدانِ أن عليهما الكثير ليهتمَّا به ليكونا مثالًا جيدًا لأطفالهم.

إنَّ زرع القدوة الصالحة بين الأولاد والتركيز عليها من الأمور المهمة في التربية السليمة، ولا شك أن دراسة سِيَر الأنبياء والرسل والأبطال والنابغين في ميادين العلم والمعرفة والقتال والحرب، وعلى رأس ذلك دراسة سيرة سيد الخَلْق- صلوات اللَّه وسلامه عليه-؛ باعتباره القدوة الأولى للبشرية، تبعث الروح الخيِّرة في الناشئة، وتُجسِّد فيهم معاني التضحية والفداء في سبيل الـمُثُل العليا، والمبادئ السامية، ولا ننسى أن

(١) رواه أحمد (حديث رقم: ٢٤٦٠١)، والطبراني في الأوسط (حديث رقم: ٧٢).

نجعلهم يأخذون من قصص القرآن عظة وعبرة ونورًا يهتدون به في مواجهة ما تُخبئه لهم الحياة من مواجهات وتحديات.

إن المجتمع يتجه اليوم إلى تأكيد الاحتياجات والطموحات الشخصية والماديات مما يجعل الآباء يجدون صعوبة في إقناع أبنائهم بأهمية القدوة الصالحة، وغرس قِيَم الفضيلة والاحترام والمسؤولية وحقوق الغير في ظل نماذج كثيرة تبدو في أعين الناس ناجحة، ولكنها ضاربة بمثل هذه القِيَم عرض الحائط، وفي ظل غياب التوعية الدينية، والتفكُّك الأُسَري، وارتفاع معدلات الطلاق، وتشتُّت الأبناء بين الآباء والأمهات، تصبح قضية القدوة أكثر تعقيدًا في نفوس الناشئة.

إن علينا أن نساعد أبناءنا في فهم الشخصيات والحُكْم عليها، ثم نترك لهم مساحة كافية للحُكم بحرية؛ فليس المطلوب أن نختار لهم مَن يقتدون به، وإنما تعليمهم كيف يختارون قدوتهم، وكيف يُميِّزون بين القدوة الحسنة والسيئة، وكيف يعزلون القيمَ الجيدة عن ميول الأشخاص واتجاهاتهم، بل وشخوصهم وعلاقتهم بهم.

إن ما يحدث في مجتمعاتنا هو أن يختار الواحد قدوة ما فيلازمها في كل جوانبها دون تفكير أو تمييز، والبعض يتخذ والده مثلًا أعلى، فيحاول تقمص شخصيته بكل ميزاتها وعيوبها، وتراه يخلط بين القيمة الجيدة في شخصية والده وبين شخصية والده ذاتها؛ فقد يكون والده قارئًا جيدًا يعشق القراءة، ولكنه يحب قراءة الكتب السياسية أكثر من غيرها، فماذا يرى الابن؟ يرى أن عليه أن يقرأ في السياسة بالتحديد كوالده، وهو بهذا لم يميز بدقة بين قيمة القراءة لدى والده وحرصه عليها، وإنما خلط قيمة القراءة بميول والده ورغباته كشخص، وقد لا تتوافق ميولُ الوالد وولده، فيحدث الارتباك، وقد يقع الابن فريسة لذلك الارتباك، فهو يريد أن يقرأ كوالده، ولكنه لا يرغب في السياسة، ولأن والده يقرأ في السياسة يشعر هو بالذنب؛ فهو ليس كوالده، وتنتابه الشكوك بأنه ليس كفئًا كوالده، وأنه قد يكون شخصية غير ناضجة، بل ربما يرى نفسه جاهلًا في نظر والده والمجتمع.

نصائح للآباء والمربِّين

بعدما أنهى الأستاذ علاء حديثه، شكره الأستاذ ياسين ثم طلب من الأستاذ عيسى ـ رئيس قسم الإدارة الأسرية في مؤسسة الأسرة السعيدة ـ أن يُقدِّم للآباء والمربين بعض النصائح التي تُعينهم على تربية أولادهم تربية صالحة.

شكر الأستاذ عيسى الأستاذ ياسين والحضور، ثم قال:

ـ إنه من الصعب أن تُغطِّي ندوة واحدة جوانب التربية الأخلاقية والاجتماعية للطفل، ومن الأصعب أن يُقدِّم مثلي نصائح للآخرين، ففاقد الشيء لا يُعطيه، ولكني سأسرد عليكم بعضًا منها، وأتمنى من الآباء والمربين أن يعيروها اهتمامًا كبيرًا.

١ ـ ظاهرة العناد عند الأطفال ظاهرة صحية وليس فيها ما يمكن أن يُقلِق الوالدين، ولكن عليهما أن يكونا على دراية في كيفية التعامل معها، وخاصة في التحكُّم في أعصابهما، وتحسيس الطفل بوجود اللَّه ورقابته عليه له أثرٌ طيب في تهدئته وإذعانه لطاعة والديه.

٢ ـ تنشيط الرقابة الذاتية في أبنائنا وبناتنا على الدوام؛ وذلك بغرس الخوف من اللَّه في نفوسهم في كل وقت وحين، وأن اللَّه مُطَّلِع على سرائرهم، ثم بزرع الفضيلة والمبادئ السامية في نفوسهم بحيث يفرقون بين الحسن والسيِّء في دروب الحياة، فكما أن على الآباء احترام أبنائهم، وتقدير ذواتهم، والعمل على معرفة قدراتهم، والتعامل معهم على حسب تلك القدرات، فعلى الأبناء أن يسمعوا كلمة «لا»، وأن يعلموا أنه ليس كل طلب منهم يجب أن يُنفِّذه الآباء، وعليهم أن يشعروا بمراقبة والديهم، وأن ذلك نابع من الحرص عليهم حتى يتعلموا من تجارب الحياة ويستطيعوا مواجهتها.

٣ ـ تعويد الأطفال على المصارحة والوضوح مع الوالدين؛ وذلك من خلال إشباع الجانب العاطفي عندهم من قِبَل الوالدين، وبذلك تتهذَّب عواطفهم المتأججة، فلا

يبحثون عن وسائل أخرى لإخراجها وإشباعها، وإنما يكون الوالدان هما مصدر التلقي والإشباع في آنٍ واحدٍ.

٤ـ تحسيس الأطفال بأنهم كبار، وأنه لا ينبغي لهم الاشتغال بالتوافه، وإنما عليهم الاشتغال بعظائم الأمور. ومن الوسائل لتحقيق هذا الجانب اصطحابهم إلى مجالس الكبار؛ فهذا يُلقِّح أفكارهم، ويحملهم على محاكاة الكبار، ويُعلِّمهم آداب التعامل معهم من احترام وتوقير، ومن ذلك أيضًا عدم احتقار أفكارهم وتشجيعهم على المشاركة، واستشارتهم وأخذ رأيهم، وتوليتهم بعض المسؤوليات التي تناسب مع سِنِّهم وقدراتهم، واستكتامهم للأسرار، وأن نُكثِر من شكرهم والثناء عليهم، وخاصة عندما يُنجِزون عملًا أو يمارسون خلُقًا حسنًا.

٥ـ هناك من الأولاد والبنات مَن يلجؤون إلى أفلام الحب والقصص الغرامية والروايات الجنسية لإشباع عواطفهم وميولهم الجنسية، ولذلك علينا أن نشغل أوقاتهم بالمفيد مما يتوافق مع هواياتهم وميولهم، وإن كانت ميولهم عاطفية فيجب أن نختار لهم ما يعينهم على إشباعها وتهذيبها بما لا يتعارض مع ديننا الحنيف وعاداتنا وتقاليدنا الإسلامية.

٦ـ تثقيف الأولاد والبنات بالقضايا التي تطرأ على الشباب أو الفتيات عندما يصلون إلى سنِّ البلوغ، ومنها الحيض والاحتلام، وما يتعلق بذلك من أحكام شرعية. كذلك، علينا أن نكون مستعدين للإجابة على تساؤلاتهم المتعلقة بالجنس وعلاقات الحب بأسلوب يتناسب مع أعمارهم وبما لا يجرح الحياء والمروءة، وإذا فرطنا في هذا الجانب فإنهم ـ بلا شك ـ سيبحثون عنها من مصدر آخر لا نعلمه، وقد يحصلون عليها محملة بالأخطاء والعادات السيئة والضارة. ويجب التنويه هنا إلى أن هذه القضية يجب أن لا تكون في جلسة واحدة وانتهى الأمر، وإنما يجب أن تكون عملية متواصلة ومتغيرة في أسلوبها ومضمونها بتقدُّم عمر الشاب أو الفتاة.

بعدما أنهى الأستاذ عيسى حديثه، شكره الأستاذ ياسين، وشكر بقية المشاركين والحضور، ووعدهم بأن تكون هناك ندوات أخرى لاستكمال قضية التربية الأخلاقية وغيرها من القضايا، سواءٌ المتعلقة بالأطفال أم الشباب أم الكبار.

الحوار الثالث: التربية العقلية والعلمية للطفل

توجه الأستاذ يوسف، مُعلِّم المهارات، إلى حصته في أحد فصول الصف التاسع، وشاهد الطلاب من بعيد وهم يجلسون بأدب والبِشْر بادٍ عليهم، وما إن دخل الصفَّ حتى قاموا احترامًا له، فبادرهم مبتسمًا:

ـ ما شاء اللَّه، أرى السعادة بادية اليوم على محياكم!!

فقام أحد الطلاب المتميزين، وقال:

ـ يا أستاذي: هل نسيتَ بأننا اليوم على موعد لزيارة المكتبة العامة؟

فقال الـمُعلِّم مداعبًا:

ـ أكُلُّ هذا من أجل المكتبة، أم من أجل النزهة أيضًا؟

قام طالبٌ آخر وقال:

ـ للاثنين يا أستاذي، فانشراح النفس مهمٌّ لتلقي العلم، والقراءة تبعث في النفس البهجة والسرور.

فقال الـمُعلِّم:

ـ أحسنتَ يا ولدي، وهيا يا أبنائي فلا نريد تضييع الوقت؛ فوقتُ الإنسان أثمن من أن يُضيَّع فيما لا فائدة فيه.

خرج الطلاب في طابور واحد إلى مواقف الحافلات، ثم صعدوا الحافلة التي ستُقِلُّهم إلى المكتبة العامة.

التربية بالقدوة

عندما تحركت الحافلة، قال الأستاذ:

ـ مَن منكم يا أبنائي قد زار هذه المكتبة من قبل؟

رفع بعض الطلاب أيديهم، فأشار إلى أحد المتميزين في الصف، وقال له:

ـ متى زرتَ هذه المكتبة يا أحمد؟

ـ إني أزورها كل يوم يا أستاذي!!

تعجَّب الأستاذ من ردِّه، فقال:

ـ لا بُدَّ أنك تسكن قريبًا منها؟

ـ لا يا أستاذي، ولكن والدي عوَّدني أن يأخذني إلى المكتبة كل يوم بعد صلاة المغرب، وهناك أجلس أكتب واجباتي وأذاكر دروسي.

ـ ولماذا لا تفعل ذلك في البيت؟

ـ إن والدي من الناس الشغوفين بالقراءة، ولذلك فعندما أجلس أذاكر دروسي ينشغل هو بقراءة الكتب، وإذا احتجتُ إلى مساعدة يكون بجانبي.

ردَّ الـمُعلِّم متعجِّبًا من صنيع والد أحمد، فقال:

ـ واضحٌ أن والدك من محبي القراءة، ولكن ماذا عنك أنت؟

ـ إن مشاهدتي لوالدي وهو منهمكٌ في القراءة أوجد في نفسي الفضول لتصفُّح بعض الكتب الموجودة في المكتبة، ومع الأيام صرتُ أحبُّ المكتبة وأحبُّ ما فيها من كتب، وصرتُ أُضحِّي بنومي بعد رجوعي من المدرسة وأقوم بكتابة واجباتي ومذاكرة دروسي في البيت، وعندما نصل إلى المكتبة أستمتع بقراءة الكتب التي أحبُّها.

ابتسم الأستاذ، ثم توجه إلى طلابه وقال لهم:

ـ هكذا تكون التربية بالقدوة يا أبنائي؛ فأخوكم أحمد قد نشأ على حبِّ المكتبة لرؤيته والده مُنكبًّا على الكتب، حتى صار يُضحِّي بأوقات راحته من أجل الجلوس مع الكتاب. بعد ذلك وجَّه سؤاله إلى الطلاب، فقال:

ـ وهل هناك أحدٌ غير أحمد زار المكتبة من قبل؟

رفع مصطفى يده فأذن له الأستاذ في الكلام، فقال:

ـ أنا وإخوتي نزور المكتبة كل شهر يا أستاذي!!

ـ وكيف ذاك يا مصطفى؟

ـ إن أبي يقيم لنا في البيت كل شهر برنامجًا ثقافيًّا ليوم كامل، ويبدأ هذا البرنامج بصلاة الفجر وينتهي بصلاة العشاء ويتخلَّله فقرات ثقافية نقوم بها في البيت وأخرى خارج البيت، ومنها زيارة المكتبة.

تعجَّب الأستاذ يوسف من هذه الفكرة، فطلب منه أن يوضح أكثر، فقال:

ـ قبل أسبوع من هذا اليوم الثقافي يقوم أبي بتوزيع الأدوار على أفراد أسرتنا؛ فأحدنا سيقرأ القرآن، وآخر سيقرأ حديثًا شريفًا، وثالث سيأتي بخاطرة قصيرة. كذلك، هناك مسابقات ثقافية، وهناك فقرة متميزة، وهي أن يعطينا أبي مجموعة من الأسئلة التي علينا البحث عن إجابات لها من المكتبة العامة، ولذلك فهو يأخذنا إليها ثم يعطينا فترة ساعة كاملة للبحث عن إجابات من هنا وهناك. والحقيقة أننا بهذه الطريقة استفدنا كثيرًا في التعرُّف على المكتبة وأقسامها، وعلى الكثير من الكتب الموجودة فيها.

علَّق الأستاذ يوسف والبِشر بادٍ عليه، فقال:

ـ ما شاء اللَّه، هذه فكرة جميلة ومحفِّزة للقراءة والبحث.

لا حياة للإنسان إلا بالعلم، ولا علم إلا بكثرة القراءة

وصلت الحافلة إلى المكتبة، ونزل الطلاب منها بهدوء، ثم دخلوا واصطفوا حول أحد موظفيها، واسمه خالد، الذي رحَّب بهم، وبدأ يشرح لهم أقسامها، وطرق تصنيف الكتب فيها، وقوانين الإعارة للكتب والدوريات وغيرها من المواد، وبعد ذلك أخذهم في جولة في أقسام المكتبة، ثم انتهى بهم المطاف إلى غرفة المخطوطات.

بعد أن تجمَّع الطلاب في غرفة المخطوطات، بدأ الأستاذ خالد حديثه للطلاب بتوجيه السؤال التالي إليهم:

ـ هل تعرفون ما هذه يا أولادي؟

رفع أحد الطلاب يده فأشار الأستاذ خالد إليه ليتكلم فقال:

ـ غرفة المخطوطات.

تبسَّم الأستاذ، ثم قال:

ـ أحسنتَ يا ولدي، وماذا تعرف عن غرفة المخطوطات؟

ـ تحفظ فيها الكتب القديمة.

ـ نعم، ولكن الكتب التي ترونها هنا هي بخطِّ اليد وليس بخطِّ المطبعة، ولذلك فهذه الغرفة تعتبر من أهم غرف المكتبة، وتُشكِّل ثروة لا تُقدَّر بثمن؛ فأصحاب هذه المخطوطات قد بذلوا مُهَجَهم من أجل تدوينها.

رفع أحد الطلاب يده فأذن له الأستاذ خالد بالكلام فقال:

ـ ومن أين نقلوا ما كتبوه فيها؟!!

ابتسم الأستاذ خالد، ثم وجَّه الحديث إلى الطلاب قائلًا:

ـ هل يعرف أحدكم إجابة لسؤال زميلكم؟

رفع أحمد يده، فأذن له الموظف بالكلام، فقال:

ـ طبعًا من عقولهم.

هزَّ الأستاذ خالد رأسه موافقًا لإجابة أحمد وقال:

ـ أحسنتَ يا ولدي، معظم هذه المخطوطات التي ترونها أمامكم قد كتبها أصحابها بأيديهم، ومنها مَن نقلها الكاتبون لها من مخطوطات أخرى ألَّفها غيرهم.

استأذن الأستاذ يوسف في التعليق على ما قاله الموظف، فقال:

ـ يا أبنائي، إن ما تشاهدونه في هذه الغرفة من مخطوطات قد كلَّف أصحابها جهدًا عظيمًا وأخذ منهم وقتًا طويلًا، ولكن لا مناص من القيام بذلك؛ فأمتنا الإسلامية لا بُدَّ من أن تكون سيدة الأمم وصانعة الحضارات، ولن يتأتَّى لها ذلك إلا بالعلم، والتأليف هو ثمرة هذا العلم.

رفع ناصر يده فأذن له الموظف، فقال:

ـ وكيف يمكن لشخص أن يؤلف مثل هذه الكتب الكثيرة؟

ـ أحسنتَ يا ولدي، والإجابة على سؤالك هي في كلمة واحدة: بالقراءة!!

رفع ناصر يده مرة أخرى فأومأ له الموظف ليتكلم فقال:

ـ هل يعني هذا أني لو واظبتُ على القراءة سأصبح مثل هؤلاء، وسأستطيع تأليف الكتب الكثيرة؟!!

ابتسم الأستاذ خالد وقال:

ـ سؤال ممتاز يا ولدي، ولا أستطيع الإجابة عليه بـ نعم ولا بـ لا، وإنما أقول: ربما!!

ثم بدأ الأستاذ خالد يشرح للطلاب إجابته فقال:

ـ إن القراءة تفيد الإنسان في حياته فائدة عظيمة؛ فهي تُوسِّع دائرة خبراته، وتفتح أمامه أبواب الثقافة، وتُحقِّق له التسلية والمتعة، وتُكسِبه حِسًّا لغويًّا أفضل، وتجعله يتحدث ويكتب بشكل متميِّز، كما أن القراءة تعطيه القدرة على التخيُّل وبُعْد النظر، وتُنَمِّي عنده مَلَكة التفكير السليم، وترفع لديه مستوى الفهم، وتساعده على بناء نفسه، وتعطيه القدرة على حل المشكلات التي تواجهه في حياته.

قاطع سعيد حديث الأستاذ سائلًا بتعجُّب:

ـ يا اللَّه، أَكُلُّ هذا تفعله القراءة؟!!

ابتسم الأستاذ خالد قائلًا:

ـ نعم يا أولادي؛ فالقراءة تصنع المعجزات، ولكن لكي يصل الإنسان إلى مرحلة القدرة على الإنتاج والعطاء والتأليف فعليه المثابرة الجادة في القراءة، وأعني بذلك أن تكون بشكل يومي ومكثف، وبطريقة صحيحة.

قاطع طالبٌ آخر حديث الأستاذ، فقال:

ـ وهل هناك طرق غير صحيحة للقراءة؟

ـ نعم يا ولدي، إن الطريقة الصحيحة للقراءة هي أن تتخيَّر المكان الهادئ الذي يعينك على التركيز؛ فالمكان الذي به ضوضاء كصالة البيت أو قريبًا من التلفاز مُشتِّتٌ للذهن. كذلك، عليك أن تُبعِد عنك ما يمكن أن يلهيك ويقطع تركيزك في القراءة مثل الهاتف.

أما ما يقوم به بعض الناس من الإمساك بالكتاب وهو جالسٌ بين أهله أو أصدقائه فهذا لن يستطيع التركيز في قراءته، وكذلك فإن القراءة المتقطِّعة لا تفيد، وإنما يحتاج الإنسان لتخصيص وقتٍ معيَّن لها بحيث يركِّز فيه فقط على ما يقرؤه. ومن طرق القراءة

الصحيحة أيضًا التركيز على كتاب واحد إلى أن ينتهي منه؛ فالتنقل من كتاب لآخر لا يفيد الإنسان كثيرًا.

استأذن عليٌّ للحديث، ثم قال:

- إني أجد صعوبة في قراءة الكتب، وإنما أهوى المجلات التي بها رسوم كرتونية أو مسابقات وألغاز.

- للأسف الشديد، فهذه ظاهرة منتشرة بين كثير من طلاب المدارس، ولعلاج ذلك لا بُدَّ من تعويدهم على القراءة منذ نعومة أظفارهم.

علَّق الأستاذ يوسف على هذا فقال:

- نعم يا أولادي، لا بُدَّ أن يتغذى الطفل بالقراءة منذ ولادته مثلما يتغذى بالطعام والشراب، وهناك العديد من الطرق التي تُنمِّي فيه حبَّ القراءة ومنها:

أولًا: أن تكون في البيت مكتبة صغيرة، وأن يكون الأب والأم قدوة لأطفالهما في القراءة المنتظمة؛ فعندما يرى الطفل أبَوَيْه يرتادان هذه المكتبة بشكلٍ منتظم فإنه يتعوَّد على ذلك، فالطفل يحبُّ تقليد أبويه.

ثانيًا: أن تحتوي المكتبة المنزلية على كتيبات ومجلات متنوعة بحيث تكون ممتعة وتتناسب مع عمر الطفل ومستواه الدراسي، وأيضًا مع رغباته وميوله؛ فالطفل مثلًا يحب قصص الحيوانات وأساطيرها، ثم بعد فترة، يحب قصص الخيال والمغامرات والبطولات، وهكذا تتنوَّع الكتب التي يحبُّ قراءتها بتقدُّم عمره وارتقاء مستواه العقلي.

ثالثًا: أن يُخصِّص الأبوان وقتًا يقرءان فيه للطفل القصص الـمُشوِّقة والجذابة، حتى ولو كان يعرف القراءة، فإن هذا يُعدُّ من أفضل الأساليب لغرس حب القراءة في نفسه، وأحبُّ أن أضيف هنا أمرًا مهمًّا وهو أن يجعلا القراءة حيَّة وممتعة وذلك من خلال نبرات الصوت والحركات التمثيلية، وأيضًا من خلال محاورة الطفل وطرح الأسئلة عليه.

رابعًا: استغلال المناسبات الدينية، مثل الصوم والحج، وعيد الفطر والأضحى، ويوم عرفة وعاشوراء، وغيرها من المناسبات وتقديم القصص والكتيبات الجذابة للطفل حولها، والقراءة له، وحواره بشكل مُبسَّط، والاستماع لأسئلته. كذلك، استغلال الرحلات والنزهات والزيارات، كزيارة حديقة الحيوان، وإعطاء الطفل قصصًا عن الحيوانات، ومحاورته حولها. وهناك العديد من الطرق الأخرى، ولكن أكتفي بهذه الأمثلة.

التأليف ودوره في إحياء الأمة

شكر الموظف الأستاذَ يوسف على هذه النقاط المهمة، ثم واصل حديثه فقال:

- ومن الطرق الصحيحة للقراءة أن يكون بجانبك دفترٌ تُلخِّص فيه ما تقرأ ليسهُل عليك لاحقًا استرجاع ما قرأته من خلال ذلك الملخَّص، وفي هذا يقول الشاعر:

العلمُ صيدٌ والكتابةُ قيدُهُ — قيِّدْ صُيودَكَ بالحِبالِ الواثقةْ
فمِنَ الحماقةِ أن تصيدَ غزالةً — وتفُكَّها بينَ الخلائقِ طالقةْ

رفع أحد الطلاب يده، ثم قال للموظف:

- يا أستاذ: لا شكَّ أن هناك علومًا كثيرة، فأيُّ العلوم أنفع لنا ولأمتنا؟

سُرَّ الموظف بهذا السؤال، وبدا ذلك على مُحيَّاه فقال:

- بارك اللَّه فيك وفي أمثالك يا ولدي، واعلموا يا أبنائي أن كل العلوم النافعة للإنسانية فيها الخير بإذن اللَّه، وخاصة إذا أراد الإنسان بها وجه اللَّه- سبحانه وتعالى-، ولكن علينا أن نعلم أن هناك علومًا أولى بالدراسة من غيرها؛ وأنتم تدركون أن علوم القرآن أشرف العلوم، وتليها علوم السنة المطهرة- على صاحبها أفضل الصلاة والسلام- ثم علوم اللغة العربية، ثم العلوم المعاصرة، وكلما تعمَّق الإنسان في شيء من هذه العلوم كان أقدر على القيام بالأمانة التي حمَّلها اللَّه إياه، وهي نشر رسالة الإسلام وإعلاء كلمته.

أضاف الأستاذ يوسف قائلًا:

ـ ولا تنسَوْا يا أبنائي أن العلوم الأساسية التي ذكرها الأستاذ خالد، كعلوم القرآن والسنة واللغة، على كل واحدٍ منا أن يتعلمها ولا يُفرِّط فيها، ثم علينا أن ندرس العلوم الأخرى ونحاول أن نبدع فيها.

رفع راشد يده، ثم قال:

ـ ولكن كيف لنا أن نبرع في العلوم المعاصرة وقد سبقنا إليها الشرق والغرب؟

استأذن الأستاذ يوسف في الإجابة، فقال:

ـ هذا السؤال يدور في خَلَد الكثيرين من أبناء الأمة لما يرَوْنَه من غلبة أعدائهم وتشرذم أبناء هذه الأمة، ولكن عليكم أن تعلموا يا أبنائي أنه لا يصلح حال هذه الأمة إلا بما صلُح به أولها، وأنتم تعلمون أن المسلمين كانوا سادة العالم وقادة الأمم، وما ذاك إلا بتمسُّكهم بدينهم وعقيدتهم، وبتفانيهم في نشر دين اللَّه بشتى الوسائل ومنها الجهاد في سبيل اللَّه واكتساب العلم والمعرفة وتعليم الناس. ولذلك، علينا أن لا نخشى من تفوُّق غير المسلمين في العلوم المعاصرة؛ فإنه عندما نتمسَّك بكتاب ربنا وسنة نبينا ـ عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام ـ فلا شك بأن اللَّه سيفتح لنا أبواب التفوُّق في العلوم الأخرى، ولكن علينا أن نُخلِص نياتنا له سبحانه، وأن نُجِدَّ ونثابر، كما كان ديدن أسلافنا من قبل.

رفع أحمد يده، ثم قال:

ـ ولكن تعلمون يا أساتذتي أن هناك الكثير من الكتب التي تخالف عقائدنا ومبادئنا، بل وبعضها تحارب ديننا، فهل يمكن لنا قراءة أيِّ كتاب أم أن علينا الاحتراز من قراءة كتب معينة؟

ردَّ الموظف خالد بقوله:

ـ هذا سؤال جميلٌ وينمُّ عن إدراك عميق لواقع الثقافة المنتشرة بين أبناء هذه الأمة.

أنت محقٌّ يا ولدي أنه لا يمكننا قراءة أيِّ كتاب يقع في أيدينا؛ فإن هناك من الكتب النافعة وهناك من الكتب التي يمكن أن تُدمِّر العقيدة والأخلاق، وهناك من الكتب التي ظاهرها فيه الخير وباطنها فيه السمُّ الزعاف.

استأذن أحمد مرة أخرى، فقال:

ـ وكيف لنا أن نعرف الكتاب النافع من الضار، ونحن لا نزال لا توجد عندنا الثقافة الكافية للتمييز بين ما هو مفيد وضار؟

ـ أحسنتَ يا ولدي. صحيح أن هناك من الناس مَن هم ليسوا على علمٍ واسع ودراية عميقة بما تحتويه هذه الكتب، ولذلك عليكم يا أبنائي أن تستشيروا أساتذتكم وأهلَ الصلاح ممن تعرفون فيما ينبغي قراءته من الكتب وما لا ينبغي.

المناهج الدراسية ودورها في تشكيل عقيدة الطفل وفكره

علَّق الأستاذ يوسف بقوله:

ـ للأسف فإن قضية دسِّ السُّمِّ في الدسم موجودة في كثير من الكتب، وهي موجودة حتى في مناهجنا التي ندرِّسها لطلابنا، وأذكر هنا حادثة حدثت مع أحد أولادي الذين يدرسون في الصف السابع؛ إذ إنه عاد مرة من المدرسة متغيِّر الوجه، فسألته: ماذا بك يا ولدي؟ إني أراك حائرًا، فبادرني بسؤال أذهلني؛ حيث قال: أصحيحٌ يا أبتي أن أصلنا قرود؟!!

دُهِشتُ من هذا السؤال، فبدأتُ أوضح له بأننا بشر، وأن أصلنا من أبي البشر آدم ـ عليه السلام ـ، وذكرتُ له قصة خلق آدم ـ عليه السلام ـ في سورة البقرة، ولكنه ردَّ عليَّ بصوتٍ ينِمُّ عن حزنٍ وأسى: لقد شرح لنا اليوم مُعلِّم مادة العلوم درسًا عن تطوُّر الإنسان، وأخبرنا بأن الناس أصلهم قرودٌ ثم تطوَّروا وأصبحوا بشرًا!!

علَّق الأستاذ خالد بقوله:

ـ نعم، إن هذا الكلام يستحقُّ الدهشة، وما يُدهشني أكثر أنْ يقوله مُعلِّمٌ مسلم لأطفال لا يعون من الأمر شيئًا، وما يُذهلني هو كيف أن مناهجنا ـ وللأسف الشديد ـ قد احتوت على سموم تخالف عقيدتنا وتعاليم ديننا الحنيف.

واصل الأستاذ يوسف حديثه، فقال:

ـ لقد حاولتُ أن أوضح لولدي بأسلوبٍ يفهمه، ولكنه قاطعني وقال: ولكن، إذا كنا نحن المسلمين لا نؤمن بهذا، فلماذا يعلموننا ذلك في المدرسة؟ فقلتُ له: عليك أن تفهم يا ولدي أنه عندما خلق اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ آدم ـ عليه السلام ـ أمر الملائكة بالسجود له، وأمر إبليس أن يسجد له أيضًا، فسجدت جميع الملائكة، ولكن إبليس لم يسجد، فأصبح من ذلك الوقت عدوًّا لآدم وذرية آدم.

وأخبرته بأن إبليس له جنود وأعوان يحاولون إبعاد الناس عن الإيمان باللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ فيأتون إليهم، ويُوَسْوِسُون في عقولهم بأمور من مثل هذه التي سمعتَها من مُعلِّم العلوم، وكل مَن يستمع إلى ما يُمليه عليه الشيطان فإنه يعتبر من أعوان الشيطان.

علَّق الأستاذ خالد بقوله:

ـ أحسنتَ يا أستاذ يوسف على سرد هذه الحادثة التي فيها عبر وعظات مهمة، ومن هنا أؤكد لأبنائي الطلاب بأن عليهم استشارة مَن يثقون به من أهل الصلاح عندما يريدون قراءة كتاب ما، ونحن هنا بدورنا سنقوم بواجبنا في توجيه مَن يسألنا فيما يريد قراءته. كذلك، لو شككتم أثناء قراءتكم لبعض الكتب من وجود عباراتٍ لا تتوافق مع مبادئ ديننا وقِيَمِنا أو لم تفهموا المغزى منها، فعليكم المبادرة بالسؤال عنها عند مَن تثقون في دينه وأمانته.

قال الأستاذ يوسف:

ـ أظن أننا أخذنا الكثير من وقتك يا أستاذ، ونشكرك على المعلومات الوافية والإجابات الشافية التي قدمتها للطلاب، وإذا كان لديهم أسئلة أخرى فبمقدورهم أن يسألوك إياها عندما يأتون إلى المكتبة، والآن يا أبنائي قد حان وقت العودة إلى المدرسة.

الحوار الرابع:
بناء الشخصية القيادية لدى الطفل

بعد نجاح الندوة الأولى التي نظمتها مدرسة الأبرار للتعليم الأساسي حول التربية الأخلاقية والاجتماعية للطفل، نظَّمت ندوة ثانية حول بناء الشخصية القيادية، حضرها حشدٌ كبير من المعلمين ورؤساء النوادي والفرق الشبابية والتطوُّعية، بالإضافة إلى العديد من أولياء الأمور، وقد رعى الندوة سعادة محافظ المنطقة، وفي بدايتها شكر مدير المدرسة راعي الندوة والمشاركين وأولياء الأمور، ثم طلب من الدكتور مصطفى ـ رئيس أمناء المجالس الشبابية بالمنطقة ـ أن يدير الندوة.

مفهوم القيادة والقائد

شكر الدكتور مصطفى مدير المدرسة والحاضرين، ثم قال:

ـ قبل أن نبدأ في طرح جوانب الموضوع الرئيس لهذه الندوة، سأستهلُّها بتعريف مفهومَيْ القيادة والقائد. القيادة عملية مهمة وضرورية لإنجاز أيِّ عمل من خطواته الأولى في التخطيط ثم التنفيذ والتقويم، وهي مهمة تناط بالقائد الذي يُنظِّم ويدير العمل بناء على أسُسٍ شخصية ومؤسَّسية، وهو أحد أفراد المجتمع، ولكنه بسبب تميُّزه بعدةٍ صفات طيِّبة وحميدة صار بمقدوره أن يكون أكثر قُربًا من أفراد مجموعة معينة، صغيرة كانت أم كبيرة، وصار أكثر معرفة بما يعانون من مشاكل وتحدِّيات، كما أن بمقدوره التأثير فيهم وتوجيههم إلى الوجهة التي يريد.

إن صناعة القائد أمرٌ مهمٌّ جدًّا، ونحتاج إليه في كل الأوقات ـ وخاصة في ظروفنا الراهنة التي تمرُّ بها أمتنا ـ، وقد تعارف الناس على أن القائد هو ذلك الشخص الذي

يشغل الدرجة أو المنصب الأعلى والأهم، ولكن- في الحقيقة- ليس كل من يمتلك سلطة أو يشغل أعلى المناصب يتمتَّع بشخصية قيادية؛ لأن هذا النوع من الشخصيات لا يرتكز على الموقع أو الرتبة، بل يرتكز على القدرة والفعل والأداء والكفاءة، فالقائد يتميَّز بالحنكة والذكاء والقدرة على السيطرة على الأمور والمتغيِّرات التي حوله أكثر من الرئيس.

وتُعدُّ الشخصية القيادية من أهم الشخصيات وأعظمها؛ لأن صاحبها يتمتَّع بـمَلَكَة نادرة لا يملكها إلا ما نَدَر من الناس، لدرجة أنه لا يزال يُعتَقَد أن القادة يُولَدون ولا يُصنعون، وذلك لصعوبة اكتساب الصفات القيادية العظيمة التي يتمتَّعون بها.

وقد قسَّم العلماءُ البشرَ إلى ثلاثة أنواع:

- النوع الأول: هم قادةٌ بالفطرة، ويُشكِّلون حوالي ١٪ من البشر، وهؤلاء لا يحتاجون إلى تعلُّم فنون القيادة إلا بقدر ضئيلٍ جدًّا، ويمتلكون عفوية في القيادة، وقدرة في التأثير في الغير وإدارة الجماهير.

- النوع الثاني: يُشكِّلون حوالي ٩٨٪ من الناس، وهؤلاء لديهم استعداد ليُصبحوا قادة، ويكتسبون القيادة من خلال التدريب المحدَّد والبرامج المعينة التي يخضعون لها، وكذلك النواحي الأخرى التي تساعد على تنمية شخصيتهم القيادية وصقلها، ومنها: التعليم، والتربية، والمجتمع، والأصدقاء، والمجهود الشخصي، والسفر.

- النوع الثالث: وهم يُشكِّلون حوالي ١٪ من الناس، وهؤلاء مهما تم تدريبهم وتعليمهم فلن يكتسبوا مهارة القيادة مطلقًا.

ونستفتح ندوتنا هذه بالحديث عن أماكن صناعة القادة، ويُحدِّثنا حول هذا الموضوع الأستاذ عبد القادر- رئيس أكاديمية القيادة الدولية-.

أماكن صناعة القادة

شكر الأستاذ عبد القادر الـمُقدِّم والحضور، ثم قال:

لا شك أن القيادية من أهم الخصال التي يرغب الوالدان في غرسها في أطفالهم، سواءٌ أكانوا صبية أم فتيات، وهي- لا ريب- خصلة مهمة جدًّا، وينبغي على والدَيْ الطفل وأهله الاعتناء بها؛ فالعمل على إعداد جيل من القادة يثق بنفسه، وقادر على تحدِّي العقبات التي تعترض طريق الأمة هدف ضروري في تربية النشء القادم، وزرع تلك الصفة فيهم يُكسِبهم القدرة على الثبات وامتلاك المؤهلات الضرورية للحفاظ على هوية الأمة ورُقيِّها بعيدًا عن التبعية والذوبان والانهيار.

تُسهِم الأسرة بشكل كبير في صناعة الشخصية القيادية، وقد أشارت الدراسات النفسية إلى أن ٩٠٪ من شخصية الطفل تتشكَّل في السنوات السبع الأولى؛ لأنه في هذه السِّن تكون لديه كل المقومات الضرورية للتغيير مثل حُبِّ الفضول والاكتشاف، والقدرة على الاعتماد على نفسه وتعلُّم أشياء جديدة.

ويمكن معرفة الشخصية القيادية من خلال سرعة البديهة، وحب المبادرة، ومساعدة الآخرين، والقدرة على اتخاذ القرارات المناسبة في اللحظة المناسبة، وإدارة الضغوط والأزمات، وحسن التصرُّف وحل المشكلات، والقادة هم أشخاص ناضجون، قادرون على السيطرة على أنفسهم وسلوكهم، ويتحمَّلون مسؤولية أفعالهم، ويتقبَّلون المحاسبة عليها، ولديهم تقديرٌ جيِّد للذات، ويُقيمون علاقات اجتماعية ناجحة.

كل هذه المهارات القيادية تدلُّ على أن الشخص مؤهَّل لكي يُصبح قائدًا، وإذا كان الطفل لا يمتلك أيًّا من هذه المواهب القيادية فيمكننا تنميتها فيه وإكسابه إياها تدريجيًّا؛ ففي السنوات الأولى من عمره ينبغي تعليمه تحمُّل المسؤولية، وتكليفه ببعض المهام المنزلية البسيطة التي تناسب عمره، وليس هناك عمرٌ محدَّد للبدء في تحميله المسؤولية، ولكن متى ما أعطتِ الأم توجيهًا له وفهم ذلك التوجيه، فإن ذلك مؤشِّرٌ على قابليته لتحمُّل المسؤولية.

ثم بعد أن يصل إلى عمر خمس سنوات نقوم بتكليفه بشراء متطلَّبات المنزل البسيطة من المحلات المجاورة أو نُعيِّن له بعض مهام التنظيف في المنزل، ويكون تحت مراقبة الأبوين، وبمثل هذا ينشأ ولديه حُبُّ مساعدة الآخرين وتحمُّل المسؤوليات، وحينئذٍ يمكن إخضاعه لبرامج معينة من شأنها أن تُسهِم في تطوير أدائه الذهني والعقلي، بالإضافة إلى البرامج التي تُطوِّر بناءه الجسمي وأداءه الرياضي، وبرامج أخرى تساهم في تطور أدائه الاجتماعي وتواصله مع الآخرين، وتُنمِّي لديه الروح القيادية من خلال الإيحاء إليه بتعظيم الشخصيات القيادية وإكبارها، وبيان سِرِّ العظمة ومواطن القوة القيادية لدى هذه الشخصيات.

وفي المرحلة العُمْرية من ٧ إلى ١٨ سنة تتشكَّل ١٠٪ من شخصية الإنسان، وهي ليست قليلة، ففيها يمكن إعادة تشكيل شخصية الطفل عن طريق الإقناع واللين والتفاهم، ويمكن فيها كذلك تقويم شخصيته بتعديل بعض الخصائص القابلة للتعديل، ويمكن أن تُسهِم المدرسة إسهامًا فعَّالًا في بناء شخصية الطفل في هذه السِّن بما تُهيئه له من مناخ صحي يساعده على النمو المعرفي والانفعالي والجمالي والاجتماعي والعقدي، لا بما تُقدِّمه من معلومات نظرية فقط، بل بالممارسة العملية، وما يعنيه هذا من تكامل بين المعرفة والممارسة.

وكما تُسهِم الأسرة في تكوين الشخصية القيادية ببذورها الأولى، فإن المدرسة هي المزرعة التي تنمو وتزدهر فيها، والمعلم هو الخبير المسؤول عن كشفها وتنميتها، وللتربية أساليبها ووسائلها الفنية والعلمية الكثيرة في كشف الخصال القيادية لدى الأطفال، وتمرينهم على قيادة الجماعة وتوجيهها، كتعويدهم القيام ببعض المشاريع والأعمال الطلابية، أو تكليفهم ببعض المسؤوليات التي هي في حدود قدرتهم، كقيادة اللجان والمشاريع المدرسية، أو عرض بعض القضايا ومناقشتها، أو إدارة بعض الأعمال الجماعية كتنظيم الصف والفريق الرياضي، أو مراقبة المدرسة من ناحية النظافة والنظام، أو الإشراف على الرحلات الطلابية والإعداد لها وتنظيمها.

ومن المهم مراقبة الطفل والحذر من وقوعه في الغرور والتعالي نتيجة نجاحه، أو شعوره بتفُّوقه، بسبب ما يقوم به من أعمال، وأن لا يتَّخِذ العنف وإيذاء الآخرين، سواءٌ من إخوته أو زملائه في المدرسة، وسيلة للتعبير عن قيادته وقوته، وعلى الأسرة والمدرسة اتِّباع أسلوب الحزم معه إنْ رأتْ أَمَاراتِ ذلك.

الاستقلالية والثقة بالنفس وتقدير الذات

بعدما أنهى الأستاذ عبد القادر حديثه، شكره الدكتور مصطفى، ثم أحال الميكروفون إلى الدكتور غالب- عميد معهد السلوك التربوي- ليتحدَّث عن قضية الاستقلالية والثقة بالنفس وتقدير الذات. شكر الدكتور غالب الجميع، ثم قال:

تربية الأطفال على الاستقلال والثقة بالنفس أحد أهم واجبات الآباء تجاه أطفالهم لأنها سوف تساعدهم في تنشئة جيل قادر على تحمُّل المسؤولية وتخطِّي الصعاب بنفسه، وهذه الصفات تُكتسب عن طريق التدريب والممارسة والقدوة الحسنة، وتبدأ في السنتين الأولَيَيْن من عمر الطفل؛ فهو يريد أن يأكل بمفرده، ويلبس ملابسه دون مساعدة، ويريد حلَّ مشاكله التي تواجهه بنفسه، ودون الحاجة للاعتماد على الآخرين، وهذه بدايات تشكيل هذه المهارات، ولكن للأسف فإن بعض الآباء يقمعونها وبحُسن نية؛ فالأم تمنع طفلها الصغير أن يأكل بمفرده خوفًا على ثيابه من الاتِّساخ، وتُلبِسه ملابسه بنفسها حتى لا يلبسها بصورة خاطئة، ويختار له الأبوان الألعاب والكتب التي تعجبهما من غير أن يسألاه عن رأيه فيها، وعندما يعاني من مشكلة معينة فإنهما يتَّبعان معه أسلوب الوعظ والإرشاد أو التأنيب واللوم، أو يلجآن إلى حلِّ مشكلاته بأنفسهم. كل هذه الأساليب تُشعِر الطفل بالعجز والاتكالية وعدم الثقة بقدراته الذاتية.

لذا، فمن الضروري أن يُشجِّع الآباء والمعلمون الأطفال على الاستقلالية منذ الصغر، وأن يمنحوهم المزيد من الاستقلالية كلما كبروا، فهذا سوف يساعدهم على النضوج سريعًا، وعلى مواجهة الحياة بمفردهم دون مساعدة من أحد.

وأما الثقة بالنفس فهي خصلة مهمة للقادة؛ فلا توجد شخصية قيادية لا تثق في

قدراتها ومهاراتها، وتعرف نقاط القوة عندها، وتحاول التخلُّص من نقاط الضعف، ويرى علماء النفس والتربية أنها مفتاح الشخصية السوية والطريق الأكيد نحو النجاح في الحياة الخاصة والعملية، ولذلك فمن المهم أن يثق الطفل بما يملكه من قدرات حتى يحاول تطوير نفسه بشكل دائم؛ وتربي عنده حُبَّ الإنجاز، وخاصة عندما يُعطى تعبيرات إيجابية أو تحفيزية كلما أنجز مهمة ما، فذلك يُولِّد لديه ثقة بالنفس.

إن زرع الثقة في نفس الطفل ومكافأته عندما يُتقِن عملًا أو يتفوَّق في أمر، وعدم توجيه الإهانات إليه عند الفشل أو إشعاره بالقصور والعجز، كل ذلك مما يُشعره بأهميته، ويعينه على الصبر والمثابرة، ولذا يجب عدم تكليفه الأعمال التي تفوق قدراته لئلا يواجه الفشل المتكرر ويفقد الثقة بنفسه.

أيضًا ينبغي على الأهل أن يُشعروه بأهميته في الأسرة والمجتمع، ويُؤكِّدوا على مكانته بينهم، وأن يقوموا بتوجيهه لممارسة هوايات معينة وأنشطة مختلفة، بحيث يبرع فيها ويُريها لأهله ويرى مدى انبهارهم بنجاحاته، وتشجيعهم له، سواءٌ أخسر أم ربح، فذلك مما يُعزِّز ثقته بنفسه، وقد وجد العلماء أن الأطفال الذين يتربَّوْن في هذه البيئات يتميَّزون بالسعادة والثقة بالنفس والاستقلالية واحترام الآخرين، وغالبًا ما يكونون محبوبين وناجحين في دراستهم.

وأما تقدير الذات فيعني أن تكون الصورة المنطبعة بداخلنا عن أنفسنا إيجابية، بحيث نشعر بالاعتزاز والرضا عن هذه الذات، وإذا كانت صورتنا عن ذاتنا سلبية فسوف نكره أنفسنا ونذمها ونحتقرها، وليس هناك أخطر من أن يكره الطفل نفسه لأن ذلك سوف يُعرِّضه إلى العديد من المشكلات السلوكية والنفسية في محاولة يائسة لإثبات ذاته بطرق سلبية بعد أن فشل في إثباتها بطرق إيجابية.

يبدأ الطفل الرضيع بتكوين صورة مستقلة عن ذاته من الشهر التاسع، ثم تدريجيًّا تتبلور صورته عن ذاته وإحساسه بالرضا أو عدم الرضا عنها من خلال تفاعل الأسرة معه وأساليب معاملتها له، فإذا عُومِل معاملة أساسها المحبة والقبول والتقدير فانه سوف

يحب نفسه ويثق بها، وعلى العكس من ذلك فإذا عُومِل معاملة قاسية، وكلما أخطأ أو فشل قُوبِل بالرفض والضرب تعلَّم أن يكره نفسه ويفقد الثقة بها ويشعر بالإثم والذنب تجاهها.

وعندما يكبر ويدخل المدرسة يأتي دور المدرسة ليُكرِّس الصورة التي كوَّنها عن نفسه أو ربما لتصحيحها في بعض الأحيان عن طريق الأساليب التربوية التي يتبعها المعلم في الصف، ويكون مفهومه لذاته مرنًا وهو صغير، وكلما كبر اتجه نحو الثبات والرسوخ، ولذلك فمن المهم جدًّا الشروع في تطبيق برامج تنمية الثقة بالنفس وتقدير الذات مع الأطفال منذ الصغر.

وتتميز شخصية الطفل الذي يتمتع بتقدير إيجابي لذاته بالعديد من الخصائص، ومنها أنه يفخر بإنجازاته، ويتمتع بالاستقلالية، ويتحمَّل المسؤولية، ويمتلك القدرة على التأثير في الآخرين. وأما الطفل الذي يمتلك تقديرًا سلبيًّا لذاته فتجده يتجنَّب المواقف التي تُسبِّب له القلق، ويحطُّ من قيمته وإمكانياته، ويشعر بأن الآخرين لا يُقدِّرونه، ويلوم الآخرين على فشله، ويتأثَّر بالآخرين وينساق وراء سلوكهم السلبي بسهولة، ويشعر بالعجز في إنجاز التكاليف والأعمال.

الطموح وعُلُوُّ الهمة

شكر الدكتور مصطفى الدكتورَ غالب على مشاركته القيِّمة، ثم طلب من الأستاذ نور الدين- مدير مشروع «إلى الأمام دومًا»- أن يتحدث عن قضية الطموح والهمة العالية، ووسائل زرعها في الأطفال. شكر الأستاذ نور الدين الحاضرين، ثم قال:

لقد أراد الإسلام للمسلم أن يقوم بدور طليعي في قيادة البشرية والسير بها في طريق الخير والمحبة والسلام، والوصول إلى مرضاة اللَّه سبحانه، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (آل عمران: ١١٠)، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ

شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣)، وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: ٧٤).

والأمم تحتاج دومًا إلى أصحاب الهمم والطموح، فهم صُنَّاع الحياة وقيادات المستقبل في أيِّ أمة من الأمم في القديم والحديث، ولقد فضَّل اللَّه أصحاب الهمم العالية والطموح والمثابرة على غيرهم، فقال سبحانه: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٥)، وجاء في الحديث عن أبي فِراسٍ رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنْتُ آتِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِوَضُوئِهِ وَبِحَاجَتِهِ فَقَالَ: « **سَلْنِي** »، فَقُلْتُ: مُرَافَقَتُكَ فِي الْجَنَّةِ فَقَالَ: « **أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ؟** » فَقُلْتُ: هُوَ ذَاكَ فَقَالَ: « **أَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ** »[1].

وقد قال المتنبي:

إذا غـامَـرْتَ فـي شَـرَفٍ مَـرُومِ ... فـلا تَـقْـنَـعْ بـما دُونَ الـنُّجُـومِ
فَـطَـعْـمُ الـمـوْتِ فـي أمْــرٍ حَقـيرٍ ... كَـطَـعْـمِ الـمـوْتِ فـي أمْــرٍ عَـظـيمِ
يَـرى الْـجُـبَـنَـاءُ أنَّ الـعَـجْـزَ أَمْـنٌ ... وَتِـلْـكَ خَـدِيـعَـةُ الـطَّـبْـعِ الـلَّـئِيمِ

فمن هذه المفاهيم وغيرها نجد أن الإسلام يريد إعداد أمة قائدة رائدة في طريق الخير والحضارة المدنية بما لديها من رسالة إنسانية ومفاهيم خيِّرة ومنهج حياتي، ولذلك كان من واجب الآباء والمعلمين والمربين إعداد الأجيال القادمة وتربية أبناء الأمة على هذا الأساس. كذلك، من المهم إيضاح التحدِّيات التي تواجهها الأمة الإسلامية، وتنمية روح المواجهة بالاعتماد على النفس في دخول ميدان الحضارة كأمة قائدة مؤهلة للعطاء والمشاركة، وبيان الأسباب الحقيقية لتخلُّف الأمة الإسلامية وكبوتها، وأنها قادرة على تجاوز عقبات السقوط.

(١) الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم (حديث رقم: ٢٣٨٧).

وتبدأ مسيرة بناء شخصية الطفل منذ نعومة أظفاره؛ وذلك بالإصغاء إليه، وتشجيعه على التعبير عما يشعر به ويفكر فيه؛ فلديه أحاسيس وأفكار واهتمامات خاصة، وإن أبدى رغبةً في القيام بأمرٍ مميَّز، فعليهما تشجيعه عليه، ودلالته على الطريق الصحيح لتحقيقه، وعليهما تحفيزه ليبذل جهدًا أكبر، وهذا ما سيساعده على الـمُضيِّ قُدُمًا في الحياة، ويُذلِّل له العقبات التي قد تواجهه، وعليهما أن يفتحا المجال أمامه ليرى العالم، من خلال تعريضه للفرص الكثيرة التي من خلالها يرى أشياء جديدة، ويسوح إلى أماكن جديدة، ويلتقي بأناسٍ جُدُد، فما من أحدٍ غيَّر العالم بمجرد بقائه في المنزل.

ومن الأمور الأخرى التي تبني عنده الطموح والهمة كثرة قراءة الروايات والقصص والأساطير، فعلى الوالدين شراء مثل هذه الكتب له، وكذلك تعريفه بنماذج مشرِّفة من الأنبياء والصحابة والسلف الصالح ممَّن قادوا مجتمعاتهم وتميَّزوا وأفادوا وبرزوا، فهم خير أسوة وقدوة ومَثَل، ولا ننسى نماذج الصحابة صغار السِّن الذين كانت لهم أدوار قيادية في الدعوة للإسلام وخدمته وحتى في قيادة الجيوش، مثل علي بن أبي طالب ومصعب بن عمير وأسامة بن زيد، وغيرهم كثير رضي اللَّه عنهم جميعًا.

ومما يُذكر في هذا أنه كان لكافور الإخشيدي صاحبٌ، وكانا كلاهما عبْدَيْن أسَوَدَيْن، فجيء بهما إلى قطائع بن طولون أمير الديار المصرية وقتها ليباعا في أسواق العبيد، وجلس كافور وصاحبه يتحدثان، وبدأ كلٌّ منهما يسأل الآخر عن أمنيته وطموحه، فقال صاحبه: أتمنى أن أباع لطباخ لآكل ما أشاء وأشبع بعد جوع، وأما كافور فقال: وأما أنا فأتمنى أن أملك مصر كلها، لأحكم وأنهى، وآمر فأطاع، وبعد أيام بيع صاحبه لطباخ، وبيع هو لأحد قادة مصر، وما هي إلا أشهر حتى رأى القائد المصري منه كفاءة وقوة، فقربه منه، ولما مات مولاه قام كافور مقامه، واشتهر بذكائه وكمال فطنته حتى صار رأس القواد، وما زال يجد ويجتهد حتى ملك مصر والشام والحرمين. وبعد فترة مرَّ كافور يومًا بصاحبه فرآه عند الطباخ يعمل في جِدٍّ، وقد بدا بحالة سيئة، فالتفت كافور إلى أتباعه وقال: «**لقد قعدتْ بهذا همته فكان ما ترون، وطارت بي همتي فصرتُ كما ترون، ولو جمعتني وإياه همة واحدة لجمعنا مصير واحد**».

من أجل هذا كله لا بُدَّ أن نبحث في أبنائنا والشباب من حولنا عن أصحاب الطموح الكبير، والهمم العالية، ونعتني بهم أيما عناية، ففي مثل هؤلاء يكمن الأمل في مستقبل الأمة، ويسطُع اليقين في عزتها وكرامتها، وبغيرهم لا أمل ولا عزة ولا كرامة. كما ينبغي زرع الثقة فيمن افتقدها بتأثير التربية الخاطئة، وتأثير وسائل الإعلام، وذلك أمرٌ صعبٌ ولكنه ليس مستحيلًا؛ فكم من شخصٍ أدرك طاقاته بعدما مضى من عمره الكثير، فلم يمنعه ذلك من الإبداع وإفادة الأمة بالكثير، ومن أمثلة ذلك أبو ذر أبان بن وسيم وضياء الدين عبد العزيز الثميني- صاحب كتاب النيل وشفاء العليل- وغيرهم، عليهم جميعًا رحمة اللَّه.

ويمكننا التعرُّف في أبنائنا ومَن حولنا من الشباب على أصناف ثلاثة من حيث الطموح والأهداف والهمة للعمل:

١. **شباب بائس يائس**: طموحه متواضع ، وأهدافه هابطة، سواءٌ أكانت له همة تحمله لتحقيق أهدافه الدنيئة التي هي صوت شهواته أم لم تكن له همة.

٢. **شباب حالم**: يحلم بأهداف كبيرة وطموحات عظيمة، ولكنه لا يعمل لأحلامه، فلا همة له تحمله على العمل، بل يكتفي بالأحلام ويعيش فيها.

٣. **شباب طموح**: يحلم بأهداف كبيرة، ويُخطط لأحلامه وأهدافه، ويُنفِّذ وينتج، ويعمل بِجدٍّ ومثابرة، وهذا الذي يتمتَّع بهمة عالية تحمله إلى المعالي.

وأسرد لكم هنا بعض الخطوات التي يمكن أن ترتقي بهمة أطفالنا وشبابنا، وتُنمِّي طموحهم:

١) الاستعانة باللَّه، ودوام الدعاء، فعلى الرغم من أهمية الوسائل التربوية وفاعليتها، إلا أن الأمر كله موكول لله تعالى، بيده القلوب يُقلِّبها كيف شاء، فلا تنس في زحمة اتخاذ الأسباب الاستعانَة به سبحانه دائمًا، والتوجُّه إليه بالدعاء ليعينك ويسددك.

٢) الصــحــبة الصــالــحــة: فلا يمكن تنمية أيٍّ من الجوانب الإيجابية في الطفل دون أن تُهيِّئ له صحبة صالحة، تُذكِّره إذا نسي، وتُشجِّعه إذا أقدم، وتُعينه إذا همَّ. والصحبة ليست ضربًا من ضروب الحظ، تأتي كيفما اتفق، بل لا بُدَّ للمربي أن يعمل على ذلك من خلال غرس الطفل منذ الصغر في مجتمع نافع صالح، كشباب المسجد من ذوي الصلاح والاستقامة، وأيضًا بتشجيعه على مصادقة الصالحين منذ نعومة أظفاره، وتعليمه فنَّ اختيار الأصدقاء، والتعرُّف على أصحابه عن قرب، حتى وإن استدعى الأمر مشاركتهم بعض أنشطتهم، دون إحراجهم أو الإثقال عليهم.

٣) تعليمُه مجاهدة النفس ومحاسبتها، بإيجابية تدفعه لتطويرها، ومحادثتها دائمًا بأهمية الطموح وعُلُوِّ الهمة، وتدريبُه على مراجعة برامجه اليومية ومحاسبة نفسه عليها، وبثُّ روح الطموح وتحدِّي المهام الصعبة وإنجازها في نفسه.

٤) تعويده الابتعاد عن سفاسف الأمور؛ فأصحاب الطموحات الراقية والهمم العالية لا ينغمسون في الأمور التافهة فتشغلهم عن معاليها، كما ورد أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأُمُورِ، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا** »[١]، ويجب كذلك تدريبه على الاستغناء عن الكماليات في حياته.

٥) تدريبه على التخطيط الجيِّد الذي يدفع إلى التنفيذ الدقيق، وذلك من خلال سؤاله عن خططه المستقبلية، وحثِّه على وضع خطط لكل مرحلة من حياته، وتعويده أن لا يترك الإجازات الطويلة تمر دون أن يكون لديه خطة لها، ويمكن أن تشاركه في وضع خططه، وتصنع معه أهدافًا مشتركة تنفذونها سويًّا. كذلك، ينبغي تعليمه فنون التخطيط ورسم الأهداف في ضوء الإمكانيات والقدرات، فذلك يساعده على تنظيم وهندسة عقله بفاعلية، وتعليمه أيضًا ترتيب الأولويات، وتوجيهه إلى قراءة الكتب المتميِّزة في هذا الجانب.

٦) مشاركته في طرح المشكلات التي تعترض الأسرة، وتدارس الحلول الممكنة

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (حديث رقم: ٢٩٤٠).

معه، وإشراكه في وضع خُطَط الأسرة المستقبلية.

٧) تشجيعه على القراءة في كتب العظماء والقادة والناجحين وأصحاب الهمم العالية، وتدارسها معه، وتشجيعه على اختيار واحد من أولئك العظماء ليتقمَّص شخصيته.

٨) تعزيز روح المنافسة لديه، وذلك من خلال إشراكه في المسابقات الصغرى ثم الكبرى، وحثِّه على قبول التحدِّيات، مهما بدَتْ صعبة، وتقديم المحفِّزات له عند المنافسة والجوائز بعدها، وتعويده على تحدِّي ومنافسة ذاته لغرض تطويرها، وذلك بوضع أهداف طموحة، والسعي الجاد لتحقيقها.

٩) مساعدته على التغلُّب على التسويف والتأجيل؛ فالتسويف هو العدو الأول للطموح، والقاتل الكبير للهمم العالية، ويمكن ذلك من خلال تعليمه أن يضع وقتًا للانتهاء من كل مهمة، وتعليمه كيف يُشجِّع نفسه ويجعل لها حافزًا، وتدريبه أن لا ينتظر الإيحاء أو المزاج المتلائم، فهو لا يأتي إلا بالعمل، وتعليمه عدم التردُّد، فيتعرف على وقت اتخاذ القرار ولا ينتظر نتائج مثالية.

قوة الشخصية وقيادة الآخرين

بعدما أنهى الأستاذ نور الدين حديثه، شكره الدكتور مصطفى، ثم طلب من الأستاذ زين العابدين ـ عميد كلية القيادة الدولية بجامعة الرحمانية ـ أن يتحدَّث في موضوع قوة الشخصية وقيادة الآخرين. استهلَّ الدكتور زين العابدين حديثه بشكر المُقدِّم والحضور، ثم قال:

إن أحد أهم الجوانب التي يرغب الوالدان في زرعها في أطفالهم، سواءٌ أكانوا صبية أم فتيات، تربيتهم ليُصبحوا ذوي شخصية قيادية في مجتمعاتهم، وربما تكون هذه ميزة كبيرة ولكنها ليست شيئًا أساسيًّا لنجاح الإنسان أو بروزه في الحياة؛ فهناك كثير من القادة الذين لم يضيفوا الكثير لأنفسهم ولا لمجتمعاتهم، وإنما القائد الناجح هو الذي يقوم باستخدام نفوذه وقوته وصلاحياته التي أوكِلَتْ إليه في العمل للتأثير على تصرفات

الأشخاص الذين يقودهم وسلوكهم، والعمل على تحقيق ما فيه منفعة لهم وللأمة جمعاء.

إن قوة الشخصية مهمة للغاية؛ فأصحاب الشخصيات الضعيفة ليست لديهم القدرة على التعبير عما في أنفسهم بسهولة، بل ويعجزون عن إبراز مواهبهم كاملة أو إثبات ذواتهم للآخرين، كما أنهم لا يمتلكون القدرة على رفض السلوك السلبي حتى وإن كان على عكس ما نشؤوا عليه من عقيدة أو مبادئ أو أخلاق، وكثيرًا ما يتأثرون بمن حولهم، ويفعلون ما يُملونه عليهم مما يجعلهم تابعين لهم في كل شيء، وقد يتعلَّمون منهم التدخين وتعاطي المخدرات وغيرها من الآفات.

لكن علينا أن نعلم أن القيادة ليست بالتحكُّم في الآخرين والتعالي عليهم والأنانية في إبراز الذات وفرض الرأي والفكر على الآخرين، ولكنها قبل كل شيء احترامٌ للذات وللآخرين وثقة بالنفس وتحمُّل للمسؤولية، والقدرة على إدارة الأمور والنجاح في الحياة والتأثير الإيجابي في الآخرين، والقائد الناجح هو الذي تكون لديه القدرة على التشجيع وبثِّ روح الأمل لدى أفراد مجموعته، وخاصة عندما يصل أحدهم إلى حدِّ اليأس واللامبالاة، فهنا يأتي دور القائد في دفعه للأمام وتغيير الأفكار السلبية التي تدور في ذهنه.

ومن صفات القائد الناجح أيضًا الاستماع وأخذ رأي الآخرين؛ فالإنسان غير معصوم من اتِّخاذ القرارات الخاطئة التي قد تؤدِّي إلى كوارث، لذلك يجب تعويد الطفل على الإفصاح عمَّا في نفسه لأبويه من دون خوفٍ أو تردُّد، واستشارتهما فيما يتعرَّض له من مواقف، أو ما يجول بخاطره من أفكار.

ومن المهم أيضًا تعويده على الاندماج في المجتمع والانخراط مع الآخرين، مما يُعزِّز لديه معرفة الآخرين وكيفية التعامل معهم، ويمكن الاستعانة لذلك بكتب ومؤلفات تعالج مثل هذه القضايا. كذلك، فمساعدته على تحسين مهاراته في التواصل، وتعزيز قدراته على القراءة والكتابة، وتعويده على التفكير فيما يواجهه من مواقف، والبحث عن حلول إيجابية لها، وأيضًا تشجيعه على التعبير عن مشاعره وأفكاره، مما يُربي فيه

الجرأة على قيادة الآخرين، واتخاذ القرارات الحكيمة، ويمنحه الثقة بنفسه، والجرأة على التحدُّث في العلن وأمام جمهور كبير.

وأكثر الناس- للأسف- ينظرون إلى الشخص القيادي أنه مسؤول عن كلِّ شيء، وأن له مطلقَ الحرية في اتخاذِ كل القرارات وفعل ما يريد، ويغيب عنهم أنه من المفترض أن يُتقِن شيئًا اسمه فن التفويض؛ فإذا نظرنا إلى العالم الأوروبي اليوم لرأينا أن فكرة القيادة تقوم على مبدأ التفويض، أي إن معظم رؤساء الدول اليوم لا يتخذون القرارات إلا بعد الرجوع إلى مجالس الشيوخ والوزراء والشورى.

ولا بُدَّ للشخصية القيادية أن تعرف كيف تفصل وتوازن بين الحزم والغلظة، وبين الغرور والثقة بالنفس، وبين المغامرة والتهوُّر، وهذا ما يمنح القائد الحكمة وحُسْن التصرُّف في المواقف المختلفة، وحُسْن اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب، والقدرة على الإبداع والابتكار؛ فهو مُطالَبٌ بتقديم حلولٍ مختلفة وخلَّاقة ومبتكرة للمشكلات، وأن يصل إلى أهدافه بطرق غير تقليدية، وأن يعرف جيِّدًا كيف يُبدِع ويُحوِّل أبسط الأشياء إلى نجاحات وإنجازات عظيمة.

أهم سمات الشخصية القيادية

في ختام الندوة طلب الدكتور مصطفى من الأستاذ عرفان- مدير مدرسة النجباء- أن يقوم بتلخيص أهم سمات الشخصية القيادية، فشكره الأستاذ عرفان، وشكر الحضور، ثم قال:

لقد أتحفنا السادة المشاركون في هذه الندوة بالكثير من الخصال التي تُميِّز الشخصية القيادية، وسأُلخِّص هنا بعض ما قالوه، بالإضافة إلى بعض السِّمات الأخرى التي لم يتطرَّقوا إليها:

- أن يكون القائد مثقَّفًا وواسع الاطلاع والمعرفة.
- أن تكون لديه رؤية واضحة بالأهداف التي يطمح للوصول إليها، وبالتالي يكون

خلّاقًا وصاحب طموح، ولديه القدرة على الإبداع والابتكار بشكل مستمر، والقيام بإدخال كل ما هو جديد على العمل الذي يقوم به، ليستطيع الوصول إلى تلك الأهداف.

- أن يلتزم بالقِيَم الاجتماعية والعادات والتقاليد، ويتحلَّى بالمرح والدُّعابة بشكل منطقي ومعقول يجعله محبوبًا بين الآخرين، وأن يتميز بذكاءٍ اجتماعيٍّ عالٍ يُمكِّنه من معرفة نفسه ونفسيات الآخرين، وأن يكون قادرًا على فهم البيئة المحيطة به من أجل اتِّباع طرق صحيحة في التعامل معها.

- أن تكون لديه القدرة على ضبط نفسه والتحكُّم في انفعالاته، فلا تهمُّه الأقوال والإشاعات التي لا أساس لها من الصحة.

- أن تكون لديه القدرة على اكتساب المؤهلات التي تساعده على النجاح في إدارة مؤسسته، ومنها الانتظام في العمل، وفنُّ اختيار الشخص المناسب للمكان المناسب، من خلال معرفته الجيدة بطبيعة الأشخاص الذين يتعامل معهم، والقدرة على توزيع المهام والأعمال على مَن حوله بحكمة بالغة، حتى يستطيع استيعابهم والتعامل مع كل شخصٍ بحسب طبيعته، ويتجنَّب الوقوع في المشاكل معهم.

- أن يكون ذا شخصيَّة حازمة وقوية، ولديه الجرأة والإقدام لاتخاذ قراراته، وأن يكون قادرًا على اتخاذ القرارات الصائبة بحكمة وتعقُّل، وقراراته صارمة، ولا يتراجع عند اتِّخاذ أيِّ قرار يكون فيه مصلحة للجميع، وأن يتحمَّل تبعات قراراته؛ فصاحب الشخصية القيادية يعترف بأخطائه، ويحاول تصويبها وتصحيحها.

- أن تكون لديه القدرة على إقناع الآخرين بأفكاره، والعمل على تسهيل الأمور وتبسيطها ليتسنَّى للجميع استيعابها والعمل بها وتنفيذها بطريقة دقيقة وبدون أخطاء، وأن يتعامل مع المشاكل بذكاء وحكمة من أجل الوصول إلى الحلول المناسبة والجذرية لأية عقبات أو صعوبات تواجهه، بأقصر الطرق وأقل التكاليف.

حوار مع الشاب

الحوار الأول:
أساليب الشيطان في إغواء الشباب

ذهب ولدي أحمد الذي يدرس في الصف العاشر في رحلة مدرسية إلى معرض الكتاب الذي يقام في العاصمة، وعاد إلى البيت مُحمَّلًا ببعض الكتب، وفي الوقت نفسه جاء وعليه الكآبة والحزن، فما إن رأيته حتى بادرته قائلًا:

ـ الحمد لله على سلامتك يا ولدي. ما لي أراك ممتقع اللون؟!!

ردَّ بصوتٍ ينمُّ عن أسى:

ـ اشتريتُ كتابًا بعنوان «الشباب والدِّين»، وظننتُ أنه سيُخبرني كيف أستطيع التمسُّك بديني، فإذا به يصف الدين والذات الإلهية بصفاتٍ قبيحة.

ابتسمتُ وقلت:

ـ هوِّن عليك يا أحمد، فمثل هذه المؤلفات أصبحت رائجة في بلداننا.

فقال مندهشًا:

ـ ولكنهم يعلمون أننا مسلمون، فلماذا يحاولون الإساءة إلى ديننا؟

ـ عليك أن تدرك يا ولدي أنه عندما خلق اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ آدم ـ عليه السلام ـ أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا جميعًا، وأمر إبليس كذلك بالسجود له ولكنه أبى، فأصبح من ذلك الوقت عدوًّا لآدم وذريته.

وإبليس، يا ولدي، له جنود وأعوان يحاولون إبعاد الناس عن الإيمان باللَّه ـ سبحانه

وتعالى- فيُوَسْوِسُون لعقولهم بأمور مثل التي قرأتها في الكتاب، وكل مَن يُصدِّق ما يمليه عليه الشيطان يُعتبَر من أتباعه.

- ولكن يظهر من اسم مؤلف الكتاب أنه مسلم!!

المعركة بين الحق والباطل

قلتُ له:

- أجل يا بني، إن المؤلف وُلِد مسلمًا، وقد يكون مصليًّا وصائمًا، ولكن الشيطان يحاول إبعاد الناس عن دينهم، ولا يقوم بذلك دفعة واحدة، ولكنه يحاول معهم بالتدرُّج؛ فهو يحاول أولًا أن يجعلهم يكفرون باللَّه، فإذا لم ينجح حاول أن يجعلهم يُشرِكون مع اللَّه أشخاصًا أو أمورًا أخرى، فإذا لم ينجح جعلهم يستهينون بمعاصي اللَّه. يا ولدي، هذه التي تسمى معركة الإيمان والكفر، أو معركة الحق والباطل؛ فالشيطان لم يكتفِ بالامتناع عن السجود لأبينا آدم عليه السلام، وإنما أخذ على نفسه مهمة إغواء ذريته كلهم، إلا من عصمه اللَّه.

فقال بصوتٍ يبدو عليه الحزن:

- أنا خائف يا أبي من أن يُغويَني الشيطان فيُزيغني عن طريق الحق.

- أعوذ باللَّه يا ولدي.. لا تقل هذا، فأنت مؤمن، وستبقى بإذن اللَّه مؤمنًا.

- ولكن ليس عندي من العلم ما أستطيع به التمييز بين الحق والباطل، والتعرُّف على أساليب الشيطان، ولذلك فقد يستطيع إغوائي بسهولة.

- لا تخف يا ولدي، إن مهمة الأبوين تبصير أولادهم بهذه الأمور، وتربيتهم على طاعة اللَّه، وتنشئتهم على هداية القرآن ومحبة اللَّه ورسوله، وإذا فعلا ذلك فإن أولادهم سينشؤون- بإذن اللَّه- مُحصَّنين من وساوس الشيطان وأتباعه ومكائدهم.

- ولكن هناك من الأطفال مَن لا يهتم بهم آباؤهم، ولذلك يمكن للشيطان أن يُغويَهم

حتى يصبحوا كفارًا.

ـ هذا صحيح يا ولدي؛ فالمعركة بين أتباع الرحمن وأعوان الشيطان قائمة منذ عهد أبينا آدم ـ عليه السلام ـ، وهي لا تزال في هذا العصر حامية الوطيس.

فردَّ عليَّ وهو يكاد أن يجهش بالبكاء:

ـ ولكنك بهذا تخوفني أكثر!! إني بهذا قد لا أستطيع الخروج من البيت!!

ـ لا يا ولدي، إن اللَّه ما خلقنا لنعيش متقوقعين في بيوتنا، ولو فعلنا ذلك لكثر أعوان الشيطان وعمَّ الفساد في الأرض، ولكن علينا مواجهة هؤلاء، وعندما نرى أو نسمع شيئًا مخالفًا لتعاليم ديننا، فواجبنا الوقوف في وجه مَن يُردِّد ذلك الكلام، أو يقوم بأفعال مخالفة للدين، وعلينا تبيان الحق لهم بكل ما آتانا اللَّه من علمٍ وحكمة.

ـ ولكني لا أعرف كثيرًا عن ديني.

ـ هذه مشكلة كثيرٍ من المسلمين؛ وكما تعلم فأنا وأمك نحاول تعليمكم أمور دينكم، وتهيئة الفرص لذلك فتنشؤوا ـ بإذن اللَّه ـ أقوياء الإيمان، ولكن الخطر الكبير في الشباب والفتيات الذين لا يجدون في بيوتهم مَن يستطيع تنشئتهم على طاعة اللَّه ورسوله، ولا يجدون في مجتمعهم مَن يستطيع الأخذ بأيديهم إلى تقوى اللَّه، وهؤلاء في خطر لأنهم عرضة لتقبُّل الأفكار الهدامة التي يُمليها عليهم أعوان الشيطان، أو تلك التي تبثُّها وسائل الإعلام من تلفاز وإذاعات وإنترنت وجرائد ومجلات.

وسائل الإعلام ودورها في إفساد الشباب والفتيات

فردَّ ولدي بسرعة:

ـ لقد شاهدتُ في التلفاز كثيرًا من الأمور التي أظنها تخالف تعاليم الإسلام؛ فالنساء مثلًا يَظْهَرْن متبرجات، وهذا أمر لا يرضاه اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ ورسوله.

ـ لقد أصبحت وسائل الإعلام في عصرنا من الأدوات التي يستخدمها أعوان

الشيطان لإغواء الناس وإضلالهم وصرفهم عن دينهم.

ـ ولكن لماذا يفعلون هذا؟!! ألا يخافون اللَّه؟!! ألا يعلمون أنهم إن فعلوا ذلك فسيذهبون إلى النار؟!!

ـ يا ولدي، إن الشيطان يُصوِّر لهم أنهم على الحق وأنهم متحضِّرون، وأن الذين يتمسَّكون بدين اللَّه على الباطل وأنهم متخلِّفون، وكذلك فهو يوهِمُهم بأنهم يعيشون حياة الرفاهية والتقدُّم، وأن الذين يتمسَّكون بدين اللَّه قد حَرَموا أنفسهم من ملذات هذه الحياة.

هذه هي إغواءات الشيطان يا ولدي، ولذلك تجد أن الناس ينساقون وراءها لاعتقادهم أن فيها ما يلبي رغباتهم وشهواتهم وملذاتهم، وفي الوقت نفسه لا يريدون أن يُوصَفوا بالمتخلِّفين، كما يوهمهم الشيطان بذلك.

ـ إني أشعر بأني إن لم أفعل شيئًا لمحاربتهم، فقد يتغلبون عليَّ، وربما يستطيعون التأثير عليَّ.

ـ هذا كلام صحيح يا ولدي، ولذلك فعلينا أن لا نقف مكتوفي الأيدي، وإنما علينا توضيح هذه الأمور للناس.

ـ ولكن كيف لي ذلك وأنت تعلم أني لو قُلتُ لأحد زملائي أو لأحد المعلمين هذا الكلام فقد لا يلقى كلامي قبولًا عندهم؟

ما تقوله يا ولدي صحيح؛ فالمعلم ينظر إلى نفسه أنه أكبر سِنًّا وعلمًا منك، ولذلك فهو لن يتقبَّل كلامًا ممَّن هم في مثل سِنِّك، وإنما يحتاج أن يكلمه مَن هو أكبر منه سِنًّا، وأكثر منه علمًا وفهمًا.

ـ ولماذا لا تكلمه أنت يا أبي؟!!

الدعوة إلى اللَّه واجبة على كل مسلم

قلتُ له:

ـ يا ولدي، هناك الملايين من الناس الذين هم بحاجة إلى أن تُوضَّح لهم حقائق الأمور، وليس بمقدوري وحدي الذهاب إلى هذه الملايين شخصًا شخصًا وأكلمهم على انفراد، ولكن على المسلمين المخلصين أن يتعاونوا فيما بينهم؛ فيذهب كل واحد منهم إلى شخص من الذين عندهم انحراف أو جهل بالدين، ويحاول أن يغرس فيه أسس الإيمان ومبادئ الإسلام، ويقنعه بالفكر الإسلامي الصحيح، ويستمر في مصاحبته إلى أن يتمسَّك بدين اللَّه، ويحمل الفكر الإسلامي الصحيح.

والآن، يُصبح لدينا شخصان مؤمنان باللَّه، متمسِّكان بتعاليم الإسلام، وكل واحدٍ منهم عنده من العلم والفهم ما يستطيع به التأثير على غيره من الناس، ولو قام كل واحد من هذين الاثنين بتعليم الإسلام لشخص آخر جديد إلى أن يستقيم على دين اللَّه، لأصبح عندنا أربعة أشخاص، وهكذا يبدأ الخير في الانتشار والشر في الانحسار.

ولكن علينا أن لا نكتفي بمخاطبة الناس مشافهة فقط، وإنما أن نعمل كل ما في وسعنا لتصحيح المفاهيم الخاطئة، والأفكار الضالة والمنحرفة، وذلك من خلال إلقاء المحاضرات، وكتابة المقالات، وتأليف الكتب، وعلينا الكتابة في الصحف والمجلات ومواقع الإنترنت، وإذا لم نقُم بكل هذا وأكثر فإننا سنصبح في خطر عظيم.

ـ وهل سيتركني أعوان الشيطان عندما أكبر، أم سيستمرون في ملاحقتي وإغوائي؟!!

ـ يا ولدي، إن الشيطان لا ييأس من إغواء ابن آدم مهما بلغ من العلم، ومهما تقدَّمت به السِّن، وهو يحاول إغواءه حتى عندما يكون على فراش الموت، وكلما تقدَّمت بك السِّن فإن الشيطان وأعوانه سيواجهونك بوسائل أخرى وإغراءات مختلفة، وسيحاولون صرفك عن دينك وعن الدفاع عنه بوسائل ظاهرها ليس فيه ما يخالف أمر الدين، ولكنها في حقيقتها من وسائل الشيطان التي يستدرج بها الإنسان إلى أن يوقعه في الفخ.

ـ وما هي الوسائل التي يستخدمها الشيطان في إغواء الشباب يا أبي؟

إضاعة الصلوات

قلتُ له:

ـ يا ولدي، إنك تعرف أن زملاءك عندما يعودون من المدرسة يتناولون وجبة الغداء، ثم ينامون، وبعد أن يستيقظوا يُسرعون إلى الملعب.

ـ نعم، هذا صحيح، فكلنا نذهب للعب الكرة.

ـ ولكن هل كل مَن يحضر معكم إلى الملعب يكون قد أدى صلاة العصر؟!!

ـ لا أظنُّ ذلك.

ـ وهل سألتهم لماذا؟!!

ابتسم وقال:

ـ لو سألتهم فلربما سخروا مني، ولكن أظنهم يستيقظون متأخرين، فيُسرعون إلى الملعب.

ـ هذا هو أحد أساليب الشيطان؛ فإنك عندما تأتي من المدرسة يحاول أولًا إلهاءك إلى أن تتأخر في نومك، وعندما يحضر وقت الاستيقاظ لصلاة العصر فستكون متعبًا، وعندها سيوسوس لك بأنه لا يزال هناك وقت طويل للصلاة، وأنك متعب، وأنه لا بأس من الصلاة في البيت، وعندما تستيقظ وتحاول تأديتها في البيت، فإنه لن يتركك، وإنما سيوهمك بأن زملاءك قد وصلوا إلى الملعب، وأنك ستتأخر عنهم، ولذلك فإنك ستصليها على عَجَلٍ، ولن يتركك في صلاتك، وإنما سيقوم بالتشويش عليك أثناء تأديتك لها، حتى تنتهي منها وأنت لا تعي ما صليت.

ـ يا اللَّه!! إني كثيرًا ما أشعر بذلك.

ـ والشيطان لا يكتفي بتضييع الصلوات عليك، وإنما يحاول أن يوقِعك في الكثير من المعاصي الأخرى!!

ـ مثل ماذا ؟!!

ـ من الأساليب الأخرى التي يستخدمها الشيطان كثيرًا مع الشباب أن يوهمهم أن ذهابهم إلى الملعب مهمٌّ جدًّا لتقوية البدن وصحته، وأن العقل السليم في الجسم السليم، وهذا صحيح، ولكنه يهدف من وراء ذلك إلى إبقائهم متعلِّقين بكرة القدم والذهاب إلى الملعب، وعندما يصلون إلى الملعب يكون قد جهز لهم هناك أمورًا أخرى؛ فمثلًا ستجد أن كثيرًا ممَّن يذهبون إلى الملعب وهم يرتدون ملابس ضيقة وقصيرة، وهم بذلك يكشفون عوراتهم للآخرين، ولو حاولتَ نصحهم فقد يسخرون منك، ويتَّهمونك بالتخلُّف.

ـ إني كثيرًا ما أسمع ذلك من زملائي؛ فهم يتساهلون في السبِّ دونما داعٍ ولأتفه الأسباب.

ـ إن السبَّ والشتم والتلفُّظ بالعبارات البذيئة من الأساليب الأخرى التي يُلقِّنها الشيطان أعوانه، وهو بهذا يحاول تأجيج العداوة والبغضاء بين اللاعبين، وهذا كله مخالف لديننا.

وعندما تكونون في الملعب ويحين وقت الغروب سيحاول الشيطان إيهامكم بأنه لا يزال بعيدًا، فتتأخرون في اللعب إلى وقت الأذان، وعندها تعودون إلى البيت وقد حان وقت إقامة الصلاة، فإنه سيُوهمكم أنه لا يليق بكم الذهاب إلى المسجد وأجسامكم كلها عرق وروائح وغبار، والصلاة تحتاج أن يؤديها الإنسان وهو نظيف الثياب طاهر الجسد.

كل تلك الإيحاءات الشيطانية تجعل الإنسان يبقى في البيت وهو يستحم ويتنظف، وتفوته صلاة الجماعة في المسجد، بل ربما يخرج وقت الصلاة والشيطان لا يزال يوهمه أن عليه أن يتطيَّب ويتزيَّن للصلاة، ويوهمه بضرورة كيِّ ملابسه قبل ارتدائها ثم تبخيرها

وتعطيرها، وهكذا إلى أن يوقعه في الإثم والمعصية.

تضييع أوقات المذاكرة والإلهاء بالتلفاز

واصلتُ حديثي:

ـ تلك نماذج لوساوس الشيطان، ولو استطعتَ التغلُّب عليه في مكان فإنه سيحاول أن يخدعك في مكان آخر؛ فمثلًا لو استطعتَ أن تَفلِت من قبضته في البيت، ووصلتَ إلى المسجد قبل إقامة الصلاة، فإنه سيحاول التشويش عليك أثناء الصلاة، ويجعلك تتعجل فيها بإيهامك أن عليك مذاكرة الدروس وحل الواجبات، ولا تظنه يحبك ويحرص على دراستك، وإنما يريد فقط أن يُفوِّت عليك الخشوع في الصلاة بحيث لا تعي منها شيئًا.

بعد أن تنتهي من الصلاة، وتحاول مذاكرة دروسك فإنه لن يتركك لأنه يعلم أن في ذلك منفعة لك، وهو لا يريد لك الخير في أيِّ شيء، ولذلك فإنه سيحاول صرفك عن المذاكرة، وإيهامك أنه لا يزال هناك متَّسع من الوقت لها، وسيحاول إقناعك بتركها والذهاب لمشاهدة التلفاز، وتبقى على ذلك إلى أن يحين وقت النوم!!

ـ نعم، هذا صحيح أيضًا، فأنا عندما أكون في الصلاة أبقى أفكر في دروسي والواجبات التي عليَّ، وأحاول أن أعجِّل في أداء صلاتي لأجل الذهاب إلى البيت، ولكني ما إن أفرغ من الصلاة حتى أنسى كل ذلك، وأذهب إلى التلفاز.

ـ ربما تلاحظ أن الشيطان لا يتركك لحظة واحدة، وإنما يحاول أن يُفوِّت عليك كل ما فيه خير لك؛ فهو يحاول أولًا صرفك عن دينك بإيهامك بالاهتمام بدراستك، وعندما تطاوعه وتحاول مذاكرة دروسك فإنه سيُشغلك بشيءٍ آخر، وهكذا إلى أن يصل بك إلى حرمان نفسك من أمور فيها خيرٌ كثير، ثم لا يكتفي بذلك وإنما سيحاول ـ والعياذ باللَّه ـ إيقاعك فيما هو أعظم خطرًا على دنياك وآخرتك.

قال لي ولدي، والحيرة بادية على وجهه:

ـ وإذا كانت هذه أساليب الشيطان، فماذا عن أساليب أعوانه من الإنس؟

التدخين وتعاطي المخدرات

قلتُ له:

ـ يا ولدي، إن الشيطان لا يكتفي بالوسوسة في صدور الناس، وإنما يحاول تربية أتباعه على نفس الأساليب التي يتَّبعها هو، فتجد كثيرًا من الناس يستخدمون أساليب مشابهة لتلك الأساليب. دعني أسألك شيئًا.

فقال لي بأدب:

ـ تفضل.

ـ جاوبني بصراحة، هل سبق لك تدخين السجائر؟!!

سكت برهة، ثم ردَّ بصوتٍ خافت:

ـ نعم.

فأردتُ أن أسأله سؤالًا ولكنه قاطعني بسرعة:

ـ ولكني لم أفعل ذلك إلا مرة واحدة!!

ـ وكيف فعلتَ ذلك؟!!

ـ لقد جاءني أحد زملائي في المدرسة يومًا، وقال: تعال معي، فإني أريد أن أريك شيئًا، وكنا في فترة الاستراحة، فذهب بي إلى مكان منعزل عن بقية الأولاد، ثم أخرج من جيبه حبة سيجارة، وقال: هل تعرف هذه؟!!

عندما شاهدتُ السيجارة خفتُ، وصرختُ في وجهه: هذه حرام!! هذه سيجارة!! فقال: إنَّ رائحتها طيبة، فقلتُ: إن هذا لا يجوز، فهي حرام، فقال: إنها حرام فقط عندما

نُشعِل فيها النار، وأنا لم أفعل ذلك لأني أعرف أنه حرام، وإنما أضعها في فمي وأمصُّها هكذا، فتأتيني برائحة طيبة منعشة!!

يبدو أن ذلك الولد كان ـ كما قلتَ يا أبي ـ من أعوان الشيطان؛ فعندما قلتُ له: هذا لا يجوز، ردَّ عليَّ ساخرًا: بل يجوز، والسجائر ليست حرامًا كما تقول، ثم قال: لماذا لا تُجرِّب رشفها؟!! فقلتُ له: لا، إني لن أفعل ذلك أبدًا!! فقال: بل ستُجرِّب!! وبقي يحاول معي إلى أن وضعتُ السيجارة في فمي، ثم رشفتُ الهواء فدخلتْ رائحة، وتذكرتُ تحذيرك لي عن السجائر فرميتها، وقلتُ له: أنا أظنها حرامًا، حتى ولو لم تُشعِل فيها النار!!

حاول معي أن أضعها مرة أخرى في فمي، وهو يوهمني بأنها ليست حرامًا، فقلتُ له: لن أفعل، وإذا لم تَكُفَّ عن هذا فسأخبر مدير المدرسة، وهنا خاف وقال: لا، لا تفعل!! ثم أخذ السيجارة ووضعها في جيبه وولى هاربًا، وهذه هي المرة الوحيدة التي فعلتُها، واستغفرتُ اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ بعد ذلك.

ـ وهل تلاحظ الآن ما قلتَه لك؟ إن ذلك الطالب كان شابًّا صغيرًا مثلك، ولكن ربما أغواه شابٌّ آخر، فالشيطان يحاول إغواء الناس بهذه الأساليب، فذلك الطالب لم يطلب منك إشعال السيجارة وإنما طلب منك شمَّ رائحتها فقط، وهذه هي المرحلة الأولى، وبعد أن ينجح في إقناع الطلاب برشف السجائر دون إشعالها، فإنه سيحاول إغواءهم برشفها وهي مشتعلة، ثم بعد ذلك يتطور الأمر إلى استخدام المخدرات والعياذ باللَّه، ولذلك فعليك الحذر من كل مَن تتعامل معهم، سواءٌ أكانوا صغارًا أم كبارًا.

الاختلاط والتبرُّج

قال ولدي وقد أحسَّ بالارتياح:

ـ لديَّ سؤال لك يا أبي.

ـ تفضل.

ـ لقد أخبرتني بأن الاختلاط بالأجنبيات حرام، أليس كذلك؟!!

ـ نعم.

ـ أوليس الاختلاط حرامًا في أيِّ مكان؟!!

ـ نعم.

ـ حتى في المدرسة؟!!

ـ ماذا تقصد؟!!

ـ إنك تعلم أن المدرسة التي كنتُ أذهب إليها في صغري مختلطة، فيها البنات والبنون، ومن يُدرِّسنا هم من المعلمين والمعلمات، فهل يجوز لنا الاختلاط بالفتيات؟!! وهل يجوز للمعلمات الاختلاط بالمعلمين؟!!

أحسستُ بأنه قد أثار قضيةً في غاية الأهمية فقلتُ له:

ـ يا ولدي، إن الاختلاط ـ كما علَّمناك أنا وأمك وكما علَّمنا دينُنا ـ حرام في أيِّ مكان، سواءً أكان في المدرسة أم في الشارع أم في المتجر أم في البيت، ولكن ما تشاهده في المدرسة هو من الضلال والانحراف الذي ألَـمَّ بمجتمعاتنا فأبعدها عن دينها.

نعم يا ولدي، لا يجوز للذكور الاختلاط بالإناث، حتى وإن كانوا صغار السِّنِّ، لأن ذلك سيُعوِّدهم على الاختلاط عندما يكبرون، ولكن أعوان الشيطان قد أصبح لهم في زماننا هذا صولات وجولات، فصاروا يُسخِّرون كل ما في وسعهم لإغواء الناس وإفسادهم وإخراجهم عن دينهم.

ـ ولكن، لماذا ترضى المعلمات بالتدريس في المدارس التي بها رجال؟!!

ـ لو كانت المعلمات متمسِّكات بالدين فإنه سيعصمهنَّ من غوايات الشيطان، ولكن الشيطان ـ كما أخبرتك ـ يحاول أولًا إبعاد الإنسان عن دينه حتى يستطيع فيما بعد

إغواءه بأساليبه الضالة المنحرفة، وليست مشكلة الاختلاط محصورة في المدرسة فقط، فقد انتشر بلاء الاختلاط في كثير من الأماكن الأخرى.

- يبدو أن هناك الكثير من الأمور التي عليَّ معرفتها.

كيفية التصدِّي للشيطان وأعوانه

قلتُ له:

- هذا صحيح يا بني، وواجب الآباء والأمهات تربية أطفالهم على طاعة اللَّه، وعلى منهج كتاب اللَّه وسنة نبيه محمد صلى اللَّه عليه وسلم، وأن لا يكتفوا بما في المناهج التعليمية من العلم والمعرفة، فإنها إن سَلِمت من احتوائها على الأفكار الضالة المنحرفة، فقد لا تستطيع تنشئة أطفالٍ قادرين على مواجهة الشيطان وأعوانه.

- إني أريد أن أكون على فهم ودراية بهذه الأساليب لأدعو غيري إلى التمسك بدين اللَّه.

- بإذن اللَّه ستستطيع التأثير على الشباب والرجال بالأساليب التي أوصانا بها ديننا الحنيف، والتي تستطيع مواجهة أساليب الشيطان وأعوانه، ولكن عليك التحلِّي بالصبر، فإنك لن تستطيع تعلُّم كل شيء عن دينك دفعة واحدة، وإنما يجب أن تكون لديك الرغبة والاهتمام بتعلم أمور دينك والتمسك بتعاليمه لكي تستطيع أن تحظى بعناية اللَّه- سبحانه وتعالى- ورعايته.

- أسأل اللَّه أن يُفقهني في ديني، ويعينني على التمسُّك به ودعوة الناس إليه.

- أسأل اللَّه ذلك لنا جميعًا، وعليك يا ولدي أن تُكثِر من ذكر اللَّه وتلاوة القرآن فإنهما خير سلاح لمواجهة الشيطان وأعوانه.

- بإذن اللَّه.

الحوار الثاني: مشاكل الشباب

تعوَّدتُ منذ عدة سنوات تخصيص مصروفٍ شهريٍّ لكل واحد من أولادي، وتسليمه لهم في نهاية كل شهر، بحيث ينفقونه على لوازمهم الخاصة والمدرسية، ونقوم أنا وأمهم بتوجيههم في كيفية صرف تلك النقود، وهدفنا من كل ذلك تعويدهم على تحمُّل المسؤولية في الإنفاق، والإحساس بنعمة المال وأهميته، والقدرة على التخطيط، بالإضافة إلى توجيههم نحو الاقتصاد والادخار.

قلة الاحترام للكبار وخاصة الأبوين

بينما كنتُ جالسًا أمام الحاسوب أراجع بعض الملفات طرق ابني محمد الذي يدرس في الصف الحادي عشر الباب، ودخل فسلَّم عليَّ، ثم قال:

ـ أريدك أن تعطيني خمسة ريالات.

هنا أدركتُ أنه قد أنفق مصروفه الشهري، وأنه بحاجة إلى مبلغٍ إضافي لأمرٍ مهم، وأحببتُ استقصاء السبب وراء طلبه هذا، فقلتُ له:

ـ ولأيِّ شيءٍ تريدها؟

ـ أريد أن أذهب في رحلة.

ـ ومع مَن ستذهب؟

يبدو أنه لم يعجبه التدخُّل في خصوصياته ـ كما يسميها ـ فردَّ قائلًا:

ـ وما دخل النقود التي ستعطيني إياها بمَن سأذهب معهم؟!!

ـ لا بُدَّ أن أعرف مع مَن تريد أن تذهب.

هنا، انفجر وردَّ بغضب:

ـ وهل لا بُدَّ أن تتدخَّل في كل أمور حياتي؟!!

ـ يا بُنيَّ: لا يليق أن تقول مثل هذا الكلام لأبيك، ثم إنه من واجبي معرفة ماذا يريد ابني أن يفعل، ومع مَن سيذهب.

ـ إني أعرف مَن أخالط، ولا أريد أحدًا أن يخبرني مَن أصاحب ومَن لا أصاحب!!

ـ يا بُنيَّ: عندما كنتَ طفلًا رضيعًا كان من واجبنا أنا وأمك المحافظة عليك من أن تصاب بأذى، وفي صغرك كنا نراقبك لئلَّا يصيبك مكروه، وكنا نقف بجانبك لنختار لك الرفقاء الطيبين، وواجبنا لم ينتهِ هناك، فما زال من واجبنا المحافظة عليك، حتى وإن كنتَ في هذه السِّن، فقد تكون عرضة للإيذاء الجسدي والنفسي والفكري والأخلاقي.

ازداد شطَطًا من هذا الكلام، فردَّ عليَّ بصَلَف:

ـ لقد أصبحتُ كبيرًا، وأريد أن أتصرف بنفسي، فأنا لم أعد طفلًا صغيرًا حتى تُبقي مراقبتك لي، وتكيل لي ـ كما تعودتُ دائمًا ـ النصائح والاقتراحات والتوجيهات!!

ـ أنا لا أريد التحكُّم في حياتك، أو إملاء نصائحي وتوجيهاتي عليك إلا بما يُعينك على المضيِّ في مراحل هذه الحياة بأمان.

ـ بالنسبة لي، يكفيني أنَّ مَن سأذهب معهم أصدقائي.

الاهتمام بإشباع رغبات النفس

أحسستُ أنه لا يزال يتصرَّف بعقلية الطفل الصغير الذي همُّه فقط إشباع شهوته، والحصول على رغبته، ولا ينظر إلى عواقب الأمور، فقلتُ له:

ـ ولكن هذا لا يكفيني، فأنا أريد أن أعرف عنهم بعض الأمور.

فردَّ عليَّ بتهكُّم:

ـ إذا كنتَ تريد أن آتيك بصورهم فسأفعل!!

ـ يا بُنيَّ، دع عنك هذا الأسلوب، فإن ما أقوله لك هو مراعاة لمصلحتك وشفقة عليك. دعني أسألك أولًا: إلى أين ستكون هذه الرحلة؟!!

ـ لا أدري!! ثم إنه لا يهمني ذلك!! أنا أريد فقط أن أذهب وأبتعد عن البيت، وأكون مع أصحابي!!

ـ يا بُنيَّ، اعقل!! يا بُنيَّ: إنه لا يصلح أن تذهب مع أناس لا تعرف عنهم شيئًا.

فصرخ في وجهي:

ـ ومَن قال لك إني لا أعرفهم؟!! إنهم زملائي وأعرف عنهم الكثير!!

أحسستُ من كلامه أن كل ما يهمُّه الخروج من البيت بِغَضِّ النظر مع مَن، وأن كل ما يريده الآن هو الحصول على النقود. لذلك، حاولتُ أن أستخدم معه المنطق، فلعلَّ ذلك ينفعه لإدراك ما هو واقعٌ فيه، فقلتُ له:

ـ إذن، لماذا لم يخبروك إلى أين ستذهبون؟!!

ـ أنا لم أسألهم، ولو سألتهم فلن يمانعوا من الإجابة!!

الاستخفاف بأمور الدين

قلتُ له:

ـ وهل هم من الناس الذين نراهم في المسجد؟!!

وهنا ثارت ثائرته من جديد، فقال:

- وهل تريدني أن لا أصاحب إلا «المطاوعة»[(١)]؟!!

- يا بُنيَّ، إن أسلوب السخرية والتهكُّم بالناس، والتهكُّم بأمور الدين أمرٌ لا يرضاه اللَّه ورسوله، وإذا كان مَن ستذهب معهم في هذه الرحلة لا يأتون إلى المسجد، فمعنى هذا أنهم قد يكونون ممَّن لا يُصلي!!

- وما دخلي أنا؟!! أنا لا أصاحبهم لأجل صلاحهم أو فسادهم!!

تعجَّبتُ من هذا المنطق، فقلتُ له:

- إذن، ولأجل أيِّ شيء تصاحبهم؟!!

- أريد فقط أن أفرِّج عن نفسي، وأذهب لأرى مناطق لم أرها من قبل!!

- ولكن، إذا ذهبتَ مع أناسٍ لا يُؤتمنون فأخاف أن يجروك لأمور لا يرضاها اللَّه ورسوله.

فردَّ بصراخ:

- وهل تظن بأنك الوحيد الذي يعرف الخير، وأن بقية الناس مجرمون؟!!

التهوُّر واللامبالاة

قلتُ له:

- يا بُنيَّ، أنا لم أتهم أحدًا، ولكن أقول لك بأن عليك أن تتعقَّل وتعرف مَن تصاحب، وإذا كنتَ لا تعرف عنهم ما إذا كانوا يُصلُّون أو لا يُصلُّون، فالأَوْلى ألا تصاحبهم؛ لأنهم قد يفعلون في هذه الرحلة أمورًا لا يرضاها اللَّه ورسوله، وقد لا يخبرونك بها!! دعني أطرح عليك سؤالًا آخر: سألتُك أولًا: إلى أين ستذهبون، فقلتَ لا تعرف، والآن أسألك: وما هو برنامجكم في هذه الرحلة؟!!

(١) المطوَّع: كلمة عامية تعني الملتزم بالدين، وجمعها مطاوعة.

ردَّ عليَّ بتلعثم:

ـ ماذا تقصد؟!! وهل لا بُدَّ لكل رحلة من برنامج؟!!

ـ إذا كنتَ ستخرج مع آخرين، وتقضي معهم ساعات بل ربما اليوم بطوله...

قاطعني قائلًا:

ـ إنه ليس يومًا واحدًا، وإنما سنقضي يومَيْ الإجازة في هذه الرحلة!!

ـ إذن، ستقضي يومين مع أناسٍ ربما لا يُصلُّون، وقد يفعلون في هذه الرحلة أمورًا لا أريدك أن تفعلها!!

فردَّ بغضب:

ـ أظن أن عليَّ أن أقبع في سريري، لكي تشاهدني أمامك طول الوقت!!

ـ أنا لا أريدك أن تقضي كل وقتك في البيت، بل أريدك أن تخرج وترى بديع صنع اللَّه في هذا الكون، ولكن أريدك أن تتخيَّر مَن تصاحب، فلو حدث لكم أمر...

فقاطعني مرة أخرى: إنك هكذا دومًا متشائم!! وماذا سيحدث لنا؟!!

ـ الأمور علمها عند اللَّه سبحانه وتعالى، ولكن ألا يُمكن أن يقوم أصحابُك بأمرٍ قد يؤدي بكم إلى التهلكة في هذه الحياة، وربما في الآخرة والعياذ باللَّه!!

فقال متذمِّرًا:

ـ لا حول ولا قوة إلا باللَّه!!

ـ حقًّا إنه لا حول ولا قوة إلا باللَّه العليِّ العظيم، ولكن ألم تخبرني بأنه منذ أقل من شهر وقع حادث سير توفي فيه أحد أصدقائك؟!!

ارتبك من هذا السؤال، وكأنه لم يفهم قصدي، فقال:

ـ بلى، ولكن ما علاقة هذا بذاك؟!!

ـ ومتى توفي ذلك الشخص؟!!

ـ في الليل!!

ـ ومن أين كان آتِيًا؟!!

ـ أخبرتك بأنه كان ذاهبًا مع بعض زملائه، وكان مسرعًا في الطريق، فتدهورت السيارة فمات!!

ثم عقَّب مباشرة على كلامه، وكأنه أدرك ما أقصده، فقال:

ـ ولكن أصحابي هؤلاء ليسوا مثله!! إنهم ليسوا متهوِّرين!!

ـ وكيف عرفتَ أنهم غير متهوِّرين؟!!

ـ خرجتُ معهم عدة مرات، فلم أشاهد منهم أيَّ تهوُّر!!

ـ ولكنكم عندما تذهبون بعيدًا، فإن الشيطان قد يُسوِّل لكم السرعة الجنونية، وتكون عاقبتها وخيمة للجميع، وأنا ـ كما تعلم ـ أخاف عليك كثيرًا، ولا أريد أن يصيبك أيُّ أذى.

ـ هذا يعني أني لن أخرج مع أحد، حتى وإن كان للنزهة، لأنك لا تثق بأيِّ شخص آخر.

ـ أنا أثق بمَن يؤتمنون على المصاحبة.

ـ وماذا تقصد؟

ـ إذا كان هؤلاء لا يأتون إلى المسجد، فهذا يعني أنهم مقصِّرون في حق اللَّه، ولذلك فقد يرتكبون أعمالًا أخرى لا تليق بالمسلم.

التدخين وتعاطي المخدرات

لم يردَّ عليَّ بشيء، فتابعتُ حديثي:

ـ وهل أحدٌ من زملائك الذين تريد الخروج معهم يُدخِّن؟!!

فردَّ باستهزاء:

ـ التدخين ليس له علاقة بالخوف، وإني لن أحترق إن قام أحدهم بالتدخين!!

ـ يا ولدي، أنا لم أقصد أن يحرق ثيابك أو جسدك، ولكنه إن كان من المدخِّنين، فقد يجرُّك أنت إلى التدخين!! كذلك، إن كان يُدخِّن فقد يكون يفعل أيضًا أمورًا أخرى كتعاطي المخدرات وشرب الخمور!!

فردَّ بغضب:

ـ وماذا عليَّ مما يفعلون؟!! إني عندما أذهب معهم فلا يهمني ما يقومون به، والمهم أني لا أفعل مثلهم!!

ـ يا بُنيَّ، قد تكون اليوم قادرًا على ضبط نفسك، ولكن أمثال هؤلاء عندهم من أساليب الإغواء ما يستطيعون التأثير به عليك، وإن خرجتَ معهم فلا يُستبعَد أن يوقعوك في مأزق، ويُخيِّروك بين فعل ما يفعلونه أو إيقاعك في ورطة أو مشكلة!!

أحسستُ أن كلامي قد بدأ يدخل إلى قلبه، فقال:

ـ لقد حاولوا معي ذلك من قبل، ولكني لم أطاوعهم.

ـ إذا كُنتَ قد صمدتَ في المرة الأولى، فقد لا تستطيع الصمود في المرات القادمة، لأنهم قد يأتونك بأساليب جديدة لا تستطيع أن تتبيَّن فيها مكرهم.

ـ وماذا أفعل؟!! إني إن رددتُ عليهم بعدم رغبتي في الذهاب معهم فإنهم سيغضبون عليَّ.

- هذا نوع من الإرهاب النفسي الذي يمارسونه معك؛ فهم يوهمونك بأنهم سيغضبون عليك، وأنهم سيقفون في وجهك، وسيقومون بأمور تخشى منها لو لم تنفذ ما يطلبونه منك، ولكن عليك أن تدرك أن اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ قد أعطى الإنسان عقلًا يستطيع به ميزان الأمور، وقد تجني لذة عاجلة من فعل شيءٍ ما، ولكن ربما تتجرع بسببها غُصصًا كثيرة، وتعض أصابع الندم.

- ولكن تعلم أن الرحلات البعيدة تكلف كثيرًا، وقد وعدوني بتحمُّل كل مصاريف الرحلة، ولو ذهبتُ مع غيرهم فسأتحمل قسطًا كبيرًا من تلك المصاريف.

- يا بُنيَّ: ألم أقل لك بأنهم يستخدمون معك أساليب الإرهاب والإغراء؟!! إنهم أغروك بتحمُّل جميع النفقات، وأنت تعلم أنهم شباب في مثل سنك، فمن أين سيأتون بتلك النقود؟!!

إنهم ما أرادوا من وراء ذلك إلا إغواءك، وأن يتَّخذوا هذه الرحلة وسيلة لجعلك تنحرف عن دين اللَّه، والمصاريف التي يدَّعون بأنهم سيتحمَّلونها قد لا تكون من جيوبهم، ولكن قد يكون هناك آخرون ممَّن هم أكبر منهم سِنًّا، وممَّن يتقاضون رواتب، ويقومون بتمويلهم لغرض غوايتهم ونشرهم للشر، كما نقوم نحن بمساعدة أهل الخير من أجل أن ينتشر الخير ويعمَّ الصلاح.

فيما يبدو أنه قد يئس من الحصول على مراده، ولذلك حاول إنهاء الحديث، فقال بامتعاض:

- على كل حال، سأردُّ عليهم بأني لن أخرج معهم، وسأبقى في البيت لتراني طول الوقت أمام عينيك!!

- يا ولدي، أخبرتك بأني لا أمانع من خروجك من البيت، سواءً للنزهة أو لأيِّ غرضٍ آخر ما دام ليس في ذلك معصية لله، وما دُمتَ سترافق أناسًا مؤتمنين على دينهم وأخلاقهم.

إيجاد البديل خير وسيلة لحل مشاكل الشباب

شعرتُ بأنه قد أصيب بالإحباط، فلم يردَّ عليَّ بشيء، وإنما حاول الانصراف، فأحببتُ أن أُوجِد له بديلًا يتسلَّى به، فناديته وقلتُ له:

ـ لحظة من فضلك.

التفتَ إليَّ بوجه عابسٍ، ثم قال:

ـ ماذا؟!!

ـ هل تريد فعلًا الخروج في رحلة، وإلى المكان الذي تختاره أنت؟!!

تعجَّب من هذا العرض، ولكنه ما زال يائسًا من الحصول على مراده، فقال:

ـ لا أريد الخروج من البيت، فهو أسلم لي!!

فقلتُ وأنا أبتسم:

ـ ما رأيُك أن ترتِّب أنت وإخوتك رحلة عائلية إلى أيِّ مكانٍ تختارونه؟!!

فردَّ واليأس لا يزال باديًا على وجهه:

ـ قلتُ لك لا أريد الخروج في رحلات!!

فقلتُ له وأنا أمازحه، وفي الوقت نفسه أحاول زرع الثقة فيه:

ـ ولكن هذه الرحلة لن تكون كغيرها من الرحلات؛ فأنت مَن سيختار مكانها ومدتها، وأنت مَن سيُعدُّ برنامجها!!

صمت قليلًا وكأنه بدأ يُرحِّب بالفكرة، ولكنه في الوقت نفسه لا يريد أن يُظهِر ذلك لي، فقال:

ـ أَخبِر أحد إخواني بإعدادها، ويمكنني مشاركته في ذلك، وأما الخروج فإني أفضل

البقاء في البيت!!

ـ بل أنت مَن ستقوم باختيار مكانها وإعداد برنامجها، وستخرج ـ بإذن اللّه ـ معنا، وستكون أمير هذه الرحلة!!

ابتسم ثم علّق قائلًا:

ـ أميرًا مرة واحدة؟!!

ـ نعم، ستكون أمير الرحلة، وستعاون جميعًا في جعلها ممتعة ومفيدة.

فردَّ عليَّ، وكأنه قد أعجب بالفكرة:

ـ سأتحدث مع إخواني، وسنقوم بالترتيب لها، وسنعرض عليك برنامجها.

ابتسمتُ وقلتُ:

ـ هذا رائع، وإن احتجتم لأيِّ مساعدة فأنا مستعد.

العلاقة الطيبة وسيلة للمصارحة

استبشر بهذا الحديث، ورأيتُ ذلك باديًا على وجهه، ولكني لاحظتُ أن ملامح وجهه قد تغيَّرت فجأة، ورأيتُه يُنكِّس رأسه وملامح الخوف بادية على وجهه، فسألته قائلًا:

ـ ماذا جرى؟!! أرى أن هناك أمرًا أقلقك!!

قال بصوتٍ متقطع:

ـ أريد أن أخبرك بأمرٍ كنتُ أخفيتُه عنك، وأخاف إن أخبرتُك به أن تغضب عليَّ.

شعرتُ بأن هناك أمرًا مهمًّا يريد أن يخبرني به، وأنها قد تكون فرصة أخرى لفتح قلبي له، فقلتُ له:

ـ يا ابني: لا تنسَ بأنك ولدي، وأني أحبك كثيرًا، ومهما بدر مني نحوك، أو بدر منك نحوي، فسنبقى ـ بإذن اللَّه ـ متحابين، نكنُّ لبعضنا الودَّ والاحترام.

أحسستُ بأنه شعر بشيء من الارتياح، ولكنه لا زال يشعر بالقلق، ثم استجمع قواه، فقال بصوتٍ متقطِّع:

ـ أخبرتك بأن مستوايَ الدراسي جيِّد، ولكن الواقع غير ذلك!!

قلتُ مندهشًا:

ـ ماذا تعني؟!!

ردَّ بصوتٍ خافت:

ـ لقد رسبتُ في الفصل الأول!!

ما إن سمعتُ هذه الكلمات حتى كدتُ أطيش من الغضب، ولكني تذكرتُ أني أخوض تجربة جديدة في علاقتي معه، فتمالكتُ أعصابي، وقلتُ له بصوتٍ هادئ وأنا أبتسم:

ـ يبدو أنك تريد أن تخبرني بأمورٍ لا أعرفها.

واصل حديثه:

ـ لقد ارتبطتُ منذ بداية هذا العام بالمجموعة التي كنتُ أريد الخروج معهم في الرحلة التي أخبرتُك عنها، وما كان همُّ هؤلاء الدراسة، وإنما اللَّهو واللعب ومشاغبة المعلمين والتندُّر بهم، وعندما كنتُ أخبرهم بأن عندي امتحانات، كانوا يُهوِّنون ذلك عليَّ، ويحاولون صرفي عن المذاكرة، ومضى الفصل وأنا على تلك الحال!!

فقلتُ له وأنا لا أكاد أن أصدق ما أسمع:

ـ ولكن شهادتك في الفصل الأول تقول غير ما تقوله الآن!!

نكَّس رأسه، ثم قال:

ـ لم تكن تلك شهادتي!!

قلتُ مندهشًا:

ـ ماذا ؟!! ولكن عليها اسمك!!

أجابني وهو يكاد أن يبكي مما بداخله من الأسى:

ـ لقد زوَّروا لي شهادة أحد الطلاب الممتازين، وأوهموني بأن تلك هي مساعدتهم لي، لأني ـ كما يقولون ـ أستطيع التفوُّق في دراستي دون الحاجة للاجتهاد فيها!!

ـ ولماذا لم تخبرني بذلك من قَبْل؟

ـ تعلم بأني لو أخبرتك عن شيء من ذلك لانفجرتَ في وجهي، وعنَّفتني بالكلام، وربما أدَّى بك الأمر إلى ضربي!!

شعرتُ بأن الخطأ ليس خطأه وحده، وإنما أتحمَّلُ قسطًا كبيرًا منه، وشعرتُ أيضًا بأن عليَّ الاعتراف له بذلك، والوقوف بجانبه في محنته، فقلتُ له:

ـ أنت محقٌّ فيما قلتَه، وإني أعترف لك بأني قصَّرتُ في حقِّك كثيرًا، وعلينا الآن تدارك ما نستطيع تداركه.

سألني وقد شعر بشيءٍ من الارتياح:

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أن عليَّ الوقوف بجانبك في دراستك، وسنراجع الدروس سويًّا، وقد يكون عندنا ما فيه الكفاية من الوقت إلى أن يحين وقت الامتحانات النهائية.

ارتاح من هذا الكلام كثيرًا، فقال ونبرة الانشراح بادية في صوته:

ـ ألستَ غاضبًا عليَّ مما فعلت؟!!

ـ يا ولدي: الحياة مدرسة تستوعب الكبير والصغير، وقد لا تستوعب أنت الدرس مما حدث لك بمقدار ما أستوعبه أنا. إن ما حدث لك ليس بالأمر الهيِّن، ولكن علينا أن لا نبكي على ما مضى، وإنما علينا الاستفادة مما جرى في تحسين علاقاتنا ببعضنا، والبقاء أسرة واحدة متماسكة، وإن كنتُ قد قصَّرتُ في حقِّك في الماضي، فهذا لا يعني أن أقع في نفس الخطأ في المستقبل.

سُرَّ كثيرًا من هذا الكلام، فقال:

ـ وهل ستقوم بمعاقبة أولئك الذين كانوا سببًا في رسوبي، وخاصة أنهم أوقعوني في تزوير شهادتي؟

ـ إن ما فعله أولئك معك أمرٌ جسيم وجُرمٌ عظيم، وإني لا أشك في أنهم يفعلون مثل ذلك مع غيرك، ولكن عليك أن تعلم بأنهم ما كانوا ليستطيعوا التأثير عليك لولا أنهم رأوا تقبُّلًا منك، والعلاقة التي جمعتكم لم تأتِ بين يوم وليلة، وإنما حاولوا بناءها معك على مرور الأيام. لذلك، ما علينا القيام به الآن هو تقوية علاقتنا ببعضنا بعضًا، وفي هذا تفويتٌ على أولئك وأمثالهم أن يُؤثِّروا فيك أو في أحد زملائك.

كذلك، بإمكانك محاولة التأثير عليهم إيجابيًّا، كما قاموا بالتأثير عليك سلبًا، وإذا لم تفلح في ذلك فعلى الأقل أن تنبه زملاءك الآخرين إلى خطورة مصاحبة أمثال أولئك الذين ليس لهم همٌّ إلا نشر الفساد في المجتمع. ومن جانبي، فسأتواصل ـ بإذن اللَّه ـ مع إدارة المدرسة وأولياء أمور الطلاب المفسدين، وسنحاول جميعًا إصلاح هؤلاء الطلاب من خلال أولياء أمورهم، وأيضًا من خلال تثقيف المجتمع بخطورة انتشار مثل هذه الظواهر في مجتمعنا.

فعلَّق على كلامي بانشراح:

ـ بإذن اللَّه سأجتهد في دراستي، وأكون قدوة لزملائي، وأيضًا سأحاول من خلال

بعض أصدقائي أن نتعاون لإصلاح ما يفسده هؤلاء، وإني أعتذر لك يا أبي عما سببته لك من ضيق، وأعاهدك بأني سأرجع إليك في أموري كلها.

سعدتُ كثيرًا بما قاله، فقلتُ له:

- وأنا- بإذن اللَّه- سأبقى قريبًا منك.

حوار مع طالب الجامعة

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة ليلًا، وكنتُ حينها عائدًا من مكتبي في الجامعة، وفي طريقي إلى البيت رأيتُ شابًّا بلباس العمل واقفًا على جانب الشارع، يُلوِّح بيده على السيارات المارة، فقلتُ في نفسي: أكسب أجرًا، وأقف لهذا الشاب. سألني إن كنتُ سأصل إلى المنطقة التي يريدها، فأخبرته بأني متجهٌ هناك، فركب وشكرني كثيرًا، وقال: من الصعب الحصول على سيارة في مثل هذا الوقت.

الهمة العالية من سمات الطالب الجامعي

كان شابًا في بداية العشرينات من عمره، وكان يرتدي لباس العمل، ويبدو عليه الإنهاك، فسألته:

ـ يبدو أنك قادمٌ من الدوام؟

ـ نعم، فإن دوامي ينتهي في العاشرة مساءً.

ـ ومتى تبدأ الدوام؟

ـ أعمل في الفترة المسائية فقط، ودوامي من الرابعة عصرًا إلى العاشرة ليلًا.

ـ وماذا عن فترة الصباح؟

ـ أنا طالب في الجامعة، وغالبية محاضراتي تنتهي قبل الرابعة عصرًا، ولذلك رتَّبتُ أن يكون دوامي في المساء.

فقلتُ متعجِّبًا:

ـ تذهب إلى الجامعة في الصباح، ثم إلى العمل في المساء، أليس هذا شيئًا مرهقًا؟!!

ـ نعم إنه مرهق، ورغم أن الوقت متأخرٌ الآن إلا أني لن أذهب لأنام؛ وإنما لا تزال أمامي بضع ساعات قبل النوم!!

ـ ولماذا لا تنام مبكرًا وتستيقظ في الصباح مبكرًا؟

ـ وضعتُ لنفسي برنامجًا؛ وهو أن أعود إلى غرفتي فأستحم وأطبخ عشائي، وبعد العشاء أكون قد قضيتُ حوالي ساعة منذ وصولي، وتبقى لي حوالي ساعتان أذاكر فيهما دروسي!!

ـ هذا يعني أنك لن تنام قبل الواحدة؟!!

ـ هذا صحيح!!

ـ ومتى تستيقظ في الصباح؟

ـ بالطبع، أحرص أن لا تفوتني صلاة الفجر في الجماعة. وبعد الصلاة أقرأ وِردي من القرآن، وهو جزءٌ كاملٌ، ثم أعود إلى غرفتي وأصنع إفطاري، ثم أتجهز للذهاب إلى الجامعة!!

فقلتُ مندهشًا:

ـ إذن، أنت لا تنام في اليوم إلا حوالي أربع ساعات؟!!

ـ في بعض الأحيان يكون عندي بعض الوقت في الجامعة، فأستغل تلك الفرصة فآخذ قيلولة خفيفة!!

ـ ولكن هذا الإرهاق سيؤثر على دراستك كثيرًا.

ـ ليس عندي خيارٌ آخر، فأنا مضطر للعمل في المساء؛ فوالدي مصابٌ بالشلل، ولي

خمسة إخوةٍ وأخوات، وهم يحتاجون إلى مَن ينفق عليهم، وفي الوقت نفسه فأنا لا أريد أن أفرط في دراستي، فلم يكن عندي خيارٌ إلا الدراسة والعمل معًا!!

التفوُّق الدراسي من أساسيات النجاح

قلتُ له:

ـ أنا أستاذٌ في الجامعة، وأعرف عن أحوالكم أنتم الطلاب الكثير، وإني أعرف أن غالبية الطلاب ـ وخاصةً الذكور منهم ـ لا يهتمون بدراستهم رغم تفرُّغهم لها، فماذا عسى أن يكون حالك، وأنت توزع وقتك بين الدراسة والعمل؟

ـ اعذرني أولًا يا أستاذي، فلم أعرف بأنك أستاذٌ في الجامعة. أما بخصوص دراستي فقد وضعتُ لنفسي هدفًا وهو أن أكون الأول في دفعتي على مستوى الجامعة، وهذا يعني أن لا يقل معدلي التراكمي عن ٣٫٩!!

ظننتُ أنه يريد فقط أن يُغطِّي على إخفاقه في الدراسة بهذا الكلام، قلتُ له:

ـ ما أكثر الأحلام لو أنها تتحقق!!

ـ عفوًا يا أستاذي، ولكني لم أضع لنفسي أحلامًا فقط، وإنما حوَّلتُها إلى خطة ذات أهداف، فرتبتُ أوقاتي لأضمن أنْ لا يقل معدلي عما ذكرتُه لك.

ـ وفي أيِّ سنةٍ أنت الآن؟

ـ أنهيتُ ثلاث سنوات، وهذه سنتي الرابعة!!

ـ هل لي أن أسألك كم معدلك الآن؟

ـ بحمد اللَّه لا يزال يفوق ٣٫٩٥!!

ـ ما شاء اللَّه، يبدو أن اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ قد أعطاك من القدرات والمواهب ما

تستطيع المحافظة به على هذا المعدل.

ـ الحمد لله، فأنا في نعمة عظيمة تستحقُّ الشكر. ولكن عليك أن تعلم يا أستاذي الفاضل بأن اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ قد أعطى جميع الناس قدراتٍ متكافئة، ومنحهم فرصًا لو أحسنوا استغلالها لاستطاعوا تحقيق ما يفوق تخيلهم. وسرُّ النجاح ليس بوضع الأهداف والخطط، وإنما هو في تفعيلها والإصرار عليها. ولكي يستطيع الإنسان الاستمرار في تحقيق نجاحاته فلا بُدَّ له من مُحفِّزٍ ودافع.

الطالب الجامعي ودوره في حمل رسالة الإصلاح

أحسستُ بأن مَن يجلس بجانبي ليس كأيِّ طالبٍ آخر، وإنما أنا بجانب رجلٍ عظيم. لذلك، أردتُ أن أستوضح أكثر عن حياته وطموحاته، فقلت له:

ـ وما الذي يدفعك للاهتمام بدراستك وتحقيق النجاحات التي ترغب فيها؟

ـ إنك تعلم يا أستاذي أننا ننتسب إلى أمةٍ مباركة، قد تخاذل غالبية أبنائها عن نصرتها والقيام بشؤونها. وعندما فكرتُ في أحوالها، أحسستُ بها وهي تئِنُّ مما أصابها من جراحٍ أثخنتها، ومن كُرَبٍ أوجعتها، وسمعتُها تستنجد بي، وتطلب مني أن أمُدَّ إليها يد العون. فقلتُ لنفسي: يا ويحي، إني لا أرد طلب سائلٍ، حتى وإن صغر سنُّه أو قلَّ شأنه، فكيف وأمتي تستنجد بي؟!! عندها وضعتُ لنفسي هدفًا، وهو الوصول إلى المرتبة التي أستطيع من خلالها أن أحقق لأمتي عزها ومجدها!!

كنتُ أستمع إلى هذا الحديث وأنا منكِّسٌ رأسي خجلًا من حالي أمام عظمة هذا الطالب؛ فأنا أستاذٌ جامعي، وقد وصلتُ إلى مراتب علمية لم يصلها إلا القليلون، وحققتُ من الإنجازات العلمية والأكاديمية الشيء الكثير. وها هو هذا الطالب البسيط في هيئته، العظيم في شأنه يُعلِّمني درسًا مهمًّا؛ وهو أن العظمة ليست كما كنتُ أتصورها، وإنما هي حقيقةً ـ كما قال ـ بالارتباط باللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ، والانتماء الصحيح إلى

أمة رسولهﷺ. قلتُ له:

ـ يا ولدي، إن ما تنشده لأمرٌ عظيم، وهو سهل على مَن سهَّله اللَّه عليه، وإني بقدر ما أبارك لك هذه الهمة العظيمة وهذا الفكر النيِّر، أعطف عليك؛ فإنك كما أخبرتني، وكما يبدو من حالك، تُجهِد نفسك كثيرًا لتحقيق ما خطَّطتَ لتحقيقه في هذه الحياة، وإن ما يؤلمني أكثر أن أرى الألوف المؤلفة من أمثالك الطلاب وهم تائهون؛ لا يعرفون لدنياهم غاية، ولم يضعوا لحياتهم هدفًا، ولم ينجزوا طوال سنيِّ عمرهم شيئًا، حتى ولو كانت إنجازات بسيطة ومتواضعة.

ـ صدقتَ يا أستاذي، وإني أعاني من أمثال هؤلاء أكثر من معاناتي من دراستي وعملي.

ـ يكفيك الجهد الذي تبذله في دراستك وعملك، وأرى أن تتركهم وشأنهم كيلا يؤثروا عليك سلبًا في دراستك؛ سواءً بما يسببونه لك من مضايقات أو بما يضيعونه عليك من أوقات.

ـ عفوًا يا أستاذي، ولكن ليس لي مفرٌ من مخالطتهم والاهتمام بهم!!

تعجَّبتُ من هذا الرد، فظننتُ أنه ربما يكون مدينًا لهم بأمورٍ كاقتراض مالٍ منهم، فيرى ضرورة التعامل معهم من باب المجاملة، فقلتُ له:

ـ عجبًا لأمرك، لماذا لا ترى بُدًّا من مخالطتهم، وهم على ما وصفتَ من ضياع وعدم اكتراث بدراستهم وأحوال مجتمعهم؟!!

ـ لقد أخبرتك يا أستاذي أن مما أريد تحقيقه في هذه الحياة هو نجدة أمتي التي تصرخ وتستغيث، ولا يمكنني تحقيق ذلك بمفردي، فكان لا بُدَّ لي من أن أوجِد من أبناء هذه الأمة من يُدرك مصابها ويهتم بشؤونها. لذا، فإني قد جعلتُ من ضمن خطتي اليومية الاهتمام بزملائي الطلاب، وخاصةً أولئك الذين أرى فيهم بوادر الصلاح، وأجالسهم

وأحادثهم، وأستخدم معهم التلطف والنصح والتوجيه بالحكمة والموعظة الحسنة.

وأصدقك القول يا أستاذي أني ما أفرح بمعدلي التراكمي أكثر من فرحتي عندما أرى أحد هؤلاء الشباب، وقد عقد العزم أيضًا على الاهتمام بدراسته، ووضع برنامجًا لتثقيف نفسه، والارتقاء بمهاراته ومواهبه. وإني على يقين أن أمثال هؤلاء سيكونون- بإذن اللَّه- أداة لبناء المجتمع والأمة، وأن بقاءهم في التيه والضياع لن يجلب للمجتمع والأمة إلا البوار.

- ولكن قد يقول قائلٌ بأنك إن استطعتَ إقناع بعض زملائك الطلاب، فهناك آلاف غيرهم على درجات متفاوتة من الانحراف والبعد عن منهج اللَّه والتيه والضياع وعدم الاكتراث بالدراسة أو بشؤون المجتمع والأمة، ولن يكون لأولئك القلائل الذين استطعتَ التأثير عليهم شأنٌ يُذكَر في الأمواج المتلاطمة من الطلاب الآخرين الذين هم على نقيض ذلك. فما تعليقك على هذه العبارة؟

- على العكس من ذلك يا أستاذي؛ إنك إن بَذَرْتَ بذرة خيرٍ ورأى- سبحانه- حُسْن نيتك وجِدِّيتك في الاهتمام بهذه البذرة، فإن اللَّه سيُنَمِّيها لك حتى تصبح يانعةً مزهرةً مثمرة، ومتى تكاثرت هذه البذرات بدأ تيار الشر والانحراف في الاضمحلال.

ومع ذلك، فلا يزال ما قلتَه يا أستاذي من قلة الأفراد العاملين واقعٌ علينا ألا نغُضَّ الطرف عنه، ولذلك فإني لا أكتفي فقط بالاختلاط بهؤلاء، وإنما أحاول أن أغشى أنديتهم، وأشاركهم فعالياتهم، وأرتب مع بعض إخواني إقامة أنشطة وفعاليات نحسب- بإذن اللَّه- أن يكون لها أثرٌ في توجيه هؤلاء الشباب في الاهتمام بدراستهم ومجتمعهم وأمتهم.

الاهتمام بالفتيات من ضروريات العمل الدعوي في الجامعات

أعجبتُ كثيرًا بهذا التحليل الذي ينمُّ عن فكرٍ سديد وعقلية واعية ومخططة، فأردتُ

أن أستكشف منه المزيد، فقلتُ له:

ـ وإذا كان اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ قد هيأ للشباب مَن يهتم بهم، فماذا عن الفتيات، وهن أكثر عددًا منكم، وأحوالهن أسوأ بكثيرٍ من أحوال الشباب، وخطر انحرافهن أضر على المجتمع من انحراف الشباب؟

ابتسم ثم قال:

ـ لقد أدركنا هذه الحقيقة منذ البداية، ولذلك عملنا جاهدين على إيجاد قنوات اتصالٍ بيننا وبين الفتيات!!

شدَّني براعة هذا الشاب في الإجابة، فأردتُ أن أمازحه قليلًا، فابتسمتُ، وقلتُ له:

ـ إنكم بهذا تُحبطون ما تقومون به من جهود، فأنت تعرف أن الاختلاط بالأجنبيات لا يجوز في شرع اللَّه، وأنتم طلاب في عنفوان الشباب!!

فَهِم الطالب قصدي فردَّ بابتسامة:

ـ لا يا أستاذي، إن الأمر ليس كما تصورتَ؛ فنحن لا نقيم قنوات اتصالٍ مع الطالبات للاختلاط بهن، وفعل المحاذير معهن، ولكنا نبحث عن بعض الطلاب الذين تدرس أخواتهم أيضًا في الجامعة، ونحاول من خلال هؤلاء التنسيق مع الطالبات. ونحن ندرك يا أستاذي ما أشرتَ إليه، ولذا فإننا نحاول جاهدين تبصير الطلاب والطالبات بخطورة الاختلاط والتبرج وغير ذلك من المنكرات، والتي أصبحت من معالم غالبية الجامعات!!

ـ وهل وجدتم تجاوبًا من الطالبات؟

ـ إنك لا تصدق يا أستاذي أنهنَّ أكثر اهتمامًا منا نحن الشباب بهذه الأمور؛ فما أن تسمع الواحدة منهن بتوجهنا للإصلاح والدعوة، حتى تهبَّ للمشاركة، ونحاول أن نتخير النجيبات منهن، لأننا نعلم أنهن أقدر على العطاء والبناء.

إصلاح القدوات أساس النجاح

قلتُ له:

- وماذا عن الأساتذة والموظفين؟!! أليسوا هم أيضًا بحاجة إلى توجيهٍ وإصلاح؟

- العفو يا أستاذي، فأنتم القدوة لنا.

- نعم، ذلك ما كان يفترض أن يحدث، ولكن الواقع غير ذلك؛ فإن كثيرًا من الأساتذة والموظفين لا يصلحون لأن يكونوا قدوة لغيرهم، بل إن بعضهم ليُعتَبر أدوات إفسادٍ للطلاب والطالبات والمجتمع!!

تأوَّه قليلًا، ثم قال:

- الحقيقة يا أستاذي أننا أدركنا هذا من خلال احتكاكنا بأساتذتنا وبعض الموظفين، ولذا وضعنا في الاعتبار أن نكون على تواصل مستمر معهم، وذلك من خلال الأنشطة التي نقوم بها، ومن خلال بعض المنشورات التي نصدرها.

ونحن نحاول من خلال كل ذلك إصلاح الجوانب المختلفة عندهم، ومنها ضعف التمسُّك بقيم الدين وفضائله، ومنها الانحراف الفكري الذي يعاني منه الكثير من الأساتذة والموظفين، ومنها اللامبالاة وعدم الاكتراث بتوجيه الطلاب وتحفيزهم على البذل والعطاء، فقد لاحظنا ـ وللأسف الشديد ـ أن عددًا من الأساتذة لا يهمهم إلا الراتب الشهري الذي يستلمونه، ولا يكترثون بأحوال طلابهم وزملائهم.

إيصال رسالة الإسلام بالكلمة المكتوبة

قلتُ له:

- وهل تُصدِرون أيضًا نشرات؟

ـ إننا نحاول أن نوصل كلمة الإسلام بمختلف الوسائل. والبيئة الجامعية، كما تعلم يا أستاذي، بيئة مناسبة لمثل هذه الأنشطة؛ فوجود العدد الكبير من الطلاب، سواءٌ أولئك الذين يشاركوننا في إقامة هذه الأنشطة أو المستهدَفين منها، يخدم أهدافنا من إقامة هذه الأنشطة كثيرًا. والنشرات هي مجرد نشاط واحد من الأنشطة التي نقوم بها، وهناك ـ ولله الحمد والمنة ـ العديد غيرها؛ فنحن نقيم المحاضرات والندوات وحلقات النقاش، وفي بعض الأحيان نعدُّ لمؤتمرات.

ـإني لأشعر بالخجل وأنا أسمع هذا الكلام؛ فنحن الأساتذة عندنا من الإمكانيات والوسائل ما يمكننا أن نقوم بهذه الأنشطة بأوسع مما هو متاح لكم، ولكننا لا نفعل؛ لأن توجُّه غالبيتنا ـ كما ذكرتَ ـ هو ليس في هذا السياق.

ـ هذا صحيح، فليس المعوَّل عليه كثرة الموارد بقدر ما هو صدق التوجُّه.

ـ ولكن، كيف يتسنى لكم القيام بكل هذه الأنشطة، وأنتم على ما وصفتَ لي من انشغالات؟!!

ـ إن حُسن التنظيم في مثل هذه الأمور ليساعد كثيرًا؛ فنحن نقوم فقط باقتراح الأنشطة، ثم نحاول البحث عن بعض الطلاب، وخاصة ممن ينتمون إلى الجماعات الطلابية، الذين يمكن توجيههم نحو إقامة هذه الأنشطة والاهتمام بها. وفي بعض الأحيان نستفيد من توجُّه بعض الجهات الموجودة في الجامعة لإقامة مثل هذه الأنشطة، ونكون نحن قريبين منهم لضمان توجيه تلك الفعاليات فيما يخدم الإسلام وأمة الإسلام.

ـ ولكني مع ذلك أرى أن لا تُكثروا من هذه الأنشطة، وأفضل أن تكون موجهة لمعالجة قضايا بعينها.

ـ وهذا ما نفعله؛ فنحن نقوم بمناقشة الظواهر التي نشاهدها سائدة بين الطلاب، ثم نقترح الفعاليات التي يمكن إقامتها لمعالجة واحدة أو أكثر من تلك الظواهر.

التيارات الفكرية المنحرفة وسُبُل التصدِّي لها

قلتُ له:

- وما هي في نظرك الظواهر المنتشرة بين الطلاب، والتي ترى ضرورة في معالجتها؟

- من أهم القضايا التي نطرحها، ونحاول التركيز عليها كثيرًا، قضية التيارات الفكرية التي تعصف بطلاب الجامعة؛ فأنت تعلم يا أستاذي أن الطلاب قد أتوا من بيئات مختلفة وخلفيات شتى. واغتراب الشاب عن بلدته له من الإيجابيات المعروفة؛ فهو يعينه على تكوين شخصية مستقلة له، ولكنه في الوقت نفسه له سلبيات كثيرة، ومنها غياب الرقيب والحسيب، أي وليِّ الأمر، وهذا يجعل الطالب عُرضة للتغرير به دون أن يدري!!

وعندما يأتي هؤلاء الطلاب إلى الجامعة يجدونها تموج بالأفكار والتيارات التي يقوم على نشرها والترويج لها أساتذة رضعوا لبانها في بلدانهم أو بلدان الكفر وأتوا بها إلينا، وطلاب تم التغرير بهم من خلال أساتذتهم أو زملائهم. وخطورة هذه الظاهرة من شقين: الأول، أن مَن يقوم بحمل لوائها والترويج لها هم- في الغالب- الأساتذة الذين ينظر إليهم الطلاب بعين الاحترام، ويعتبرونهم قدوة، ولذلك يتقبلون منهم تلك الأفكار دون أدنى مناقشة. والأمر الثاني، وهو الأخطر في نظري، أنهم لا يقومون بالترويج لأفكارهم ومعتقداتهم بصورة مباشرة، وإنما تكون- في الغالب- مدسوسة في ثنايا حديثهم في المحاضرات، أو من خلال المحاورات التي يُجرونها مع الطلاب.

- إني أتفق معك بأن قضية التيارات الفكرية من القضايا المهمة جدًّا، وأصدُقك الحديث إن قلتُ لك بأننا عانينا منها كثيرًا عندما كنا طلابًا في الجامعة، ولا زلنا نعاني منها ونحن الآن أساتذة. والخطير في الأمر، كما ذكرتَ، أن مَن يحمل لواء نشرها والدفاع عنها هم من الأساتذة أنفسهم، ولكن عليك أن تعلم يا ولدي أن هناك منظمات دولية تقف وراء هؤلاء، وتمدُّهم بما يحتاجون إليه من دعمٍ مادي ومعرفي!!

ـ وهذا يفسر لنا الحملات الشرسة والاستماتة في الترويج لبعض تلك الأفكار، وخاصة من بعض الطلاب؛ فالطالب ـ المغرر به ـ يقف وراءه أساتذة يدفعونه بقوة لنشر تلك المبادئ والأفكار، والأساتذة ـ المغرر بهم أيضًا ـ تقف وراءهم تلك المنظمات التي ذكرتَها، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العليِّ العظيم!!

أحسستُ أن الشاب قد تأثر من طرح هذا الموضوع، فقلتُ له: أعرف أن هذه الأمور تجلب للإنسان الكثير من الضيق والكدر، ولكن لا مفر من محاربة أولئك المنحرفين ـ طلابًا كانوا أم أساتذة ـ وإلا لاتَّسع الخرق على الراقع ـ كما يقال ـ، وعندها قد تصعب معالجة الأمور بالطرق البدائية.

التحصيل الدراسي المتدنِّي من أسباب نشر الرذائل والانحرافات الفكرية

قال:

ـ صدقتَ يا أستاذي الفاضل، فلا مفر لنا من طرح تلك القضايا. وأريد أن أشير هنا إلى قضية أخرى مهمة، ولها علاقة بقضية التيارات الفكرية المنحرفة.

ـ وما هي؟

ـ إنك تعلم أن أصحاب الأهواء والبدع والتيارات المنحرفة الضالة يستهدفون فئات معينة من الطلاب، وهي الفئات التي تكون عندها خواء إيماني وعقدي أو الفئات ذات التحصيل المتدني دراسيًّا!!

ـ صدقتَ، فإن من تشرَّب قلبه بالإيمان، ورسخت فيه عقيدة الإسلام، لا يمكن ـ بحال ـ أن يستبدل بها أفكارًا هابطة منحرفة سيقت إليه من هنا وهناك.

ـ أما بالنسبة لمن هم على درجة عالية من الذكاء والفطنة، فهؤلاء قد آتاهم اللَّه من العقل ما يستطيعون التمييز به بين الخبيث والطيِّب، إلا في بعض الحالات، والتي يكون

للهوى فيها سلطة أقوى على جوانح نفس ذلك الشاب من عقله!!

- صدقتَ أيضًا في هذه، وقد لاحظتُ أن كثيرًا من الطلاب المنحرفين يعيشون في حالةٍ أشبه بالتيه والضياع؛ فتجد الواحد منهم لا يكترث بدراسته بقدر ما يكترث بتزويق هندامه وتلميع حذائه. وقد حاورتُ عددًا منهم- وخاصة الشباب- فوجدتُ أن همهم هو التخرج بغض النظر عن التحصيل العلمي الذي حققوه في مدة بقائهم في الجامعة، فترى الواحد منهم لو استطاع التخرُّج بمعدل تراكمي دون الواحد لما كان يُبالي بذلك!!

- إن هذه ظاهرة خطيرة يا أستاذي، ولا أدري إن كنتم أنتم الأساتذة تُقدِّرون أهميتها.

- كيف لا يا ابني، ونحن ندرك أن هؤلاء الشباب وبعض الفتيات سينتهي بهم الأمر بعد تخرجهم إلى الالتحاق بالوظائف، وماذا عساهم أن يُنجِزوا في وظيفتهم إذا كانوا لم يفعلوا شيئًا طيلة مدة بقائهم في الجامعة؟!!

- هذا جانب مهم يقلقني ويقلق الكثيرين من زملائي؛ فلا تنسَ يا أستاذي أن بعض هؤلاء عندما يلتحقون بالوظيفة فإنهم سيلجؤون إلى ابتكار حيلٍ وطرقٍ ملتوية لإيهام مسؤوليهم وزملائهم في العمل بأنهم صالحون للعمل وأنهم ليسوا فاشلين، وهذا سيؤدي- بطبيعة الحال- إلى ضعف الإنتاج على مستوى المؤسسة، ثم عندما ينتشر الأمر ويعم المجتمع بأكمله فعندها يصبح مجتمعًا مترهِّلًا ضعيفًا لا يستطيع أن يلبي احتياجاته الضرورية، وإنما يعتمد في كل ما يحتاج إليه على الآخرين.

وكما ذكرتُ لك يا أستاذي أن المنحرفين أخلاقيًّا والفاشلين دراسيًّا هم- في الغالب- الفئة المستهدَفة من أصحاب الأهواء والتيارات الضالة. والأمر الخطير هنا هو ليس مجرد تبني هؤلاء المنحرفين والفاشلين لتلك الأفكار العفنة، ولكن الأخطر من ذلك أنهم سيقومون بعد تخرجهم بنقل خبراتهم وتجاربهم في الفساد والإفساد إلى بيئة العمل وإلى أماكن سكناهم، وسيُشكِّلون بُؤَرًا للفساد ومراكز لنشر الرذائل. وماذا عسى أن يكون همُّ مَن لم يَخَفْ ربًّا ولم تردعه قيمٌ ومبادئ؟!! إنه- بلا شك- سيحاول جاهدًا

أن يجعل من بيئة عمله وسيلةً لنشر الانحراف الذي درج عليه أيام دراسته!!

ـ كلامك منطقيٌ جدًّا؛ فإن الفاشلين رغم تدني مستوياتهم العلمية، وتدهور أحوالهم الأخلاقية والسلوكية، لا يعترفون أنهم فاشلون، وربما اعتقدوا أنهم على الصواب والجادة، وأن غيرهم متخلفٌ وغير مواكب للتطور والواقع. وإذا رأوا أن الناس صاروا يمقتونهم، وأن بعض الناس قد بدؤوا اكتشاف فشلهم وتدني مستوياتهم، فإنهم يلجؤون ـ كما ذكرتَ ـ إلى وسائل لإخفاء فشلهم وإخفاقهم، وإذا نجحوا في ذلك، فإنه نذير شؤمٍ على المجتمع بأسره!!

ـ لذلك، نحاول تكريس كثير من جهودنا لدفع إخواننا وأخواتنا الطلاب للاهتمام بدراستهم وتنمية قدراتهم ومهاراتهم. ونحاول كذلك معالجة النظرات المتدنية التي يعاني منها غالبية الشباب والفتيات في تصوُّرهم للمستقبل؛ فكما تعلم يا أستاذي إن أقصى ما يفكر فيه غالبية الشباب والفتيات بعد تخرجهم من الجامعة هو حصولهم على وظيفة وراتب مناسب يُمكِّنهم من الزواج وشراء السيارة وبناء البيت، وغير ذلك من مُتَع الحياة. وما نحاول القيام به هو توجيههم للاهتمام بأمتهم ومجتمعاتهم، وأن يكون لهم دورٌ رائد في البناء والإصلاح.

ـ ما أنبل ما تسعَوْن له يا ولدي لو كانوا يسمعون!! ولكنك تعلم إن صرف الطلاب عن هذه الاهتمامات أمرٌ في غاية الصعوبة؛ فالحياة قد أصبحت معقدة جدًّا، وأصبحت تستحوذ على اهتمامات غالبية الناس، والطالب قد لا يعنيه موضوع الإصلاح والبناء بقدر ما يعنيه تأمين الوظيفة والراتب والزوجة!!

ـ نحن ندرك طبيعة النفس البشرية وميلها إلى هذه المتع وعدم اكتراثها بما هو أنفع لها وأصلح. لذلك، لا نقوم بصرف اهتمامات الشباب والفتيات عن هذه الأمور بطريقة مباشرة، وإنما نحاول أولًا تشجيعهم على القراءة والمطالعة في الصحف والجرائد والمجلات ومواقع الإنترنت التي نرى أنها تخدم هذا الجانب. كذلك، نحاول توجيههم

للتخصُّص في المجالات التي تخدم الأمة، ولا نقوم بذلك أيضًا بطريقة مباشرة، وإنما من خلال توجيه اهتماماتهم ومطالعاتهم لتصبَّ في هذا السياق.

- وهذا ينمُّ عن حكمة ودراية وفهم عميق لنفسيات الناس ومتطلبات الدعوة.

- الحمد لله، نحاول أن نتوكل على اللَّه في كل أمورنا، ونسأله دومًا أن يوجِد لنا المنافذ التي نستطيع من خلالها الولوج إلى أفئدة الناس فنوصِل إليهم كلمة الحق.

وسائل تمويل الأنشطة الدعوية

قلتُ له:

- لقد شرحتَ لي كيف توزعون الجهود لإقامة الأنشطة بين الطلاب والجهات المختلفة في الجامعة، ولكن ماذا عن تمويل تلك الأنشطة؟ ألا تصادفكم عقبات مالية؟

- الجانب المالي هو أحد الركائز المهمة في إقامة الفعاليات المختلفة ونجاحها، ولكن- بحمد اللَّه- استطعنا التغلُّب على هذا التحدي بوسائل عدة، منها:

أولًا: طلبنا من الإخوة الذين نثق في صدق توجُّهِهِم إلى اللَّه- سبحانه وتعالى- أن يُسهموا شهريًّا ببعض المبالغ، ولو كانت يسيرة، وجعلناها جزءًا من التزاماتهم الدعوية.

ثانيًا: نحاول الاستفادة من تمويل بعض الأنشطة التي تقام من خلال الجماعات الطلابية وجهات الجامعة المختلفة ذات الصلة؛ ففي بعض الأحيان يتم تغطية فعاليات بأكملها، وفي أحيان أخرى نحصل على تمويل جزئي، ونقوم بتعويض الباقي من خلال الوسائل الأخرى.

ثالثًا: كذلك، نحن على تواصل مستمر مع الشباب والفتيات المهتمين بالأمور الدعوية والحريصين على نصرة الأمة، سواءٌ أكانوا داخل الجامعة أم خارجها، ونقوم بإشراكهم في التخطيط والإعداد للفعاليات التي نقوم بها، مما يجعلهم حريصين على

إنجاح تلك الفعاليات، وهذا بدوره يجعلهم يبادرون بالإسهام المالي طوعًا.

ـ ولكن ما أعلمه أن الإعداد للمؤتمرات ـ وخاصة الدولية منها ـ يحتاج إلى تخطيط وتمويل كبيرين، فكيف يتسنى لكم ذلك؟!!

ـ أما بالنسبة للإعداد والتخطيط للمؤتمرات فإننا ألزمنا أنفسنا منذ البداية بأن لا نسمع عن رغبة أية جهة من جهات الجامعة في إقامة مؤتمر ما إلا ونعرض عليهم المشاركة في الإعداد لذلك المؤتمر، وكثيرًا ما يرحبون بنا، ولذلك أكسبتنا تلك المشاركات الفهم والخبرة في الإعداد والتخطيط لإقامة مؤتمرات مشابهة.

وأما بخصوص التمويل، فإنه عندما نكون بحاجة إلى إقامة مؤتمر نحاول أولًا البحث عن جهة يمكن أن تتبنى ذلك المؤتمر، ونَعِدهم بأن نتحمَّل القسط الأكبر من الإعداد والتخطيط له، ونفوض لهم أمر التمويل والإشراف. وبطبيعة الحال، فإخواننا الطلاب يُسهمون معنا بتفانٍ يفوق النظير.

ـ وهل تُشرِكون الفتيات في الإعداد والتخطيط لتلك الفعاليات؟

ـ طبعًا، عندما تأتي فكرة لإقامة فعالية معينة فإننا نوصِل تلك الفكرة إلى الفتيات، سواءٌ داخل الجامعة أم خارجها، ومن خلال القنوات التي أشرتُ إليها سابقًا، ونطلب منهن إبداء الرأي والاقتراحات، ونحن ـ في كثير من الأحيان ـ نأخذ بآرائهن. وأيضًا فهُنَّ يُعِنَّنا على تمويل الكثير من الفعاليات، بجانب أنهن يُسْهِمْنَ في إقامة الفعاليات نفسها، فهُنَّ يتولَّيْن الجانب النسائي، ونحن نتولى جانب الرجال.

كذلك، نحن ندرك أهمية المرأة والاهتمام بها، وخاصة من خلال إقامة هذه الفعاليات، ولذلك فإننا نُخصِّص فعاليات تخدم النساء فقط، ونقوم نحن بدور الإعداد والتخطيط والتمويل، ويَقُمْن هُنَّ بالمشاركة في هذه الجوانب، بالإضافة إلى تنفيذ الفعاليات.

بناء جسور التواصل مع العلماء والدعاة في أرجاء العالم

قلتُ له:

- ذكرتَ لي أنكم في بعض الأحيان تقيمون مؤتمرات دولية، فكيف يتسنى لكم التعرُّف على العلماء والمفكرين والمشاهير من الدول الأخرى؟

- كما أننا نحاول إقامة مؤتمرات دولية ليتسنى لنا الاستفادة من خبرات وعلوم مَن هم في البلدان الأخرى، فإننا أيضًا نتواصل مع مَن لهم اهتمامات بالفكر والدعوة في تلك البلدان.

- وكيف تقومون بذلك؟

- كما تعلم يا أستاذي، فإنه لا تكاد تخلو جامعة من جامعات العالم من جماعات واتحادات ومنظمات طلابية، وما نقوم به هو المشاركة بفاعلية في بعض الاتحادات والمنظمات الطلابية الموجودة عندنا في هذه الجامعة، ونحاول الاستفادة منها لخدمة الإسلام وأمة الإسلام، ثم بعد ذلك ننطلق للتعرف على ما هو موجود في الجامعات الأخرى الموجودة عندنا في البلد.

وإذا رأينا قصورًا في بعض الاتحادات والمنظمات الطلابية الموجودة في الجامعات الأخرى وسوء توجيه لها، فإننا نحاول أولًا إيجاد حلقة وصل بيننا وبينهم، والذين- غالبًا- ما يكونون من الطلاب والطالبات. ثم بعد ذلك نحاول دفعهم للمشاركة في الاتحادات والمنظمات الطلابية الموجودة في جامعاتهم ليتسنى لهم القيام بتوجيهها الوجهة الصحيحة.

وبالطريقة نفسها نقوم بالتعرف على الاتحادات والمنظمات الطلابية الموجودة في جامعات الدول الأخرى، وحتى الأجنبية منها، ونتواصل معهم عبر البريد الإلكتروني ووسائل التواصل الاجتماعي. وفي حالة إقامتهم لبعض الفعاليات ذات الشأن، وخاصة

المؤتمرات، فإننا نشارك فيها بالحضور.

ومن خلال مشاركتنا نحاول التعرف على أحوال الاتحادات والمنظمات الطلابية في تلك الجامعات، ونبني جسور التواصل مع قياداتها والفاعلين فيها. وبذلك نكون قد جعلنا هذه الحلقات المتواصلة من العلاقات التي تربط بين الاتحادات والمنظمات الطلابية المختلفة تُكوِّن لنا ما يشبه الشبكة الواحدة التي نستطيع من خلالها خدمة هذا الدين ونصرته بأنفع الصور وأجداها.

ـ جزاك اللَّه خيرًا يا ولدي، وبارك اللَّه لكم في هذه الجهود التي تقومون بها، وإني أدعوكم مرة أخرى بالاهتمام بأساتذتكم كما تهتمون بزملائكم الطلاب!!

ـ العفو يا أستاذي، فالخير فيكم بإذن اللَّه.

ـ يا ابني، أنا لا أحاول من كلامي هذا ـ بعد كل ما سمعتُه منك ـ أن أجاملك، ولكن كما تعلم فإن الهيئات التدريسية في معظم جامعات العالم الإسلامي تعاني من تدني القيم والمبادئ وضعفها في نفوس الكثيرين منهم!!

ـ لا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم!! إنك تدرك يا أستاذي أن أمتنا بحاجة ماسة إلى مَن يعيد أبناءها إلى جادة الصواب، وفي نظري إن دوركم أنتم الأساتذة يمكن أن يكون أعظم من دورنا نحن الطلاب، وإن كان لا عذر لأحدنا أمام اللَّه سبحانه وتعالى!!

ـ يا ابني، إن قطاعات المجتمع كلها بحاجة إلى إصلاح، بل ـ وفي كثير من الأحيان ـ إلى إعادة بناء. والبيئات الجامعية من أحوج تلك القطاعات للإصلاح، لأنها تُشكِّل بيئة خصبة لضياع الشباب والفتيات وانحرافهم!!

ـ ما رأيك يا أستاذي أن نتعاون جميعًا على خدمة دين اللَّه، سواءٌ أكان ذلك في الجامعة أم خارجها، وسواءٌ أكان الأمر يتعلق بالطلاب أم الأساتذة أم غيرهم؟

ـ وهل يحتاج هذا إلى تفكير؟!! طبعًا، أنا مستعد لأن أكون بجانبكم وأساندكم

بما أستطيع، وأن تتولى أنت دور التوجيه والإرشاد لنا نحن الأساتذة كما تفعل ذلك مع الطلاب!!

رأيتُ الشاب ينكّس رأسه، ويقول:

- أستغفر اللّه يا أستاذي، لا تقل هذا، فأنتم ستبقون قدوتنا.

- ها نحن قاربنا الوصول، فدع عنك هذه المجاملات، وهذه بطاقتي وفيها رقم مكتبي وهاتفي النقال وبريدي الإلكتروني، ويمكن التواصل معي بأيِّ طريقة تراها مناسبة. وإن أحببتَ أن يكون تواصلنا في خارج الجامعة، فالأمر متاحٌ لك.

ردَّ بأدب:

- شكرًا لك يا أستاذي على ما أفدتني به، وشكرًا لك على توصيلك لي، وبإذن اللّه سنكون على تواصل مستمر.

- العفو يا ولدي فأنا سُعِدْتُ بالحديث معك كثيرًا، وما رأيك أن تتناول العشاء معي بدلًا من طبخ عشائك بنفسك؟

- أشكرك يا أستاذي، ولكن لا أريد كسر عادة تعودتُّها مخافة أن تميل نفسي إلى المساومات!!

- رغم أنه يُشرِّفني حضورك إلى بيتي، غير أني أيضًا أُقدِّر لك ما عوَّدتَ نفسك عليه. والآن، دُلَّني على الطريق الموصِل إلى شقتك.

أخذ الشاب يرشدني إلى الطريق الموصِل إلى شقته. وعندما وصلنا مدَّ يده وسلَّم عليَّ، ثم قال:

- شكرًا لك يا أستاذي مرة أخرى على توصيلك لي، وأسأل اللّه أن يبارك في لقائنا هذا، وأن يجعله بذرة خير للعمل سويًّا لخدمة دينه وأمة نبيهﷺ.

ـ أسأل اللَّه ذلك، ولا تتأخر عليَّ كثيرًا، فأنا بحاجة للوقوف بجانبكم لأُقدِّم لهذا الدين ما أستطيع القيام به.

ردَّ بابتسامة:

ـ بإذن اللَّه، ستجدني في الغد عند باب مكتبك!!

ـ وأنا بإذن اللَّه سأكون في انتظارك.

لوَّح الشاب بيده لتوديعي، وأنا أحمد اللَّه أن وفقني للتعرُّف على هذا الشاب ليأخذ بيدي إلى طريق الصلاح والاستقامة، وتذكرتُ قول اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف: ٧٦).

حوار مع مُعلِّم

ذهبتُ لأتسوق في أحد المحلات الكبرى في العاصمة، وبينما كنتُ أتجوَّل في المحل لمحتُ أحد الأشخاص الذين أعرفهم واسمه يونس، وكان صديقًا عزيزًا عليَّ في الثانوية، ثم تفرقنا بعد تخرجنا، ومضت السنون، وشاء اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ أن ألتقي به هنا.

توجهتُ نحوه، وما إن رآني حتى ابتسم، وقال:

ـ ما شاء اللَّه، أبعد كل هذه السنين الطويلة نلتقي مُجدَّدًا ؟!!

تعانقنا بحرارة، وقلتُ له:

ـ رغم انقطاع التواصل بيننا غير أني أسأل عن أخبارك، فما هي أحوالك الآن؟

ـ أنا موجود في البلد معظم أيامي، ولكنك سافرتَ للدراسة، ثم التحقتَ بوظيفتك في العاصمة، وأظنك لا تزور البلد كثيرًا.

ـ هذا صحيح، فمشاغل الوظيفة والأسرة تجعل الواحد منا يعمل وكأنه طاحونة.

ـ أنا أوافقك في هذا، غير أن علينا أن لا ننساق مع التيار؛ فنعيش منهمكين في هذه الحياة.

من مقوِّمات المعلم الناجح التطوير المتواصل لذاته

لمحتُ من كلامه وكأن عنده نمطًا من الحياة يختلف عما هو عند الآخرين، فأردتُ استيضاح ذلك منه، فقلت له:

ـ وما لي أراك اليوم هنا في العاصمة؟

ـ لقد وصلتُ في التوِّ من المطار، فجئتُ لأشتري بعض الهدايا للزوجة والأولاد.

ـ خيرًا إن شاء اللَّه، ومن أين كنتَ قادمًا؟

ـ كنتُ أحضر مؤتمرًا في إحدى الدول الغربية.

ابتسمتُ، وقلتُ له:

ـ ولكن، ما سمعته من بعض زملاء الثانوية أنك توظَّفتَ مُعلِّم رياضيات في المرحلة الثانوية!!

ـ هذا صحيح.

ـ إذن، وما شأنك بالمؤتمرات الدولية؟!!

ابتسم، وقال ممازحًا:

ـ وهل تريدون احتكارها لكم فقط؟!!

ـ العفو، لم أقصد ذلك، ولكن لم أسمع بأن هناك معلِّمًا في المدارس الابتدائية أو المتوسطة أو الثانوية له اهتمامات لحضور المؤتمرات الدولية!!

ـ هذا صحيح، فالغالب هو ما ذكرتَ، ولكن ـ كما قلتُ لك سلفًا ـ لستُ ممن ينساق مع التيار!!

ـ وعن ماذا كان المؤتمر؟

ـ كان يدور حول رفع كفاءة معلم الثانوية في الإرشاد النفسي.

ـ يبدو أني بحاجة إلى جلسة طويلة معك!!

ـ ولماذا لا تزورني في البلد، وسيكون عندنا متَّسع من الوقت لنتعرف على أخبار

بعضنا بعضًا؟

ـ فكرة طيبة، فأنا أخطط لزيارة البلد في الأسبوع القادم بإذن اللّه.

ـ إذن تواصل معي، ولكن شريطة أن يكون غداؤكم أنت وأسرتك عندنا.

ابتسمتُ له ثم قلت:

ـ لا أريد أن أثقل عليك، ويكفي أن أتناول معك فنجان قهوة.

ابتسم وقال:

ـ دع عنك هذا. سأنتظر اتصالك.

ـ بإذن اللّه.

في الأسبوع التالي زرتُ الأستاذ يونس، وتناولنا غداءنا، وبعد الغداء قلتُ له:

ـ لقد أخبرتني عندما التقينا في الأسبوع الماضي بأنك كنتَ قادمًا من مؤتمر في الإرشاد النفسي، والحقيقة أني تعجَّبتُ من ذلك كثيرًا.

ـ وما الغرابة في ذلك؟

ـ إنك معلِّم رياضيات، وكنتُ أحسب أنك تحضر مؤتمرًا في تخصُّصك، ثم اتَّضح لي أن موضوع المؤتمر بعيد جدًّا عن تخصُّصك!!

قال وهو يبتسم:

ـ على العكس من ذلك يا أخي، فإنه في صميم تخصُّصي!!

ـ وكيف ذلك؟!!

ـ صحيح أنني أُدرِّس مادة الرياضيات، ولكن قبل ذلك فأنا مربٍّ، وعلاقتي بطلابي ليست علاقة تلقين، وإنما هي علاقة مربٍّ لأبنائه، ولذا فأنا أحتاج إلى جانب الإرشاد

النفسي لأستطيع التعامل مع الطلاب وظروفهم بكفاية واقتدار!!

- وماذا عن تخصصُك الأصلي، وهو الرياضيات، ألا تحتاج إلى تقويةٍ فيه أيضًا؟

- بلى، وقد وضعتُ لذلك برنامجًا آخر، وأنا- بحمد اللَّه- على تواصلٍ مستمر مع ما يستجد في تخصُّصي، وخصصَّتُ شهرين من الإجازة الصيفية لهذا الغرض، وخلالهما أنتقل بين المؤتمرات والندوات، وأجعل تلك الفترة بمثابة التجديد والتطوير لقدراتي ومعلوماتي!!

- يبدو أنك أنموذج فريدٌ من نوعه!!

- ماذا تعني؟!!

- ما أعرفه أن غالبية المعلمين عندما يتخرجون من الكلية أو الجامعة فإنهم يلتحقون بمجال عملهم، وهو التدريس، ثم نادرًا ما يهتم أحدهم بعد ذلك بتطوير نفسه، حتى ولو كان بقراءة مقال في تخصُّصه!!

- نعم، هذه هي الحقيقة، ولقد أدركتُها حتى قبل تخرجي من الجامعة، فكنتُ مولعًا بالتحدث مع المعلمين، وأجريتُ بعض الدراسات حول ذلك. وقد تبين لي أن أكثر من ٩٠٪ من المعلمين لا يهتمون بجانب التطوير لذواتهم ومداركهم. والفئة القليلة التي تقوم بذلك تقتصر فقط على مشاهدة بعض البرامج العلمية أو حضور بعض الندوات والدورات التي تقيمها الوزارة. وقد آليتُ على نفسي منذ ذلك الحين أن لا أكون مثلهم، ولهذا وضعتُ لنفسي هذا البرنامج، كما ذكرتُه لك!!

- وماذا عن بقية أشهر السنة؟

- نظرًا لارتباطات التدريس فإنه لا يمكنني حضور هذه المؤتمرات والدورات والندوات إلا في النادر، ولذلك جعلتُ أسلوب التطوير والإنماء في هذه الأشهر مرتكزًا على متابعة ما يستجد في مجال التعليم بشكل عام، وتخصُّصي بشكل خاص، من خلال

المجلات العلمية ومواقع الإنترنت المعنية بهذا المجال. وفي بعض الأحيان تسنح لي الفرصة لحضور بعض الندوات والمحاضرات التي تُعقَد- في الغالب- في البلد.

- ولماذا لا تفكر في مواصلة دراستك وحصولك على الماجستير، فقد يتيح لك ذلك فرصًا أكبر من الإنماء والتطوير؟

ابتسم وقال:

- ما كنتُ لأغفل عن ذلك، فقد وضعتُ من ضمن أهدافي الحصول على الماجستير في خلال الخمس السنوات الأولى بعد تخرجي. وبحمد اللَّه حقَّقتُ ذلك منذ عامين. ووضعتُ هدفًا آخر، وهو الحصول على الدكتوراه في غضون عشر سنوات بعد تخرجي، وقد شرعتُ في ذلك بحمد اللَّه، وأحتاج إلى بضع سنين لإنهائها!!

المراحل الدراسية الأولى أحوج ما تكون إلى أصحاب الشهادات العليا

قلتُ له:

- ولماذا لم تفكر في تغيير وظيفتك بعد حصولك على الماجستير؟

ابتسم وقال:

- يا أخي العزيز، أنا لم أشد الرحال للحصول على الماجستير أو الدكتوراه لأنتقل من سلك التدريس، فإن حبي للتدريس قد صار يمتزج بدمي!!

- ولكن بإمكانك الانتقال إلى الجامعة، فإنها أنسب لك.

- ومَن قال بأن الجامعة هي الأنسب لحملة الماجستير والدكتوراه؟!!

- إن مراحل ما قبل الجامعة لا تحتاج إلى شخص عنده مؤهلات علمية عالية!!

- يا أخي، هذه من الطامات الكبرى التي تعاني منها أمتنا!!

ـ ماذا تقصد؟!!

ـ مصيبتنا ـ كأمة إسلامية ـ أننا جعلنا مراحل ما قبل الجامعة لمن ليس عندهم الكفاءات والقدرات العلمية والتربوية، ولذلك ضعف مستوى التعليم عندنا، بل وأستطيع القول بأنه قد تردَّى وانهار؛ لأن الأمر قد أوكل إلى غير أهله!!

ـ إن مناهج التعليم في مراحل ما قبل الجامعة بسيطة جدًّا، ولا يحتاج شرحها إلى متخصِّصين!!

ـ أولًا أنا لا أوافقك هذا الرأي؛ فما هو مكتوب في الكتب الدراسية يفترض أن يكون مجرد رؤوس أقلام تُذكِّر المعلِّم بالمواضيع التي عليه شرحها. وبالنسبة للطالب فهي مجرد تلخيص عام للمواضيع. أما المادة العلمية نفسها فيجب أن يتعمَّق فيها المعلم كثيرًا لكي يستطيع تخريج طلابٍ عندهم من الفهم والدراية في فنون العلم المختلفة ما هو غير حاصلٍ الآن.

ومن ناحية أخرى، فإن مهمة المعلِّم ـ كما أسلفتُ لك ـ ليست مجرد التلقين، وإنما المهمة الكبرى المنوطة به هي التربية. وللأسف الشديد، فقد يستطيع الكثير من المعلمين تغطية المادة العلمية الموجودة في الكتب الدراسية، ولكن غالبيتهم يفتقرون إلى جوانب التربية، فهم لا يستطيعون التعامل مع طلابهم بما يستوجب منهم ذلك، فضلًا عن توجيههم وإرشادهم إلى ما فيه صلاحهم وصلاح أمتهم.

ـ إذن، لو اشترطنا أن يكون كل معلِّم متعمقًا في تخصُّصه، وفي الوقت نفسه هو من المربِّين الناجحين، لما حصلنا إلا على النزر اليسير منهم!!

ـ يا أخي، إنك تنظر إلى واقع أمتنا الحالي، ولا تنظر إلى ما يجب أن يكون. إن معظم البلدان الإسلامية تنفق المليارات في كل عام على ما لا يعود بنفعٍ ظاهر على الأمة، أفلا يجدر بها أن تُخصِّص ولو نسبة بسيطة من ذلك لتخريج الكفاءات التربوية؟!!

ـ أنت محقٌّ في ذلك، وكما يقال فإن أزمة أمتنا ليست أزمة موارد وإنما أزمة قيادات،

فنحن بحاجة إلى مَن يوجه الموارد البشرية والمالية لرفعة شأن الأمة.

ـ وهذا ما دعاني لتغيير النمط السائد في البيئات التعليمية؛ فما إن حصلتُ على الماجستير حتى بدأ زملائي يتساءلون لماذا أنا لا زلتُ باقيًا بينهم، ولماذا لا أنتقل إلى وظيفة إدارية في الوزارة أو لأيِّ جهة أخرى، لأحصل من خلالها على راتبٍ أعلى وحوافز أفضل، وكنتُ أحاول أن أوضح لهم ما سردتُه عليك من مبررات، وكان غالبيتهم يسخر مني ويعتبرني كمن ينفخ في رماد، وكنتُ أقول لهم: إن التغيير والإصلاح لا يكون ـ في البداية ـ بالجيوش والحشود من الدعاة والمصلحين، وإنما يبدأ ـ غالبًا ـ بأفرادٍ قلائل، ثم بتوفيق اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ وجهدهم يبارك سبحانه في تلك الخطوات، فيعم النفع والخير.

انتقاء المعلِّمين الأكفاء من لوازم نجاح التعليم

قلتُ له:

ـ أظن أن وجود مثل هذه العقليات في سلك التدريس يشير إلى وجود خللٍ في آلية الانتقاء للمعلمين.

ابتسم وقال:

ـ ليست هناك ثمة آلية للانتقاء، وإنما كل مَن يتخرج من الكلية أو الجامعة يلتحق بسلك التدريس!!

ـ ولكن هذا لا يمكن أن يحصل، فإن هناك من الطلاب الذين نعرف عنهم قبل تخرجهم من الجامعة أو الكلية بأنهم غير صالحين لا علميًّا ولا سلوكيًّا لممارسة أية مهنة، فكيف بمهنة التعليم؟!!

ـ صدقتَ، وقد شاهدنا طلابًا كنا نعرف انحرافهم الخلقي والفكري في مرحلة الدراسة، وبين يوم وليلة أصبحوا معلمين، وأصبحوا يُربُّون ـ أو بالأصح يفسدون ـ

الأجيال على ما تعوَّدوا عليه من فساد فكري وأخلاقي!!

- لا بُدَّ أن تكون هناك ضوابط ومعايير يجب أخذها في الاعتبار في حالة الرغبة في توظيف أحد هؤلاء الخريجين في سلك التدريس.

- نعم، أنت محقٌّ في ذلك، وليس الأمر في الافتقار إلى الضوابط والمعايير، ولكن في ضعف التخطيط بالنسبة للمعنيين بالأمر؛ فإن مَن يريد التخطيط لبناء الفرد أو المجتمع لا بُدَّ أن يسير وفق ضوابط ومعايير معينة.

معايير انتقاء المعلِّمين الأكفاء

قلت له:

- ومن خلال اطلاعك وتواصلك مع ذوي التخصُّص في المجال التعليمي، ما هي المعايير والضوابط التي تراها الأنسب والأصلح؟

- إن أول أمرٍ يجب وضعه في الاعتبار هو واقع الشخص أثناء دراسته، وللأسف فهناك انطباعٌ سائدٌ لدى كثيرٍ من مسؤولي التعليم مفاده أن كل مَن درس ساعات محددة في تخصُّص ما صار صالحًا لتدريس ذلك التخصُّص. لكن الجميع يعلم أن الكفاءة العلمية ما هي إلا شرطٌ واحدٌ فقط من شروط صلاحية الشخص لوظيفة ما. لذا، فإنه- في نظري- يجب أن يتم أولًا اختيار مَن هم على درجة عالية من الأخلاق والسلوك والجدية والاجتهاد والمثابرة.

إن جانب الأخلاق والسلوك مهم في أية وظيفة، وهو أهم في حقِّ المعلم لأنه قدوة لأبنائه الطلاب، وكيف يتأتى له ذلك إذا كان يقترف من الأخلاق الشائنة والسلوك المستقبح ما يجعله محل سخرية واشمئزاز لدى الطلاب، بدلًا من أن يكون قدوة لهم؟

- أظن أن النقطة التي أشرتَ إليها هنا في غاية الأهمية والخطورة؛ فإقامة أيِّ بناء يتطلب البحث عن الكفاءات والقدرات التي يمكنها أن تُقيم ذلك البناء على أكمل وجه،

وكلما كان البناء على درجات أعلى من الأهمية، كانت الشروط اللازم توافرها في البَنَّائين أكثر صرامة وتفصيلًا. وإذا كان هذا الحال بالنسبة لبناء هيكل جامدٍ، فكيف ببناء نفسٍ بشرية يُعوَّل عليها بناء أمم وحضارات؟

ولكن- رغم موافقتي لما ذكرتَه- غير أني لا أدري كيف يمكن للجنة التقويم أن تتعرف على أحوال هؤلاء الطلاب أثناء دراستهم؟

- إنه يجب أن تكون هناك متابعة لهؤلاء الطلاب أثناء دراستهم؛ فتوجِد وزارة التربية لجانًا دائمة لها في الجامعات والكليات المعنية بتخريج المدرسين، وتستطيع هذه اللجنة التعرُّف على سلوك هؤلاء الطلاب وتصوراتهم ومعتقداتهم من خلال الأنشطة التي يمارسونها، ومن خلال تقويم أساتذتهم لهم.

- إن كثيرًا من الأساتذة في الجامعات لا يهتمون حتى بتقويم الجانب العلمي للطلاب، فكيف بتقويم الجانب السلوكي والفكري والأخلاقي؟!! كذلك، كما هو معلوم في معظم الدول العربية والإسلامية فإن كثيرًا من أساتذة الجامعات يفتقرون حتى إلى الحد الأدنى من الالتزام بالدين والتفقُّه فيه، فكيف يمكنهم أن يقوموا بدور التقويم لغيرهم؟!!

- أما بالنسبة لنقطة الخواء الفكري والروحي عند أساتذة الجامعات فأنا أوافقك عليها، وهي قضية تحتاج أيضًا إلى دراسات عاجلة وجادة من الحكومات ووزارات التعليم العالي. وأما من حيث الاهتمام بالتقويم، فإني أرى جعل ذلك الأمر إلزاميًّا على الأساتذة، وأن يُعتبَر أيُّ إخلال به من جانب الأستاذ إخلالًا بمهنته الأكاديمية.

- ولماذا ترى من المهم أيضًا التركيز على التحصيل العلمي؟

- إن تفوُّق الطالب في دراسته الجامعية سيُعطي مؤشرًا على مدى جديته عندما يُصبح معلِّمًا؛ فالطالب المتفوِّق لديه من سعة الأفق والقدرة على التفكير والإبداع والتطوير ما ليس عند الطلاب الآخرين الذين هم ليسوا على درجة عالية من التفوُّق.

والمعلِّم بحاجة إلى هذه الإمكانيات والقدرات لكي يستطيع تنشئة طلاب لديهم مثل ما عنده من القدرات، وأيضًا لكي يستطيع الوفاء بمهام التدريس بما لديه من أساليب وحِيَل وفنون في عرض المادة العلمية، وفي تشويق الطلاب للمعرفة وتعويدهم على الجدِّ والاجتهاد. والطالب المتفوِّق عنده أيضًا من الطموح والرغبة في التميُّز والنجاح، ما يُعينه على نقل ذلك إلى طلابه عندما يصبح معلِّمًا، وتنشئتهم على المبادئ المهمة التي تخدم عملية البناء الذهني والنفسي لهم.

المقابلة والامتحان التحريري ضروريان لاكتشاف الكوادر القادرة على حمل رسالة التعليم

قلتُ له:

ـ وهل هناك من معايير أخرى؟

ـ يجب أن يخضع المترشِّح للتدريس لمقابلة، بحيث تشمل لجنة المقابلة أناسًا متخصِّصين في المادة التي سيقوم المرشح بتدريسها فيما لو تم قبوله، وأيضًا تشمل متخصِّصين في فنون التدريس ومهارات التطوير الذهني والفكري والسلوكي والعلمي.

ويجب أيضًا أن يتم التحقق من خلال المقابلة على قدرات المرشح في التعامل مع الأنماط المختلفة من الطلاب، ومع المواقف العديدة التي ربما يصادفها أثناء تعامله مع طلابه؛ فالمعلِّم بالنسبة للطالب بمثابة القدوة، وإذا لم نحسن اختيار القدوات التي تربي أجيالنا فلا شكَّ أنه سيكون هناك خللٌ كبير في العملية التربوية، ومن بعدها الحياة العملية بشكل عام. ويجب أيضًا التركيز على مَن كانت عنده من الأساليب والمهارات التي تستطيع أن تتعامل مع هذه الجوانب بكفاءة واقتدار.

ويجب أن لا تتساهل اللجنة في التعمُّق في التعرُّف على شخصية المرشح؛ بحيث يتم اختياره بناءً على توافق بين آراء أعضاء اللجنة.

ـ ألا ترى أنه من الأجدر أيضًا أن يكون هناك امتحان تحريري بالإضافة إلى الامتحان

الشفهي الذي يكون من خلال المقابلة؟

ـ طبعًا، يجب أن يكون هناك امتحان تحريري يختبر المرشح في معظم المواد ذات العلاقة بتخصُّصه، وخاصة المواد التي سيقوم بتدريسها، وهذا أمرٌ ضروري لتلافي الخلل الذي يحصل من تضخيم الدرجات من بعض أساتذة الجامعات والكليات، أو بسبب قدرة بعض الطلاب في الحصول على درجات عالية بوسائل قد تكون غير أخلاقية. وأيضًا، فهذا أمرٌ ضروري لتلافي الفروق في المستوى العلمي الذي عادة ما يكون بين الجامعات والكليات.

وفي نظري إن الامتحان التحريري يجب أن يشمل مسائل تختبر قدرات المرشح في أمور أخرى بعيدة عن المادة العلمية التي سيقوم بتدريسها؛ فيجب أن تكون هناك مثلًا أسئلة تحريرية تطلب من المترشِّح أن يبسط فيها حلولًا لقضايا تربوية أو إدارية أو نفسية ذات صلة بالعلاقة بين المعلِّم والطالب أو بين المعلِّم وزملائه المعلمين؛ بحيث إن لم يكن بمقدور المترشِّح أن يوضح وجهة نظره في هذه القضايا على الورق، فسيكون التعامل معها عندما تحدث على أرض الواقع أصعب.

كذلك، يمكن الاستفادة من الامتحان التحريري في تقويم جانبٍ مهمٍّ من جوانب شخصية المعلِّم، وهو تمكُّنه من اللغة العربية كتابيًّا؛ فهناك ممن يلتحقون بسلك التدريس لا يستطيعون التعبير باللغة العربية الفصحى، وخاصة إن كان تعبيرًا عن مواضيع وقضايا تشمل جوانب الحياة المختلفة.

التقويم المتواصل للمعلِّمين ومنح رُخَص لممارسة مهنة التعليم

قلتُ له:

ـ هذا جيِّد، ولنفترض أنه تم قبول المترشِّح، وأصبح معلِّمًا، فهل يمكن أن يُترَك الأمر هكذا بعد ذلك، بحيث يصبح قبول المرشح في سلك التدريس إجازة له ليبقى في تلك المهنة ما شاء من السنوات؟

ـ يا أخي العزيز، لقد تطرقتَ الآن إلى أمرٍ بالغ الأهمية والخطورة؛ فإن ما يحدث الآن في معظم الدول الإسلامية هو أن يلتحق الشخص بسلك التدريس ثم يبقى في وظيفته إلى أن يتقاعد أو يتوفاه اللّه، ولا يكون هناك ثمة ضوابط ومعايير تحكم صلاحيته للاستمرار في مزاولته للمهنة.

إن ما يحدث لدى الكثير من المعلِّمين هو أنهم قد يكونون صالحين للتدريس في السنوات الأولى من وظيفتهم، لكنهم بعد ذلك ـ وبسبب انشغالاتهم في أمور الحياة الأخرى ـ يفقدون الرغبة في التدريس ويصبحون يمارسونه على أنه روتين وليس رسالة؛ فلا يهتمون بإنماء قدراتهم ومواهبهم أو تجديد معلوماتهم، وإنما يبقون في وظيفتهم يستمرئون ما حصلوا عليه من معلومات أثناء فترة دراستهم في الجامعة أو الكلية.

وهذا الأمر يجب أن لا يُستهان به من المسؤولين في وزارات التربية، ويجب أن يتواصل تقويم المعلِّم بعد تعيينه باستمرار، وأن لا تُجدَّد رخصة مزاولة مهنة التدريس إلا لمن يُثبِت جدارته في ذلك. وأقترح أن تكون هناك مقابلة وامتحان تحريري شبيهان باللذَيْن أُجريا للمرشح قبل قبوله في سلك التدريس، بحيث يتم التحقُّق من خلال المقابلة من مدى رغبة المعلِّم في مهنة التدريس، وقدرته على التطوير والإنجاز، وأيضًا على تقويم أخلاقه وسلوكه من خلال التقارير المدرسية التي عادة ما تقوم بها لجان متخصِّصة في ضمان الجودة، وتخضع لضوابط ومعايير دولية معروفة.

أما بالنسبة للامتحان التحريري فيكون الغرض منه تقويم المعلومات التي عند المعلِّم ومدى مواكبتها لما يستجد في الجانب العلمي والتربوي من تطورات.

ـ ولكن مع انشغال المعلِّمين بالأعباء التي تناط بهم فقد لا يستطيع الواحد منهم تفريغ نفسه لتطوير ذاته من خلال الالتحاق بالدورات أو المشاركة في المؤتمرات أو حتى متابعة ما يَسْتَجِدُّ في تخصُّصه من خلال المجلات والكتب، أفلا يجدر بالقائمين على الشؤون التربوية في وزارات التعليم أن يهتموا بهذا الجانب؟

ـ طبعًا، في كثير من الأحيان عندما يُوكَل الأمر إلى الشخص نفسه، فإن طبيعة النفس

البشرية ضعيفة وتميل إلى الراحة، ولا تريد أن تتحمل أعباءً أكثر. ولكن عندما يكون التطوير المستمر لقدرات ومعلومات المعلِّم من ضمن خطط وزارات التعليم، فإنه سيحصل على دورات تخصُّصية في كل عام، وسيتاح له أيضًا المشاركة في العديد من الدورات والندوات والمؤتمرات مما يعينه على تجديد ما لديه من معلومات. كل هذه الأمور تجعل من المعلِّم شخصية قادرة على الوفاء برسالة التربية والتعليم في آنٍ واحد.

الدعوة إلى الله وإصلاح المجتمع من سمات المعلِّم المتميِّز

قلتُ له:

ـ دعني أسألك أمرًا!!

ـ تفضل.

ـ إذا كان اللَّه قد آتاك مثل هذا الفكر النيِّر والفهم العميق، فلماذا تحتكر هذا الخير لنفسك، وأنت ـ حسبما عرفتُه الآن عنك ـ عندك من القدرات والإمكانيات ما يفتقر إليها غالبية المعلِّمين، بل وغالبية الناس؟!!

ابتسم وقال:

ـ يا أخي العزيز، إن المرء لا يكون على درجة من الصلاح والتقوى حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه، كما جاء في الحديث الشريف. وكيف يمكنني أن أحتكر أمرًا رأيتُ فيه الخير والمنفعة لنفسي؟!!

ـ إذن، كيف توصِل هذا الخير للآخرين؟

ـ إن المعلِّم المُصلح الداعية لا تخونه الأساليب، بل على العكس من ذلك فإنه يقف عاجزًا أمام الوفاء بهذا الجانب لكثرة الفرص التي تتسابق أمام عينيه لخدمة دينه وأمته. وأنا ـ بحمد اللَّه ـ أقوم بهذا الأمر على محاور عدة: المحور الأساسي الذي أُركِّز عليه كثيرًا، وأيضًا أُعوِّل عليه ـ بعد تسديد اللَّه سبحانه وهدايته ـ هو جانب الطلاب، فإني

أحاول- من خلال احتكاكي بهم في الحصص والأنشطة الأخرى التي تقام في المدرسة وخارج المدرسة- أن أغرس في نفوسهم المبادئ والقِيَم التي يمكن- بإذن اللَّه- أن تغيِّر من واقع هذه الأمة.

وأما المحور الثاني فأُركِّزُ فيه على زملائي المعلِّمين، سواءٌ أكانوا في المدرسة التي أعمل بها أم في غيرها من المدارس، حتى وإن كانوا من مناطق أخرى. وأحاول أن أوصِل إليهم رسالة المعلم الصحيحة، والتي تُركِّز على البناء والتربية قبل التلقين، وعلى إنماء القدرات وبناء الشخصيات، وليس بناء التبعية والولاء لمن ليسو أهلًا للاقتداء.

وأما المحور الثالث فإنه يستهدف شرائح المجتمع المختلفة. وأحاول هنا تغيير صورة المعلم في أذهان الناس؛ فإنه قد ارتسمت في أذهان الكثيرين أن المعلِّم شخصٌ يحمل الكتاب بيد والعصا باليد الأخرى، وأنه من الطبقات الوضيعة في المجتمع، نظرًا لقلة علمه وفهمه، ولعزلته عن المجتمع.

- ما شاء اللَّه، هذه أمورٌ لا يقوى على حملها إلا من آتاه اللَّه- سبحانه وتعالى- الجَلَد والصبر والفهم والحكمة.

- الحمد لله رب العالمين، هذا فضل اللَّه يؤتيه من يشاء. وقد صدقتَ يا أخي العزيز في أن هذا الأمر لا يقوى عليه إلا من استمدَّ العون والقوة من اللَّه- سبحانه وتعالى-، وارتبط به برباطٍ وثيقٍ من الإيمان والتقوى.

- ولكن، كيف تستطيع التوفيق بين كل هذه الأمور وبين التزامات التدريس؟ وإن ما أعرفه أن غالبية المعلِّمين يئنُّون من أعباء التدريس المنوطة بهم؛ ويقضون معظم فترة المساء في تحضير الدروس.

- يا أخي العزيز، أولًا هذا ليس صحيحًا، فلو قضى المعلِّم غالبية فترة المساء في تحضير الدروس لتغيَّر حال التعليم عندنا. لكن غالبية المعلِّمين يقضون أوقاتهم في أمورٍ تافهة لا تعود عليهم ولا على طلابهم بالنفع. ثم إن المعلِّم الذي لديه التمكُّن والفهم في

تخصُّصه لن يحتاج إلى تحضير الدروس، وإنما سيحتاج فقط إلى تنويع الأنشطة التي يقدمها لطلابه.

ـ وأسألك عن المحور الأول.

ـ تفضل.

ـ ذكرتَ أنك تحاول الارتباط بطلابك وغرس المبادئ والقِيَم فيهم، سواءٌ أكانوا في المدرسة أم خارجها، فكيف تلتقي بهم خارج المدرسة؟

ـ إن دور المعلم ليس في علاقته بطلابه في الصف الدراسي، وإنما يجب أن يكون أبعد من ذلك؛ فيشمل تواصله معهم من خلال أسرهم، وأيضًا من خلال احتكاكه بهم في المسجد أو المناسبات المختلفة.

ـ وما صيغة التواصل الأسري الذي تقوم به؟

ـ في بداية العام الدراسي أقوم بتسجيل هواتف أولياء الأمور، ثم أتصل بهم واحدًا واحدًا، وأُحدِّد معهم وقتًا مناسبًا لزيارتهم في بيوتهم، وعندما أذهب إليهم أُعرِّفهم بنفسي، ثم أوضح لهم الوسائل التي أعتقد بأنها ضرورية لبناء شخصية الطالب، ومنها التفاعل والتعاون بين البيت والمدرسة.

وتدريجيًّا أبدأ بتوطيد علاقتي بأولياء الأمور من خلال إطْلاعهم على مستوى أبنائهم، وهذا يخدمني كثيرًا في العملية التدريسية من نواحٍ عدة: أولها أن ارتباطي بعلاقة وطيدة مع الأسرة توطِّد أيضًا علاقتي بالطالب نفسه، فيصبح بالنسبة لي وكأنه أحد أبنائي، وأيضًا أُصبح في عينه بمثابة صديق والده، ولذلك أحصل منه على الاحترام والتقدير، مما يجعله يتقبَّل مني ما أريد غرسه في نفسه من قِيَم ومبادئ.

أما الثاني، فإنه يُسهِّل عليَّ الجانب العلمي؛ فإن الأسرة تقوم بدور المتابعة والمساعدة في فهم الدروس وحلِّ الواجبات، وبهذا يتحسَّن مستوى التحصيل العلمي عند الطلاب.

كذلك، هناك من الأنشطة التي تستغرق وقتًا طويلًا لإنجازها، وتحتاج إلى فهم وتوضيح أكثر. ومثل هذه الأنشطة لا أستطيع القيام بها في الصف لضيق الوقت، ولذلك فإني أطلب من الطلاب أن يأخذوها إلى البيت، ويطلبوا من أولياء أمورهم مساعدتهم في إنجازها. وأقوم بالتواصل مع أولياء الأمور لإشعارهم بالأنشطة المطلوب إنجازها.

كل هذه الأمور تعين على توطيد العلاقة بين المعلِّم والأسرة، فتكبر صورته في نظر الأسرة لما يشاهدونه من اهتمامه بأولادهم، ولما يرونه من تحسُّن في التحصيل العلمي لأبنائهم.

ويخدمني هذا أيضًا في جانب آخر وهو القدرة على إشراك الطلاب في الأنشطة التي نقوم بها خارج المدرسة؛ فإن أولياء الأمور ـ في الغالب ـ لا يثقون بإرسال أولادهم إلى رحلات أو معسكرات أو مخيمات أو أية فعاليات أخرى تكون خارج المدرسة، وخاصة إذا كانت في خارج البلدة، أو كانت تستغرق وقتًا طويلًا، وقد تحتاج إلى المبيت خارج البيت. ولكن عندما تعلم الأسرة أن مَن يُشرِف على هذه الأنشطة هو المعلِّم الذي يثقون به وبتعامله معهم، فإنهم لا يعارضون مشاركة أبنائهم في مثل هذه الأنشطة.

ـ ما شاء اللّه، هذه إستراتيجيات وأساليب لا يفطن إليها غالبية المعلِّمين.

ـ هذا صحيح، ولذلك ارتسمت في أذهان الناس الصورة القاتمة عن المدرسة والمعلِّم.

العقبات والتحدِّيات التي يواجهها المعلِّم الناجح

قلتُ له:

ـ وهل تصادفك عقبات؟

ابتسم وقال:

ـ لا يخلو أيُّ عملٍ شريفٍ وطموحٍ من تحديات، والعقبة الكبرى التي أواجهها

ليست مع الطلاب، ولا مع الأسرة، ولا مع المجتمع، ولكن مع زملائي المعلِّمين!!

ـ وكيف ذلك؟

ـ ترى الكثيرين منهم عاجزًا عن تقديم شيءٍ، لا علميًّا ولا تربويًّا، ولذلك فهم ـ في حقيقة الأمر ـ من الفاشلين، ولكنهم لا يريدون الاعتراف بذلك، ولذا تراهم يَسخرون مني ومن الأساليب التي أستخدمها، ويُكيلون لي التهم، وفي بعض الأحيان يُلفِّقون عليَّ ـ زورًا وبهتانًا ـ ما أنا بريءٌ منه؛ فيعتبرون علاقتي بطلابي لأغراضٍ مشينة ـ والعياذ باللَّه ـ، ويعتبرون علاقتي بالأُسَر لمصالح مادية أو اجتماعية، ولذلك ترى هؤلاء عندما تسنح لهم أية فرصة للتجمُّع مع بعضهم البعض لا يذكرون عني وعن أمثالي إلا المثالب، ويتندَّرون بأحوالنا وأساليبنا!!

ـ إن عليكم أن تصبروا، وأن لا تعبؤوا بما يقوله أولئك.

ـ يا أخي العزيز، إن ما يصيبني ويصيب أمثالي من المصلحين والدعاة ليس بغريب؛ فقد واجه أنبياء اللَّه ورسله من التحديات والمعارضات والمكائد من أقوامهم ما يفوق ما نواجهه نحن بكثير، وما علينا إلا أن نَثبُت على مبادئنا ونصبر، ونحتسب ذلك عند اللَّه سبحانه وتعالى.

ـ وهل تواجهون أية عقبات من إدارة المدرسة أو المسؤولين في الوزارة؟

ـ إن جهود بعض الزملاء في تشويه صورتنا لا تقتصر فقط على أحاديثهم وسهراتهم، وإنما يحاولون تسميم عقول الطلاب من خلال التندُّر بنا أمامهم، وتلفيق الشائعات علينا عندهم. وأيضًا كثيرًا ما يتجمهرون عند مدير المدرسة يتشكَّوْن من الأساليب التي نستخدمها، ويدَّعون تقصيرنا في المهام المنوطة بنا، وأيضًا كلما سنحت لهم فرصة للالتقاء بأحد المسؤولين وأولياء الأمور فإنهم لا يتوانون في القيام بالشيء نفسه.

وكم من المرات تم استدعائي من قبل المسؤولين في الوزارة، وطلبوا مني تبريرًا لبعض الأعمال التي أقوم بها، والتي فُسِّرت لهم على أنها لأهداف تخالف سياسات

الوزارة وأنظمتها. ولكن بحمد اللَّه ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ (الطلاق: ٢)، ويكون اللَّه- سبحانه وتعالى- معه؛ فما إن أوضح لهم ما تَشوَّه في أذهانهم من تفسيرات ومبررات مما أقوم به حتى يوافقوني، بل ومنهم مَن يساندني، ويطلب مني أن لا أتوانى في الاستمرار فيما أقوم به، وأيضًا في طلب العون والمساعدة منهم.

- لا شك أن مهنة التدريس من أشرف المهن، والرسالة التي يحملها المعلم هي رسالة الإصلاح التي جاء بها الأنبياء والرسل، وصدق أحمد شوقي عندما قال: كاد المعلم أن يكون رسولا!!

- يا أخي العزيز، إن رسالة الإصلاح ليست منوطة فقط بالمدرسة ولا بالمعلِّمين، وإنما هي رسالة يفترض أن تستهدف جميع الناس بجميع مستوياتهم وتخصُّصاتهم وأعمالهم، ولو تتبعنا حقيقة كل مهنة يقوم بها أفراد المجتمع لوجدنا أنها المهنة الشريفة التي يناط بها همُّ البناء والإصلاح.

ابتسمتُ وقلتُ له:

- لقد سررتُ كثيرًا عندما رأيتُك في الأسبوع الماضي، وأنا الآن في غاية السرور والابتهاج لما عرفتُه عنك، وجزاك اللَّه خيرًا عما أفدتني به من هذا الفهم والتوضيح، وأعتذر لك عن إطالة الحديث معك، ولكنه قد جرَّ بعضه بعضًا.

ابتسم وقال:

- لا عليك يا أخي، فإني أحتسب مثل هذه الأوقات عند اللَّه- سبحانه وتعالى-، وأعتبرها بمثابة الفرص لأداء رسالتي في هذه الحياة. وكم سرتني زيارتك، وسُررتُ أكثر بتفاعلك مع هذا الحديث، وتفهمك لأبعاده، وأسأله- سبحانه وتعالى- أن يجمعني بك في لقاءات أخرى.

ابتسمتُ له وقلتُ:

ـ لقائي بك اليوم قد يحفزني على أن أُكثِر من زياراتي للبلد، وأعتبرها سياحة علمية وفكرية، وخاصة عندما ألتقي بك وبأمثالك.

ـ جزاك اللَّه خيرًا يا أخي الكريم، وجعلني اللَّه عند حسن ظنك بي.

استأذنتُ الأستاذ يونس في الانصراف، وبقيتُ أفكر في هذا الأستاذ الفاضل، وكيف أنه استطاع أن يحقق أمورًا عجز عنها الملايين من أقرانه، وما ذلك إلا بتوفيق اللَّه سبحانه وتعالى.

حوار مع أستاذ الجامعة

كنتُ أحضر مؤتمرًا علميًّا في إحدى الدول الغربية، وكان يجلس بجانبي شابٌّ صغير في العشرينات من عمره، وكنا ننتظر بدء المحاضرة الأولى، وكنتُ أتصفح جدول أعمال المؤتمر والمحاضرات التي ستلقى فيه، ورأيت الشاب يمسك بمجلة علمية وهو منهمك في القراءة، وكانت تلك المجلة هي إحدى المجلات العلمية المـُحكَّمة وواحدة من المجلات المرموقة في علم الاقتصاد.

الاستقامة الحقيقية هي التي تتجسَّد على أرض الواقع

قلتُ لنفسي: ما دام هناك مُتَّسع من الوقت لبدء المحاضرة، فلماذا لا أتحدث مع هذا الشاب؟ وما شجَّعني للحديث معه هو انهماكه في القراءة، رغم أني ألحظ عليه أنه شاب ملتحٍ وكأنه من إحدى الدول الإسلامية.

التفتُ إليه، وقلت له بابتسامة:

ـ يبدو عليك أنك تقرأ بانهماك!

أدار وجهه إليَّ، وقال وهو يبتسم:

ـ أحقًّا؟!!

مددتُ يدي إليه لأصافحه، وعرَّفتُه بنفسي، فردَّ عليَّ:

ـ عماد.

فقلتُ له، وقد لاحظتُ عليه أنه يتكلم الإنجليزية بطلاقة:

ـ من أين يا عماد؟

ـ من باكستان.

فقلتُ لنفسي: ربما إنه ولد وعاش هنا، ولذلك فلغته متقنة جدًّا، فسألته:

ـ أراك تشارك في هذا المؤتمر، فهل أنت طالب أم أستاذ؟

لم يرد عليَّ لا بهذا ولا بذاك، وإنما قال:

ـ إنما حضرتُ لأستفيد من هذا المؤتمر.

ظننتُ أنه لا يريد أن يخبرني بأنه طالب لأن غالبية الحضور من أساتذة الجامعات، فقلتُ له:

ـ وهل ستشارك في هذا المؤتمر بشيءٍ؟

ـ قدَّمتُ ورقة بحثية، وقُبِلتْ، فأتيتُ لتقديمها.

فقلتُ له بتعجُّب:

ـ ولكني لم أر اسمك في قائمة المشاركين!!

ـ بل هو هناك.

بدأتُ أقلب صفحات كتيب جدول أعمال المؤتمر، وبدأتُ أقرأ أسماء المشاركين واحدًا واحدًا، ولم أر أيًّا منها باسم عماد، وإنما كان هناك أحد المشاركين باسم عماد الدين عبد الحكيم، فقلت له:

ـ لقد قلَّبتُ صفحات جدول المؤتمر ولم أر اسمك!!

فأخذ جدول الأعمال الذي بيدي وفتحه على الصفحة الأولى، وأشار إلى اسم عماد الدين عبد الحكيم.

لقد ذُهلتُ جدًّا عندما وضع إصبعه على ذلك الاسم؛ فقد رأيتُ أن اسمه يبدأ بلقب البروفيسور، وهو لقب الأستاذية، ولا يُمنح إلا لمن كان عريقًا في تخصُّصه، وقد أنتج من البحوث والدراسات الشيء الكثير، فتعجبتُ لهذا الأمر، ثم غامرني شك في نفسي أنه ربما قد زوَّر شهاداته، وحصل على هذا اللقب بدون جدارة، ولكن قلتُ لنفسي: وما يدريني، فلعلِّي أظلم هذا الأخ بما أفكر فيه.

التفتُ إليه وأنا أبتسم، وقلتُ:

ـ ما شاء اللَّه، إذن أنت البروفيسور عماد الدين عبد الحكيم؟

هزَّ رأسه بالإيجاب، فتابعتُ:

ـ ولكن يبدو أن لقب الأستاذية لا يتماشى مع سنِّك، فأنت تبدو صغير السن!!

نظر إليَّ نظرة ريبة وتعجُّب، ثم قال:

ـ ولكن يبدو لي أنك شابٌّ مسلم!!

تعجبتُ من هذا الرد؛ فما علاقة ما قلتُه أنا له بموضوع الإسلام؟ ثم قلتُ لنفسي: ربما أحسَّ بأني أشكُّ في نزاهته، ولذلك أراد تذكيري بإحسان الظن بالآخرين، فقلتُ له بتعجُّب:

ـ وما علاقة الإسلام بما قلتُه لك؟!!

فردَّ بنبرة فيها استغراب وتعجُّب أكبر من قبل، وقال:

ـ اعذرني يا أخي، فإني أظنُّك أيضًا أحد أساتذة الاقتصاد؟!!

فقلتُ له، وأنا في حيرة أكبر من قبل:

ـ وأنا كذلك.

ـ أستاذ في الاقتصاد، ورجل يبدو عليه الصلاح والاستقامة، ولا يعي علاقة الإسلام

بما قلتُه؟!!

تحيرتُ أكثر من هذا السؤال، ولم أعرف إجابةً له، فقلتُ له:

- واللَّه يا أخي إنني لم أفهم ما تقصد.

أدار جسمه إليَّ، ثم قال:

- يا أخي، صحيحٌ أني ما زلتُ شابًّا، ولم أتجاوز السابعة والعشرين من عمري، ولكني نشأتُ في بلدٍ مسلم، ومن أبوين مسلِمَيْن علَّماني الاستقامة على دين اللَّه منذ طفولتي، وبقيا يرويان شجرة الإيمان في قلبي إلى يومي هذا، وقد علَّماني أن الاستقامة على دين اللَّه ليست في التمسُّك بالسُّنَن المحمدية في المأكل والمشرب والهيئة فحسب، وإنما في الارتقاء بالفكر ليناطح هامات العلماء وعقول الفلاسفة والمفكرين، ولن يتأتى كل ذلك إلا بالجد والاجتهاد والصبر والمثابرة.

أحسستُ بأني بدأتُ أعي ما يقصده هذا الأستاذ الجليل من معانٍ عظيمة، وفي الوقت نفسه أحسستُ بالخجل من واقعي أنا، فأنا أفوقه سِنًّا بأكثر من عشرين عامًا، وقد حصلتُ على شهادة الدكتوراه منذ أكثر من خمسة عشر عامًا، ولكني إلى اليوم مازلتُ أحمل لقب الأستاذ المساعد الذي حصلتُ عليه بعد تخرجي. كذلك، طوال هذه المدة لم يُنْشَر لي إلا مقالان، ولم أحضر إلا بضعة مؤتمرات. وها هو يجلس بجانبي شابٌّ في السابعة والعشرين من عمره، ويحمل لقب الأستاذية، وأبحاثه لا تكاد تخلو منها مجلة علمية. وما آلمني أكثر أن هيئتي يبدو عليها من الصلاح والوقار أكثر مما هو ظاهر على ذلك الشاب، وبدأتُ أدرك فعلًا أن الصلاح والاستقامة ليس فقط بالتمسُّك بالهيئات ومزاولة بعض الأذكار والأعمال البسيطة، وإنما في تجسيد الاستقامة في حياة الإنسان وواقعه.

البيئات الأكاديمية وما تعانيه من بُعدٍ عن منهج الله

أحسَّ الأستاذ عماد الدين بأني أفكر في أمرٍ، فقال:

ـ ما الأمر؟ هل آذيتك بأسلوبي؟

ـ على العكس يا سيدي، فإنك أوضحتَ لي حقيقةً غائبة عني، وإني أشكر اللَّه أولًا ثم أشكرك على هذه المعلومة الطيبة التي أفدتني بها.

شعر بأني بدأتُ أتجاوب معه، فقال:

ـ إنا نحمد اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ بأن جعلنا من أمة محمدﷺ، ولكن كما أن الألقاب الأكاديمية لا تُنال إلا بجدارة، فينبغي أيضًا أن لا يحظى بالانتساب إلى أمة محمدﷺ إلا مَن كان جديرًا بحمل هذا اللقب.

شعرتُ وكأني أسمع هذه الكلمات من عالمٍ في الشريعة أو العقيدة وليس من عالم في الاقتصاد، فقلتُ له:

ـ كلامك حقٌ يا سيدي، وإن ما أتعجب منه أن يصدر هذا الكلام من أستاذٍ مرموقٍ في علم الاقتصاد.

ـ أنت محقٌ يا أخي فيما تقول، وهذه ظاهرةٌ أدركتُها منذ أن كنتُ طالبًا في الجامعة، فإني ـ حسب ما نشأتُ عليه من فكرٍ وفقهٍ وعقيدةٍ ـ كنتُ أحسب أن الأساتذة الذين سأجدهم في المرحلة الجامعية أفضل حالٍ في الاستقامة على دين اللَّه وتطبيقه في حياتهم من أساتذة الثانوية، ولكني ذُهِلتُ عندما رأيتُ بعضًا منهم لا يعرفون من دينهم إلا القشور، ولا يتمسَّكون إلا بظواهر الأعمال.

ولقد حاولتُ في فتراتٍ أن أتحاور مع بعضهم حول هذا التناقض الفاضح بين واقعهم في تطبيق دينهم وواقعهم في مجال تخصُّصهم، فكان الكثيرون منهم يقولون بأن الأكاديمي يحتاج إلى قضاء ساعاتٍ طوال في التدريس، وبين الكتب والأبحاث، وفي التنقل بين المؤتمرات وورش العمل، وهذا لا يترك له وقتًا للتفقُّه في دينه ولا لممارسة شعائر الدين إلا ما كان فرضًا أو واجبًا.

ولكن الأَمَرَّ من ذلك أن بعضهم كان يقول: لأننا أكاديميون ينبغي أن نعيش كأسرةٍ واحدة، وأن نختلط بغيرنا ونتعامل معهم كأبناء عَلّات، وهذا يجعلنا في وضعٍ محرج من ممارسة شعائر ديننا عندما نكون بينهم. ولقد آلمني هذا الكلام وغيره مما يتشدَّق به أولئك العلمانيون، ولذلك آليتُ على نفسي أن أكون مثالًا يُحتذى في العلم والاستقامة، وأن أجمع بينهما ليرى الآخرون أن تجسيد هذا الأمر على أرض الواقع ليس مستحيلًا على مَن وفقه اللّٰه إليه.

لاحظنا أن فعاليات المؤتمر على وشك البدء، فقال لي البروفيسور:

ـ سنكمل الحديث فيما بعد بإذن اللّٰه.

ـ وهو كذلك.

صعد المقدِّم إلى المنصة، وافتتح المؤتمر، ثم دعا رئيس المؤتمر لإلقاء كلمته، ثم بدأ المشاركون في إلقاء محاضراتهم، وعندما جاء دور البروفيسور عماد الدين لم يسع الحاضرون إلا أن يقوموا جميعهم احترامًا له. وبدأ البروفيسور يلقي كلمته، وافتتحها قائلًا باللغة العربية الفصحى:

ـ بسم اللّٰه الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

ثم حياهم باللغة الإنجليزية بقوله: صباح الخير، وواصل كلمته.

كان الجميع مشدودين لهذه الكلمة، نظرًا لشهرة البروفيسور العالمية، ولأسلوبه الرائع في الإلقاء، ولمحاضرته القيمة ذات المغزى العلمي العميق. كل ذلك جعل الحاضرين يقومون له مرة أخرى بعد انتهاء محاضرته وهم يصفقون.

عاد البروفيسور إلى كرسيه، فقمتُ احترامًا له، وقلتُ له:

ـ لقد كانت محاضرةً رائعة جدًّا.

فردَّ بأدب:

ـ شكرًا لك.

واصلنا الاستماع إلى المحاضرات الأخرى، إلى أن جاء وقت الاستراحة، وكان نصف ساعة قضيناها أنا والبروفيسور في إكمال حديثنا، حيث بادرني قائلًا:

ـ تعْلم يا أخي أني أشعر بالأسى كثيرًا عندما أرى قلة المشاركين من الدول الإسلامية في مثل هذه المؤتمرات، وأتألم أكثر عندما أرى بعض المشاركين من المسلمين ولا تكاد أن تعرف من هيئتهم أنهم مسلمون، فضلًا عن سلوكهم وأقوالهم وأفكارهم.

ـ يا سيدي، لو كان هذا الحال الذي ذكرتَه يقتصر فقط على الأيام التي يقضيها هؤلاء في المؤتمرات لهان الأمر، ولكن غالبيتهم يتصرفون في بلدانهم وجامعاتهم بأسوأ مما قلتَ؛ فقد رأيتُ بعضًا منهم لا تهمه صلاة، ولا يراعي اللّٰه ـ سبحانه وتعالى ـ في مأكل أو مشرب أو ملبس، ومع كل هذا تراه غير مُجدٍّ ولا مخلصٍ في عمله، وإنما يحاول الالتفاف على الأنظمة والقوانين من أجل أن يريح نفسه من عناء التدريس وتبعاته، ولكنه ـ بالمقابل ـ تجده أحرص ما يمكن على مخصَّصاته المالية، ويحسبها بدقة، ويرفع الرسائل بالشكوى إن وجَدَ خطأً يتعلق براتبه أو إجازته أو مسماه، ولكنه إن كُلِّف بأمرٍ فيه مصلحةٌ للطلاب أو القسم الذي يعمل فيه تراه يتملَّص منه ويحاول أن يأتي بالأعذار لإعفائه من تلك المهام.

كان البروفيسور عماد الدين يهزُّ رأسه أثناء حديثي، وكأنه يؤيد ما قلتُ، وبعد أن فرغتُ قال لي:

ـ إنك محقٌّ في كثير مما قلتَ، ولكني أرى أن أمثال هؤلاء الذين ذكرتهم لا يمكن أن يقوموا بتلك الأعمال إلا إن وجدوا البيئة خصبة ومتهيئة لذلك، وأعتقد أن هناك خللًا جوهريًّا في نظام التعليم الجامعي في البلدان الإسلامية؛ فمخرجاتنا ليست بالمستوى الذي عليه مخرجات الجامعات الغربية والشرقية.

وليس السبب لهذه المعضلة- فيما يبدو لي- أمرًا واحدًا، وإنما هو في المقام الأول ثقافة المجتمع بأكمله، بجانب عَوَز النفوس إلى التربية الإيمانية الصحيحة التي تحفِّز المرء- سواءٌ أكان طالبًا أم أستاذًا أم إداريًّا- على الإخلاص والبذل والعطاء. ومن ناحية أخرى، فهي بمثابة الرقيب الحقيقي الذي يرافق المرء أينما سار. وعندما يضعف الإيمان في النفوس تضعف الرقابة، ويضعف الإخلاص، وتحلُّ محله الشهوات والرغبات الشخصية والنزعات البشرية.

إن الـمَخرج- في نظري- من هذه الأزمة أن نهتم بالأجيال التي نخرِّجها من مدارسنا وجامعاتنا؛ فمعظم جامعات المسلمين حاليًا- إلا مَن رحم اللَّه- لا تهتم بالجوانب الإيمانية والفكرية والدعوية في مقرراتها، وخاصة في التخصُّصات العلمية. إن ما نحتاجه هو أن تتغيَّر مناهجنا الدراسية، وتتغير معها أيضًا العقليات التي تقوم بتقديم تلك المناهج للطلاب، وأخيرًا تتغير البنية التحتية لتواكب ما يجري من تغيير في تلك المناهج.

يجب أن تشمل الخطط الدراسية للجامعات- بغض النظر عن نوعية التخصُّص- مقررات لتفقيه الطلاب في دينهم، وتعميق فكر الاعتزاز بهذا الدين في نفوسهم، وتثقيفهم- مهما كان تخصُّصهم العلمي- بالدور الذي عليهم القيام به في الدعوة لهذا الدين وإيصاله للآخرين. كذلك، يجب أن تكون هناك مقررات تقوم بتوضيح ما قام به المسلمون من دور رائد في بناء الحضارة الإنسانية. ولا شك أن مثل هذه المقررات ستحتاج إلى إيجاد البنية الأساسية المناسبة لتفعيلها داخل الجامعات، من مساجد ومصليات ومراكز للدعوة ودُورٍ للنشر وأساتذة على قدر كبيرٍ من الفهم والإخلاص والتفاني لتعميق هذه المبادئ في نفوس أبنائنا وبناتنا.

إن البيئة الجامعية يجب أن تكون مراكز هداية للأساتذة والطلاب والمجتمع بأسره، ومراكز إشعاع للدعوة داخل وخارج الجامعة، بالإضافة إلى كونها منابرَ لتعليم الطلاب فنون تخصُّصاتهم.

وكم كنتُ أرجو أن أرى ولو جامعةً واحدةً في العالم الإسلامي تتبنى هذه الأفكار

على جميع المستويات والأصعدة من رئيسها إلى كادرها الأكاديمي والإداري مرورًا بالطلاب، فهذا جانبٌ من جوانب قصورنا كأمةٍ؛ فكما أننا لا نحمل من همِّها إلا الاسم، فكذلك فإنا لا نحمل من همِّ التعليم ـ سواءٌ أكان الابتدائي أم الثانوي أم الجامعي ـ إلا الشارات والمسميات.

ـ يا أستاذي الجليل، إنك تدرك أن أمةً بهذا الاتساع الجغرافي وبتلك الحشود البشرية ليَصعُب عليها أن تجتمع على ما تقول.

ـ إنني لا أقول بأن يصبح كل أفراد هذه الأمة على ما كان عليه صحابة رسول اللَّهﷺ، وإنما ما أحلم به وأسعى إليه جادًّا هو إيجاد ولو بذرةٍ واحدةٍ لهذا الأمل المنشود، وإني أدرك أنه قد يصعب على جميع الجامعات أن تتجاوب معنا، إلا أنه لا يمنعنا ذلك من أن نبدأ بالمخلصين من أمثالكم.

نكَّستُ رأسي، وقلتُ له:

ـ العفو يا سيدي، فإني كثير الكلام قليل الفعل.

ـ ولكن عندك الإيمان المستقيم والفكر القويم، وهما ما نحتاج إليه في جامعتنا المنشودة.

الشُّحُّ في الموارد المالية لدى جامعات الدول الإسلامية

قلتُ له:

ـ ولكني أرى أن هناك معضلةً أكبر.

ـ وما هي؟

ـ إن إقامة جامعةٍ بالمستوى الذي ذكرتَه ليحتاج إلى بيئة تعليميةٍ وتربويةٍ ثرية، يسعى القائمون عليها لتفريغها مما تعاني منه بقية الجامعات من مصاعب وعقبات، وإيجاد ما تتميز به الجامعات العريقة في الدول الغربية والشرقية من إمكانيات وأساليب، وكل هذا ـ

كما تعلم يا سيدي- يتطلب كوادر مؤهلة وموارد ماليةٍ عظيمة، فأين لكم بذلك؟

رد عليَّ بنبرة ملؤها الأسى والحزن، وكأني قد ضربتُ على الوتر الحساس، فقال:

- يا أخي، إن عالمنا الإسلامي يُعتبر من أكثرِ مناطق العالم ثراءً، سواءٌ في الموارد الطبيعية أو المالية أو حتى البشرية، ولكن للأسف فإن القائمين على تلك الموارد، أو بالأصح المتسلِّطين عليها، لا يريدون أن يُوجِّهوا تلك الموارد لخدمة الشعوب والارتقاء بالأمة، فهم لا يحملون مثل هذا الهمِّ، وهم بالمقابل يستغلون أيَّ موردٍ لمصالحهم الشخصية، وإلا فلو وُجِد التوجُّه السليم والنيات الصادقة لما أعيتنا الموارد.

وأما بالنسبة لظاهرة شح الموارد بالنسبة للجامعات في الدول الإسلامية فأنت محقٌّ فيما قلتَ؛ فهي ظاهرة لا تخفى على أحد، ولذلك نشعر- في بعض الأحيان- بالشفقة على القائمين على تلك الجامعات؛ فهم مكتوفو الأيدي ولا يستطيعون الارتقاء بجامعاتهم لقلة الموارد. ورغم أن الجامعات الأهلية الخاصة يفترض أن تكون أحسن حالًا من الجامعات الحكومية، إلا أن الواقع يقول عكس ذلك؛ فقد اتجهتْ تلك الجامعات إلى استغلال ما تحصل عليه من موارد وعائدات لا لتطوير تعليمها والارتقاء بطلابها وأساتذتها، وإنما لنفخ جيوب أصحابها ومَن يتعاملون معهم من السياسيين والمتنفذين في بلدانهم.

لاحظنا أن فترة الاستراحة قد قاربت على الانقضاء، وبدأ المشاركون العودة إلى مقاعدهم، فأومأ لي البروفيسور بالتوقُّف، ثم همس قائلًا:

- سنُكمِل الحديث لاحقًا.

هززتُ رأسي، وقلتُ له: حسنًا.

واصلنا الاستماع إلى محاضرات الفترة الثانية إلى أن توقف الجميع للغداء، فاستدار إليَّ البروفيسور، وقال:

ـ هيَّا نُعجِّل بالصلاة لنلحق على الغداء.

توضأنا ثم بحثنا عن مكان يقلُّ فيه المارة فصلى بنا الظهر والعصر جماعة، وصلى معنا شخصٌ واحدٌ فقط جاء من إحدى الدول العربية، رغم أنه كان هناك مجموعة من المسلمين في القاعة. بعد الصلاة ذهبنا إلى المطعم، ولما وصلنا خاطبني:

ـ لنحترز ألا نقع في شبهة فيما نأكل.

صمت قليلًا، ثم تابع:

ـ لنأكل فقط الخضار والسمك.

أخذنا طعامنا، وما إن جلسنا في إحدى الطاولات حتى بادرني قائلًا:

ـ والآن نُكمِل حديثنا؛ فلا يزال لدينا أكثر من نصف ساعة.

الدور المنوط بالمرأة في مرحلة التعليم الجامعي

قلتُ له:

ـ أريد أن أسمع رأيك في قضية أخرى، نظرًا لما جمعتَ من إيمانٍ وفقهٍ وعلم.

ـ الحمد لله، هذا من فضل ربي.

ـ ما هي نظرتك إلى الدور الذي يجب على المرأة القيام به في التعليم الجامعي؟

قال وهو يبتسم:

ـ يبدو أن عندك قائمة بالتحدِّيات التي تقف حائلًا أمام نهضة الأمة.

ابتسمتُ ولم أقل شيئًا.

واصل البروفيسور حديثه قائلًا:

ـ أسألُك قبل أن أجيبك: هل رأيتَ متحجِّبة في هذا المؤتمر؟

ـ لا أذكر ذلك.

ـ وكيف يمكننا أن ننهض بأمةٍ ليس لنسائها دورٌ في التعليم؟ إن غالبية النساء المسلمات لا يتعدى تعليمهن المرحلة الجامعية، وقليلٌ منهن من حصلْنَ على الدكتوراه، وغالبيتهن من اللواتي كُنَّ يعشْنَ في بلاد الغرب، أو ممن يعتَبِرْنَ أنفسهن من المتحررات، فلا حجاب ولا عادات ولا تقاليد ولا غير ذلك من أمور الدين وأعراف المجتمعات الإسلامية.

ـ ولكنك تجد يا سيدي أن أعداد الفتيات في التعليم الجامعي في غالبية الدول الإسلامية أكبر من الذكور، فلماذا لا نرى من هذه الجموع نساءً يواصلن تعليمهن، ويصبحن أستاذات في الجامعات المختلفة؟

ـ إني أبحث في هذه القضية منذ سنوات، وقد تناقشتُ مع العديد من الأطراف مثل أولياء الأمور والطالبات أنفسهن وأيضًا مع بعض المسؤولين في الجامعات الحكومية وغير الحكومية، وقد خلصتُ إلى أن تعليم المرأة في بلداننا ليس لغرض كسب المعرفة والارتقاء بالمستوى الثقافي للمجتمع والأمة، وإنما لتحقيق مصالح أخرى. لقد أصبحت الكثير من الجامعات والكليات في الدول الإسلامية مواطن لتفريخ الموضات وابتكار أساليب الرذيلة ونشرها!!

ولا يمكن لطالبٍ أو طالبةٍ أن يتفوَّقا في دراستهما وهما يعيشان عنفوان الشباب في بيئةٍ مهيأة لكل ما هو شائن. لذلك، ترى أن غالبية جموع الطلاب والطالبات الجامعيين يتخرجون بمعدلاتٍ متدنية. كذلك، فَهَمُّ غالبيتهم بعد تخرجهم ـ سواءٌ أكانوا شبابًا أم فتيات ـ الحصول على وظيفة، ثم شراء السيارة وبناء البيت، واقتناء آخر موديلات الهاتف والكماليات الأخرى. كل ذلك يقتل لديهم الرغبة لمواصلة دراساتهم العليا.

ومع مراعاة كثير من الجامعات في الدول الإسلامية للمعايير الدولية فإنها لا تستطيع

توظيف خريجات الجامعة للسلك الأكاديمي إذا لم يحملن شهادة الماجستير أو على الأقل كُنَّ من المتفوقات في دراستهن، ولذلك تختار المرأة لنفسها العمل والحصول على الراتب بدل أن تكِدَّ وتجتهد للحصول على شهادةٍ تعليميةٍ أخرى.

ـ هل تعني بكلامك هذا يا سيدي أن نمنع الفتيات من التعليم الجامعي؟

ـ اعلم يا أخي العزيز أن أمة الإسلام أمة رسالة وهداية، ولا ينبغي لمن كان هذا حالها أن تحكم بالجهل على نصف المجتمع.

إننا أمة دعوة وإصلاح، ولذا يجب أن لا نترك أيَّ فردٍ من أفراد المجتمع إلا وقد تحلى بالعلم ووصل فيه إلى أعلى المراتب. لكن الكلام الذي سقتُه قبل قليل يجعلنا نفكر مَليًّا في أحوالنا، وخاصة فيما يتعلق بالتعليم الجامعي.

إننا في الوقت الذي نريد فيه من الفتاة المسلمة الالتحاق بالجامعة، علينا كذلك أن نُعِينها على التمسُّك بدينها والتحلِّي بالأخلاق والفضائل أينما كانت. ولأن غالبية المسلمين في هذا العصر هم جهلة بدينهم، فإنه يكون من لوازم التعليم الجامعي أن يبث الفضيلة بين الدارسين والعاملين، وأن يحرص على أن يتخرج الشاب والفتاة من الجامعة وهما يحملان أوسمة التميُّز وشهادات التقدير في أمور العقيدة والفقه والدعوة كما يحملان تلك الأوسمة والشهادات في تخصُّصاتهم المختلفة.

ضرورة البدء بمسيرة التغيير في التعليم الجامعي

قلتُ له:

ـ يا سيدي، إني أدرك نُبل ما تقوله، ولكن إذا كانت الجامعات في الدول الإسلامية لا تكترث كثيرًا حتى بالارتقاء بالمستوى التعليمي لأبنائها، فكيف لها أن تهتم بهم في مجال الفضائل والأخلاق والقيم؟! وإذا كان غالبية القائمين على تلك الجامعات هم من العلمانيين، أو ـ على أقل تقدير ـ من غير المكترثين بالدين والقِيَم والفضائل، فكيف لهم أن يُنشِّئوا مثل تلك الأجيال التي تتحدث عنها؟ وإذا كان غالبية الكوادر الإدارية والفنية

في الجامعات هي أيضًا بمنأى عن دينها وقِيَمها، فأنى لهم أن يكونوا قادرين على تبصير طلابهم وتنشئتهم على الفضائل والأخلاق والقِيَم؟!

- إني أشاطرك الرأي في أن ما تتحدث عنه هو الواقع في غالب أرجاء هذه الأمة، ولكني أتحدث عن نهضة جديدة ومسيرة رائدة تقتلع ما ساد في المجتمع من جذور الشر وبؤر الفساد، ثم تعمُد إليه بالإصلاح والتوجيه والإرشاد، ثم تواصل الارتقاء به وبأبنائه في النواحي المختلفة.

ولكون حديثنا ينصَبُّ حول الجامعات والتعليم الجامعي، لذلك قلتُ بأنه يجب إعادة صياغة مناهج التعليم الجامعي في العالم الإسلامي لتكون مركز إشعاعٍ وهداية للقلوب في الوقت الذي تكون فيه مصدر توجيهٍ وإرشادٍ للعقول، وهذا لا يقتصر على إصلاح الطلاب فقط، وإنما يتعدَّى إلى إصلاح كافة الأطراف المرتبطة بالتعليم الجامعي. وإذا كان الأمر لا يتأتى فعله في جميع الجامعات فلا بأس أن نبدأ به في بعضها، وإذا كان أمر التغيير سيستغرق سنين طويلة فلا مفر من أن نبدأ به من الآن. وعلينا ألا نهتم كثيرًا بحصر النتائج بقدر ما نهتم بمقدار الجهد الذي نبذله في هذا الإطار.

- وهل تعتقد أنه سيكون هناك تجاوبٌ، وأنت تعلم الحالة المزرية التي وصلت إليها الجامعات في عالمنا الإسلامي؟

- يا أخي، إن لنا في رسول اللّهﷺ أسوة حسنة؛ فقد جاء إلى مجتمعٍ يخالف تمامًا ما جاء به، واستطاع في بضعةٍ وعشرين عامًا أن يُحوِّله إلى خير أمة أخرجت للناس.

فنحن نعلم يقينًا أن مجتمعاتنا الإسلامية رغم ما فيها من انحرافٍ وابتعادٍ عن منهج اللّه- سبحانه وتعالى- إلا أنها لا تزال في حالٍ أفضل بكثير من حال الجاهلية الأولى، وإن بذور الخير منتشرة في أرجاء المجتمع، وما علينا إلا البحث عن تلك البذرات الطيبة، فنغرسها في الأرض الخصبة، ونرويها بماء الإيمان باللّه والثقة بنصره والاعتزاز بدينه. ومتى بدأت النبتات تبرز على السطح، فلا بُدَّ للآخرين من أن يشاهدوها، وعندئذٍ علينا مواصلة الاهتمام بها ورعايتها، وما إن تبدأ تلك الغرسات المباركة تُزْهِر وتُثْمِر حتى تبدأ

بذرات الخير تنتشر، سواءٌ في أرجاء الجامعات والكليات أم في المجتمع بأسره.

ـ ولكن كما ترى فإن هذا عملٌ بطيءٌ، وقد يحتاج إلى سنين طويلة إلى أن يبدأ ذلك الغرس يؤتي ثماره.

ـ عليك أن توقن حقيقة مهمة، وهي أنه ليس أنا وأنت أول من يتحدث عن هذا الموضوع، ولن نكون أول من يقوم بعمل خير في هذا الجانب، ولكن سبقتنا إلى الخير نفوس طيبة ساقها القدر لحمل لواء هذا الأمة وإعزازها، وقد بدأتْ تلك القلوب المؤمنة والنفوس الطاهرة في غرس بذور الخير في بلدانٍ شتى وأماكن مختلفة، وإنه ما إن نشرع العمل في هذا الجانب حتى نجد أنفسنا وجهًا لوجه مع غرساتٍ نبتت منذ أمَد، وكادت أن تُزْهِر وتُثْمِر، ولن تحتاج منا مثل تلك الغرسات إلا قليل عنايةٍ وتوجيه حتى نراها ـ بإذن اللَّه ـ تؤتي أكلها كلَّ حينٍ بإذن ربها.

ـ واللَّه يا سيدي لو وُجد اليوم في هذه الأمة أفرادٌ قلائل بمثل فكرك وثاقب نظرك وخالص إيمانك لتبدَّل حال الأمة سريعًا.

ـ أستغفر اللَّه. يا أخي لا تقل هذا؛ فإني لا أساوي شيئًا مع الأعداد الكثيرة المنتشرة في بلداننا الإسلامية والتي تحمل هَمَّ هذا الدين، وتعمل ليل نهار لنصرته ورفعة لوائه.

إني أرى أن من أكبر التحدِّيات التي تواجه هذه الأمة البحث عن بذور الخير وغرسات الإيمان التي تنتشر في كل بقعة من هذا العالم، ولكنها مطمورة وتعمل في صمت، وما علينا إلا التعرف عليها، وتوحيد جهودها، وتوجيه أهدافها لتتماشى مع أهداف النهضة المرجوة لهذه الأمة.

ـ يبقى هناك أمرٌ آخر يا سيدي.

ـ وما هو؟

ـ قد يكون إصلاح النفوس والارتقاء بها أمر مقدور عليه، وإن كان ليس بالأمر

الهيِّن، ولكن أنَّى لنا أن نواكب ما وصل إليه الغرب والشرق من علومٍ ودراساتٍ، وما شيَّده من مؤسسات عملاقة ومصانع راقية وحضارةٍ معماريةٍ لا تضاهى، وأنظمةٍ للحياة والتعليم والاقتصاد والسياسة وغيرها نفتقر نحن إلى معظمها؟

ـ أبشر يا أخي فإن ما ذكرتَه، وإن كان يبدو واقعًا في هذا اليوم، إلا أن النهضة المرجوة لهذه الأمة ستكون شاملة بإذن اللَّه، والأمة ـ كما تحدثنا من قبل ـ لا تنقصها الكوادر البشرية ولا الموارد الطبيعية، ولا الإمكانات المالية. وإذا استطعنا توجيه التعليم في بلداننا لينشأ الطفل منذ نعومة أظفاره وهو متحفزٌ للعطاء، جادٌّ في السَّيْر، مستعدٌّ للبذل والتضحية، وفي الوقت نفسه متحلٍّ بالقِيَم والفضائل، ومتمسك بمبادئ الدين، إن استطعنا ذلك فإن حال الأمةِ سيتغير بلا شك بإذن اللَّه.

ـ لقد طُفنا كثيرًا لنتعرف على أدواء هذه الأمة، وتعرَّضنا لبعض سبل العلاج، وسؤالي إليك يا سيدي هو: وماذا علينا فعله الآن؟ إن الجلسة القادمة للمؤتمر على وشك البدء، واليوم سينتهي، وأخاف أن لا تسنح لنا فرصة أخرى للقاء هنا، فماذا تنصحني أن أفعل؟

ـ أصدقك القول يا أخي بأن لقائي بك قد أثلج صدري كثيرًا، وخاصة أني وجدتُ غرسةً قد بدأتْ تُزْهِر وتُثْمِر.

فقلتُ وأنا أنكس رأسي:

ـ أستغفر اللَّه يا سيدي، لا تقل هذا.

ـ هذه ليست مجاملة، وإنما هي حقيقة، فإننا نبحث عن أمثالك، ومتى استطعنا التعرف عليها فعلينا أن لا ندَعَها تبقى مطمورةً بين صخب المجتمع وضجيجه، وإنما علينا أن نبدأ في تفعيلها، وإني سأكون ـ بإذن اللَّه ـ على اتصالٍ دائمٍ بك، وستجمعنا ـ بإذن اللَّه ـ جلساتٍ وجلسات.

ـ وهل من نصيحة أخيرة تقولها لي ولإخواني أساتذة الجامعات؟ وأستأذنك يا سيدي في كتابة هذه النصيحة ونشرها في المجلات الصادرة في بلدنا، وفي وسائل التواصل الاجتماعي.

ـ حسنًا، أقول لك ولأمثالك من أساتذة الجامعات بأنه قد حان الوقت للمراجعة، فليست عزتكم فيما نلتموه من شهادات عالية، ولا فيما حصلتم عليه من مراكز مرموقة، وإنما عزكم وشرفكم ورفعتكم بانتسابكم إلى هذا الدين، والتشرف بحمل لوائه ونشر قِيَمه ومبادئه.

وها أنا أقول لكم جميعًا بأن التعلُّل بأن العمل الأكاديمي يُضيِّع الأوقات ويُفوِّت الفرص، وأنه لا يمكن الجمع بين الدين والعلم، فأقول لكم بأن هذا أمرٌ باطل، وأعذارُ مَن انحطت همته وتعفَّن فكره وخلا قلبه من روائح الإيمان، وما عليكم إلا المبادرة للعودة إلى هذا الدين.

بادروا أولًا لإعادة أنفسكم وأهليكم إلى حوزة هذا الدين، فتمسَّكوا به وعضوا عليه بالنواجذ. وكما أنه لا حياة للأكاديمي إلا بالبحوث والدراسات، كما يقولون، كذلك فلا حياة للأكاديمي المسلم إلا بالقرآن ثم البحوث والدراسات. وإذا كنتم تقضون الساعات الطوال بين طلابكم وبين الكتب والبحوث فاقضوا ساعاتٍ مماثلة بين هؤلاء الطلاب لتوجيههم إلى الخير وحَفْزِ هِمَمِهم إلى الإصلاح، وحاولوا أن ترتقوا بهم إيمانيًّا وعلميًّا وسلوكيًّا، وتعاونوا فيما بينكم أقسامًا وكلياتٍ لوضع مشاريع لنهضة الأمة والارتقاء بها، وحاولوا أن توجهوا دراساتكم وبحوثكم لتخدم هذه الأمة، وعندئذٍ سنجد ـ بإذن اللَّه ـ أن بذور الخير قد بدأت تنتشر، وأن الزهرات اليانعة قد قاربت أن تتفتح، وبإذن اللَّه سيتبدل الحال وتصحو الأمة ويهبَّ أبناؤها لدفع مسيرتها إلى المجد والعلو، وعندئذٍ لن نصبح في مثل هذا المؤتمر غرباء؛ الكل ينظر إلينا وكأننا جئنا من كوكب آخر، وإنما سنصبح أصحاب القيادة والريادة، وسيصبح الآخرون تبعًا لنا في الفكر والعلم والحضارة.

ـ أشكرك يا سيدي على هذه النصيحة الثمينة، وإني أعاهدك أن أكون عند حسن ظنك، وبإذن اللَّه أنا متحفزٌ لأرى الغرسات الطيبة قد بدأت فعلًا تَبْزُغ وتنمو وتُزْهِر وتُثْمِر.

ـ بارك اللَّه فيك يا أخي، وأظن أن الوقت قد حان للجلسة الثالثة.

حوار مع إمام المسجد

كنتُ قادمًا من العاصمة وحضرت صلاة المغرب، فقلت لنفسي: أقف عند أحد المساجد القريبة من الشارع العام، وأصلي المغرب فيه. واصلتُ سيري قليلًا، ثم رأيتُ أحد المساجد الصغيرة، فاتَّجهتُ صوبه، وكان أذان المغرب لم يحن بعد، وعندما أردتُ دخول المسجد شاهدتُ لوحةً معلقةً على الجدار الخارجي للمسجد، فقلتُ أتصفح هذه اللوحة إلى أن يحين أذان المغرب.

عندما قربتُ من اللوحة وبدأتُ أقرأ، أثارني ما وجدتُ فيها؛ فقد كانت ـ رغم صغر حجمها ـ تحتوي على معلومات قيِّمة، بألوانٍ وتنسيقاتٍ جميلة، يستطيع المرء من خلالها الحصول على معلوماتٍ كثيرة تهمه في أمور دينه وحياته.

ورأيتُ إعلاناتٍ لدوراتٍ تعليمية وفعاليات ثقافية، وكان هنالك جدولٌ يوضح تلك الأنشطة والفعاليات التي تقام بعضها في هذا المسجد وبعضها في مقر الفريق الرياضي في القرية نفسها، وكانت هناك أنشطة يومية تقام في المسجد؛ فهناك تلاوة جماعية للقرآن بعد صلاة الفجر، وهناك قراءة من كتاب بعد صلاة العصر، وهناك تفسير آية بعد صلاة المغرب. عجبتُ لأمر هذا المسجد الصغير في الحجم والمزدحم بمثل هذه الأنشطة المفيدة، فقلتُ سأحاول بعد الصلاة ـ بإذن اللَّه ـ التعرُّف على القائمين على هذا المسجد.

دخلتُ المسجد فوجدت شابًّا ملتحيًا في العشرينات من عمره يجلس بجوار المحراب وهو يقرأ القرآن. ما كنتُ أودُّ أن أقطع عليه تلاوته غير أنه رآني قادمًا، وعرف أني لست من أهل تلك القرية فقام وسلم عليَّ، فقلتُ في نفسي: سأسأل هذا الشاب علَّه يدلني على مَن يقوم بتلك الأنشطة، فقلتُ له:

ـ هل أنت من أهل هذه القرية؟

ـ لا.

ـ إذن أنت مسافرٌ مثلي، حضرتكَ الصلاة، فجئتَ إلى هنا؟

ـ لا، أنا إمام المسجد.

ـ ولكنك قلتَ بأنك لست من أهل هذه القرية!

ـ أنا من منطقة تبعد من هنا أكثر من ساعتين.

ـ إذن أنت مقيمٌ هنا؟

ـ نعم، توجد غرفةٌ صغيرة بجانب المسجد أنام فيها.

ـ وهل أنت مُعيَّنٌ من قبل الوزارة؟

ـ نعم.

إمام المسجد المخلص لا يفارقه إلا لضرورة

قلتُ:

ـ ولكن اليوم إجازة نهاية الأسبوع، فلماذا أنت هنا؟

ابتسم ثم قال:

ـ وهل في أداء الصلاة إجازة؟

ـ ما أعلمه أن أئمة المساجد يَؤمُّون الناس في الصلوات خلال أيام الأسبوع، ثم يقضون الإجازة الأسبوعية في بيوتهم، وإن كانت تقام في المسجد صلاة جمعة عادوا ليُصلُّوا الجمعة بالناس، ثم عادوا مرة أخرى إلى بيوتهم.

ـ هذا صحيح، ولكني لا أريد أن أكون مثلهم.

ـ إذن، متى تذهب إلى بلدتك؟

ـ أذهب في فترات مختلفة في أيام الأسبوع؛ ففي بعض الأحيان أذهب مرة واحدة في الأسبوع، وفي أحيانٍ أخرى مرتين، وفي أوقاتٍ غيرها أكثر من ذلك، بحسب الظروف، وأحيانًا أذهب بعد العِشاء وآتي قبل الفجر.

ـ إذن أنت تؤدي جميع الصلوات في هذا المسجد؟

ـ في الغالب نعم، إلا إن كنتُ مسافرًا إلى العاصمة أو إلى منطقة أخرى.

ـ أريد أن أسألك عن أمر.

نظر الشاب إلى الساعة، ورأى أن الوقت قد حان لأذان المغرب، فقال:

ـ لقد حان وقت الآذان الآن، فما رأيُك أن نؤجل الحديث إلى بعد الصلاة؟

ـ وهو كذلك.

أذَّن الشاب لصلاة المغرب، ثم انتظر قليلًا، وبدأ المسجد يزدحم بالمصلين، وخاصةً الأطفال والشباب، فقلتُ في نفسي: يبدو أن هذا المسجد يقصده المسافرون كثيرًا. وبعد أداء الفريضة والسنة الراتبة رأيتُ المصلين لم يبرحوا أماكنهم، وإذا بذلك الشاب يلتفت إليهم، ويخرج ورقةً من جيبه، ويبدأ في تفسير إحدى الآيات.

كان الجميع ـ وخاصةً الأطفال والشباب ـ مشدودين إلى أسلوب هذا الشاب وطريقة إلقائه؛ فهو يجمع بين المعلومة والعبرة والعظة بأسلوب ممتع وواضح. بقي في تفسيره للآية حوالي عشر دقائق، ثم أنهى حديثه ورأيتُ الناس ينصرفون، وبقيتْ مجموعة من الأطفال والشباب وبعض الكبار، تناول كلٌّ منهم مصحفًا، وبدأ يقرأ فيه.

رآني الشاب جالسًا في مكاني، فأتى إليَّ، فقلتُ له:

ـ جزاك اللَّه خيرًا على ما قدمته من تفسيرٍ لتلك الآية.

ـ أشكرك على ذلك، وما رأيك أن نذهب إلى غرفتي ونكمل حديثنا هناك حتى لا نشوِّش على مَن في المسجد؟

استصوبتُ رأيه، فتوجهنا إلى غرفةٍ ملحقةٍ بالمسجد، فإذا بها صغيرةٌ جدًّا، بحدود المترين في ثلاثة أمتار، وبها سريرٌ متواضع وبعض الكتب المركونة بجانب الجدار، فأومأ لي لأجلس على السرير، فجلستُ وجلس بجانبي، ثم قال:

ـ تفضل، أكمل حديثك.

من مهمات إمام المسجد الدعوة إلى اللّٰه وتفقيه الناس في دينهم

قلتُ:

ـ قبل أن أدخل إلى المسجد شدَّت انتباهي لوحةٌ معلقةٌ على الجدار، وجدتُ عليها معلومات قيِّمة، وجدولًا فيه الأنشطة والفعاليات التي تقام في هذا المسجد وفي البلدة، فاستحسنتُ ما كان هناك، وأحببتُ التعرُّف على القائمين على هذا المسجد لأستفيد منهم.

ـ يا أخي الكريم، إني عُيِّنتُ إمامًا لهذا المسجد منذ بضعة أشهر، وعندما قدِمتُ إلى هنا كان لا يحضر صلاة الجماعة إلا بضعة أفراد غالبيتهم من المسافرين، فبدأتُ أتعرف على هذه البلدة، فوجدتُ أن بها عددًا لا بأس به من الشباب والأطفال والرجال والنساء، فقلتُ ربما يؤدون الصلاة في مسجدٍ آخر، فوجدتُ أن هناك مسجدًا آخر في طرف البلدة، ولا يذهب إليه إلا القريبون منه.

بدأتُ أبحث في الأمر، فوجدتُ أن غالبية أهل هذه البلدة يؤدون الصلوات في بيوتهم، وغالبية الشباب والأطفال يأتون من المدرسة أو الملعب، ثم يتوجهون إلى بيوتهم ويؤدون الصلاة فيها، فعقدتُ العزم على تغيير الوضع في هذه البلدة، فبدأتُ أضع بعض البرامج التي قد تثير اهتمام الناس، وتُعرِّفهم بأمور دينهم، فلم أر تجاوبًا يُذكَر، وكان يحضر الدرس أو الخاطرة شخصٌ أو شخصان فقط، فقلتُ في نفسي: إن رفضوا

المجيء إلى المسجد فسأذهب إليهم بنفسي.

بدأتُ أذهب إلى الناس، وأتعرف عليهم، وأدخل إلى بيوتهم، وأجلس معهم، وبحثتُ عن سبب عزوفهم عن المسجد، فوجدتُ أن غالبيتهم يجهل أحكام الدين، ولا يعلم فضل الجماعة، ولا أهمية المسجد والدور الذي يفترض أن يقوم به والرسالة التي يحملها. وكان عند البعض نفورٌ من المسجد بسبب الشخص الذي كان يؤمُّ الناس قبلي في هذا المسجد؛ فكان أسلوبه فظًّا، وكان لا يراعي ظروف الناس، ولا يحاول الاهتمام بشؤونهم أو تعليمهم أمور دينهم، فكان في معظم أوقاته منشغلًا بأمور تجارته، وكثيرًا ما يتغيَّب عن الصلوات. وعلى كل حال، رأيتُ أن الأمر يحتاج إلى إصلاحٍ فوضعتُ لنفسي خطة لتفعيل دور المسجد وإرجاع الناس إليه.

قلتُ له، وأنا أتعجب من حديثه:

ـ يا أخي، يبدو أنك لستَ كبقية أئمة المساجد؛ فما هو معروفٌ عن كثيرٍ منهم أنهم لا يؤدون إلا صلاة الجماعة، ولا يقومون بأنشطة أخرى، ولا يكترثون بمَن يحضر المسجد أو يتغيَّب عنه.

ـ صحيحٌ ما تقول، وقد آلمني كثيرًا عندما بدأتُ الاهتمام بهذا المسجد وتفعيل دوره أني تلقيتُ مكالماتٍ من بعض أئمة المساجد الذين أعرفهم، وكانوا يرون أنْ لا فائدة من الاهتمام بالناس، لأن كل ما سيحصل عليه الإمام من قِبَلهم ـ حسب نظرهم ـ هو فقط الشكاية والسخرية، وكنتُ أُذكِّرهم بأنا لا نفعل ما نفعله من أجل الناس، وإنما لأنه أمانة حمَّلنا المولى إياها، فكانوا يردُّون عليَّ بأني فرد واحد، ولن يكون بمقدوري تغيير شيءٍ في مجتمع ضعف فيه أمر الدين، وكنتُ أقول لهم بأن أمر الاستجابة موكول إلى اللَّه، وكل ما علينا القيام به هو تأدية هذه الأمانة على أكمل وجه.

ـ جزاك اللَّه خيرًا يا أخي على هذا الكلام، فإنها حقًّا أمانة عظمى، وإذا كان أئمة المساجد يريدون التنصُّل من هذه الأمانة ـ وهم قدوة للناس ـ فأيُّ معنى لإمامتهم لهم؟ أهي تأدية ركعاتٍ فقط، أم إنها مسيرة تغييرٍ وإصلاح؟!!

- كما أخبرتك فإني لستُ من أهل هذه البلدة، وأنا في نظر هؤلاء غريبٌ ودخيل، ولكن يشهد اللَّه أني صرتُ الآن كواحدٍ من أبنائهم، بل إنهم- أحيانًا- يقدمونني على أبنائهم، ورغم صغر سني إلا أن الكبار والشباب يأتون إليَّ، ويستشيرونني في أمورهم الخاصة.

- إنك بما تقوم به تُجسِّد أنموذجًا فريدًا لما ينبغي أن يكون عليه الشاب المسلم، وخاصةً الدعاة منهم، ولكن أخبرني عن قائمة الأنشطة التي رأيتُها مذكورة في ذلك الجدول، كيف تستطيع القيام بها بنفسك؟

- إن مَن يحمل همًّا فلا بُدَّ أن يجد الوسيلة التي تُسهِّل عليه وتعينه على إنجازه. صحيح أني أجهد نفسي كثيرًا في البحث عن أفكارٍ جديدة لتحفيز الناس على المشاركة والبذل والعطاء- وخاصةً الشباب والأطفال-، إلا أني أجد متعةً كبيرةً في ذلك، وأشعر بمتعةٍ أكبر عندما أرى تلك الأفكار قد تجسَّدت على أرض الواقع. ولم تأتِ تلك الأنشطة اعتباطًا، وإنما حاولتُ من خلالها علاج قضايا وجوانب قصورٍ عند الناس في هذه البلدة.

من مهمات إمام المسجد الاستفادة من الكوادر المؤهلة لتفعيل دور المسجد

قلتُ:

- ألا يساعدك أحدٌ في إقامة تلك الفعاليات والأنشطة؟

- بالطبع، إنه لا يمكنني تحقيق شيء من ذلك إلا بالاستعانة باللَّه أولًا، ثم بالآخرين- وخاصةً الشباب-، وقد أدركتُ هذا من أول وهلة، ولذا كنتُ أذهب إلى الفريق الرياضي في البلدة وأتعرف على الشباب هناك، وبعد أن بدأتُ الارتباط بعلاقات طيبة مع بعضهم، صرتُ أشاركهم فيما يقومون به، وكنتُ من خلال تلك المشاركات أقوم ببعض النصح والتوجيه، ولكن بطريقة غير مباشرة وغير منفرة، حتى بدؤوا يألفونني، فاستطعتُ اقتراح بعض الأنشطة عليهم، والتي رأيتُها مقبولة عندهم، فرحَّبوا بها. وبدأ الفريق ينشط والفعاليات تكثر، وكنتُ أقوم بدور التوجيه، ثم تدريجيًّا استطعنا نقل بعض تلك الأنشطة

إلى المسجد، وانتقل معها أيضًا المهتمون بها والمنظمون لها.

ـ ما شاء اللَّه، يبدو أن اللَّهـ سبحانه وتعالى ـ قد وهبك فقهًا في التعامل مع الناس وإرشادهم وإصلاحهم.

إمام المسجد مطالبٌ بالتفقُّه في أمور الدين والدعوة

ردَّ بابتسامة:

ـ الحمد لله أولًا وآخرًا. يا أخي: إننا جميعًا نحمل همَّ إصلاح هذه الأمة، وإرشاد أبنائها إلى الخير والصلاح، وعندما يدرك الإنسان هذه الحقيقة فإنهـ بلا شكـ سيحاول جهده الوصول إلى تفاصيلها، وهذا ما كنتُ أفعله؛ إذ كنتُ أُكثِر من القراءة والمطالعة والاستماع إلى المحاضرات والتحاور مع الدعاة والمصلحين، حتى استطعتُ تكوين فكرةٍ لا بأس بها عن الدعوة وأساليبها.

ـ الحقيقة أنني معجبٌ بهذا الأسلوب الفريد الذي تنتهجه، ولو أن أئمة المساجد قاموا بمثل ما تقوم به لاستطعنا أن نؤدي ولو بعض ما يستوجبه علينا ديننا.

ـ هذه مجرد محاولات واجتهادات، وكما ذكرتُ لك فإن ما علينا القيام به هو أن نُجهِد أنفسنا في تبليغ هذه الأمانة، ونترك الباقي على اللَّهـ سبحانه وتعالىـ، فهو الذي بيده الهداية للعباد والسداد للأعمال.

إمام المسجد مطالبٌ باختيار الأساليب والوسائل ذات التأثير الأكبر في نفوس الناس

قلتُ:

ـ صدقتَ، ولكن أخبرني: هل تستعين ببعض الكتيبات والأقراص في دعوتك لهؤلاء الناس؟

ـ إن الداعية لا يستطيع أن يحوي من العلم وأساليب الدعوة ما يضمن به كسب

قلوب الناس، ولذلك لا بُدَّ له من الاستعانة ـ بعد اللَّه سبحانه وتعالى ـ بتجارب الآخرين وعلمهم وفقههم في أمور الدعوة، ولا أنسَب من الكتيبات الصغيرة والمحاضرات المسجلة ـ وخاصة المقاطع القصيرة والمؤثرة ـ. من هنا، ينبغي أن يكون إمام المسجد كريمًا رحيمًا عطوفًا، وعليه أن تكون لديه قائمة طويلة من الكتيبات والمحاضرات والمقاطع، ويمكن الاستعانة ببعض الدعاة والعلماء لانتقاء الأصلح منها والأكثر تأثيرًا في الدعوة.

ـ ولكن، ألا تجد صعوبةً في إهدائها للناس؟

ـ إني لا أقوم بإهداء شيءٍ من ذلك بطريقة مباشرة إلا نادرًا، وخاصةً عندما يسألني شابٌ عن موضوع معين أو كتيب بعينه فإني أقدمه له وأخبره بأنه يمكنه الاحتفاظ به، ولكن في أغلب الأحيان أهدي الكتيبات والأقراص بطريقة غير مباشرة، وذلك برصد بعضها جوائزَ لبعض الأنشطة والفعاليات التي نقوم بها.

ـ ولكن المعروف أنه لا يفوز في الأنشطة والفعاليات والمسابقات إلا ثلة محدودة من الناس، وغالبًا ما يكونون من المتميزين فماذا عن البقية؟

ـ صحيحٌ ما تقول، ومن ناحية فهذا ما يهمنا كدعاة؛ فإننا نهدف إلى انتقاء الأنسب والأقرب إلى التأثير والإصلاح. ولكني أيضًا أضع في الاعتبار أن أُشرِك بعض الآخرين للحصول على تلك الكتيبات والأقراص؛ كأن أوزع مثلًا أرقامًا على الجمهور، وعندما أنادي بأحد الأرقام ويقوم ذلك الشخص أكون قد أعددتُ له سؤالًا بسيطًا، وأنا أدرك أنه سيعرف إجابته، ولكن الغرض أن أهديه كتيبًا أو قرصًا.

من مهمات إمام المسجد الاهتمام بالجانب النسائي

قلتُ:

ـ هذا جيد، ولكن ماذا عن اهتمامكم بالنساء والفتيات؟

- بما أني لستُ من أهل هذه البلدة، فقد كان من الصعب عليَّ في البداية توجيه أنشطتي إليهنَّ، ولكن بعد أن بدأتُ أتعرف على الناس وأكسب ودَّهم، استطعتُ النفاذ إلى جانب النساء ببعض الطرق التي ابتكرتها لمحاولة نقل ما نقوم به من أنشطة وفعاليات إليهنَّ.

فمن الطرق التي استخدمتها أني كنتُ أستعين ببعض الإخوة الذين أرى فيهم الصلاح، ومن خلالهم كنتُ أوجههم لتوجيه أخواتهم أو بناتهم للقيام ببعض الأنشطة البسيطة. أما الطريقة الثانية فهي أننا كنا نطرح بعض الأنشطة العامة وندعو فيها النساء للمشاركة، فمثلًا كنا نطرح مسابقاتٍ ثقافية ونجعل الباب مفتوحًا لمن يريد أن يشارك من النساء والرجال والشباب والفتيات. وعندما كنا نقيم بعض الفعاليات الأخرى كالمحاضرات والمهرجانات الإنشادية وغير ذلك، كنا بالطبع نُشرِك النساء في الحضور.

كل ذلك شجعهنَّ على القيام بأنشطة مماثلة فيما بينهن. وقد استطعتُ متابعة جهودهن من خلال الاستعانة- بعد اللَّه سبحانه وتعالى- بأخواتي اللاتي كُنَّ يَقُمْنَ بأنشطةٍ مماثلة في بلدتنا، فكنت أُحضِرهن إلى بعض الفعاليات وأدعوهن إلى التعرف على الفتيات في هذه البلدة وتوجيههن إلى المشاركة، وتوجيه أنشطتهن لتتماشى مع ما نريد تحقيقه.

التعاون بين أئمة المساجد ضروري لتحقيق أهداف الدعوة

قلتُ:

- جزاك اللَّه خيرًا يا أخي، فإن تنويع مثل هذه الأنشطة والفعاليات لهو من الأهمية بمكان، بحيث يستوعب فئات المجتمع المختلفة، وقد ذكرتَ قبل قليل بأنكم تقومون بأنشطةٍ وفعاليات على مستويات كبيرة كالمهرجانات الإنشادية، فكيف يتسنَّى لكم القيام بمثل هذه الفعاليات، وهي تحتاج إلى جهدٍ ومالٍ كبيرين؟

- كما تعلم فإمكانياتنا المادية محدودة، وهذه البلدة صغيرة من حيث مساحتها وعدد

سكانها، ولذلك بدأتُ أزور القرى المجاورة وأتعرف على ذوي الصلاح والخير فيها، وبدأنا نعمل سويًّا لإنجاز مثل هذه الفعاليات، وكنا نتعاون أيضًا في توفير مستلزماتها المالية والمادية.

وعندما رأى أهل البلدة ما حققناه من نجاحاتٍ في الفعاليات المختلفة التي قمنا بها لم يبخلوا علينا بالمال ولا بالمشاركة، ولذلك تشجَّع الكثير من الشباب والأطفال للمشاركة، وصرتُ أحيانًا أردُّ طلباتهم لإقامة مثل تلك الفعاليات والأنشطة، خوفًا من أن تطغى على الأنشطةِ الأخرى.

- وهل تقومون بأنشطةٍ أخرى خارج البلدة؟

- نعم؛ فمنذ البداية كنتُ أدرك أن الرحلات لها دورٌ مهمٌ في النفوذ إلى القلوب، وكسر الحواجز بين النفوس، فلذلك قمتُ بترتيب بعض الرحلات إلى بعض المناطق الأثرية والسياحية البعيدة، وكنتُ أهتم كثيرًا بالشباب والأطفال، واستطعنا منذ حوالي شهرين ترتيب رحلة للعمرة، وقد كان لها أثرٌ بالغٌ في نفوس الناس، فإن الكثيرين منهم لم يذهبوا إلى العمرة من قبل.

خطبة الجمعة ودور الخطيب في إنجاحها

قلتُ:

- إني أدرك الجهود الكبيرة التي تبذلها في الدعوة إلى اللَّه سبحانه وتعالى، ولكن لماذا لا تنتقل إلى أحد الجوامع الكبيرة فتستطيع التأثير على شرائح أكبر من الناس، وأيضًا ستكون عندك الفرصة للتأثير على الناس من خلال خطبة الجمعة؟

- إن الدعوة إلى اللَّه- كما أخبرتك- لا تهتم كثيرًا بالنتائج؛ فالنتائج نكل أمرها إلى اللَّه- سبحانه وتعالى-، وكل ما يهمنا هو القيام بما افترضه اللَّه علينا على أكمل وجه. ولذلك، لستُ أبالي أن أكون في مدينة كبيرة أو قرية صغيرة، بل ربما تكون القرية الصغيرة أنسب للدعوة، وخاصةً لأئمة المساجد الذين ليس عندهم الكثير من العلم وأساليب

الدعوة، فتكون فرصتهم للارتقاء بأنفسهم أكبر عندما يكونون في مسجدٍ صغيرٍ وبين مجموعةٍ محدودة من الناس.

أما بالنسبة لصلاة الجمعة، فكما تعلم أن هذا المسجد الذي عُيِّنتُ إمامًا فيه لا تقام فيه صلاة الجمعة، ولكن بعض الإخوة- جزاهم اللَّه خيرًا- سَعَوْا لأخطب الجمعة في أحد الجوامع القريبة من هنا.

- إذن فأنت أيضًا خطيب جمعة؟

فقال بتواضع:

- لقد طلبوا مني القيام بذلك فاعتذرت لهم، ولكنهم ألحوا عليَّ، فوافقتهم.

- وهل تجد صعوبة في الإعداد للخطبة أو في إلقائها؟

- أما الإلقاء فبحمد اللَّه قد رزقني اللَّه قدرة على الخطابة الارتجالية. وأما بالنسبة لتحضير الخطبة فإني أجهد نفسي كثيرًا لأقدم للناس ما ينفعهم ويبصرهم بأمور دينهم، ولذلك فإني أقضي وقتًا كبيرًا كل أسبوع للإعداد للخطبة.

تفعيل دور المسجد لتأدية رسالته أمانة في أعناق أئمة المساجد

قلتُ:

- من خلال ما سمعته منك فإنك تقضي معظم وقتك في الدعوة إلى اللَّه والوفاء بمتطلبات هذه الوظيفة، وهي حسبما أعلم راتبها متدنٍّ، فلماذا لا تبحث عن عملٍ آخر إضافي، وأنت لا زلتَ شابًّا صغير السن، وتحتاج إلى الراتب لتوفير مستلزماتك الشخصية وربما مساعدة أهلك؟

- يا أخي الكريم، ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾ (الطلاق: ٢)، ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (الطلاق: ٣)، ولستُ أعتمد على هذه الوظيفة في إعاشتي وإعاشة أهلي بقدر ما أعتمد على اللَّه- سبحانه وتعالى-، ولا أعدُّها وظيفة من الوزارة بقدر ما

هي وظيفة منه سبحانه، فلا يهمني الراتب الذي أستلمه من الوزارة بقدر ما يهمني رضا اللَّه عني.

- إني أبارك لك هذا الفكر النيِّر، وحرصك على طاعة اللَّه- سبحانه وتعالى- والدعوة إلى دينه، وما دعاني إلى فتح هذا الموضوع ما رأيتُه من جمود بعض أئمة المساجد؛ فلا تجد الواحد من هؤلاء يقوم بأيِّ نشاطٍ آخر سوى إمامة الناس في الصلاة، وما إن يفرغ منها حتى ينصرف ليشتغل بأعماله الأخرى، وعندما تسأله عن ذلك يردَّ بأن راتب الوزارة لا يفي باحتياجاته.

- واللَّه، إني أشعر بالشفقة على هؤلاء لتقصيرهم في حق اللَّه وحق عباده. إن الفهم الخاطئ بأن وظيفة إمام المسجد تنحصر في إمامة الناس في الصلاة فقط، لا يعود على الناس بالنفع؛ فهم بحاجةٍ إلى من يبقى بينهم، ويوجههم ويبصرهم بأمور دينهم.

وإذا كنا نعدُّ المسجد حجر الزاوية بالنسبة للمجتمع، وملتقى أفئدة المؤمنين، فإن إمام المسجد يعتبر بمثابة الموجِّه والناصح والقائد لجموع الناس إلى الخير والصلاح، وإذا كان المسجد هو منبر هداية وإصلاح، فلا بُدَّ لإمام المسجد أن يكون له الدور الرائد في ذلك.

- أنت محقٌ فيما قلتَ، ولكن ماذا نفعل وقد ابتلانا اللَّه- سبحانه وتعالى- بأئمة جهلة لا يفقهون من أمور دينهم إلا تلك الركعات التي يؤدونها أمام الناس بتنسُّكٍ وخشوع، وهم يحسبون أنفسهم قدوة في الزهد والورع والتقوى، ولم يعلم أولئك أن تقوى اللَّه- سبحانه وتعالى- هي في تنفيذ ما أمر، والبعد عما نهى عنه وزجر؟

- أعتقد أن أية مسيرة للإصلاح لأيِّ مجتمع من مجتمعات المسلمين وغير المسلمين لا بُدَّ أن تبدأ من المسجد، ولا بُدَّ أن يتم اختيار أئمة المساجد بعناية وإتقان، ليؤدوا رسالتهم كما أمرهم بها المولى- سبحانه وتعالى-، واستوثقهم عليها، وحمَّلهم أمانة تبليغها.

ـ أشكرك أخي الكريم على ما أفَضْتَ به عليَّ من علمٍ ومفاهيم دعوية قيمة وأساليب ناجحة، وإني أعتذر على إضاعة وقتك معي، فأنت صاحب همة، وتحتاج إلى كل دقيقة من وقتك الثمين.

ابتسم وقال:

ـ يا أخي، لقد سُعِدتُ بالحديث معك، وإني أعتبر مثل هذه الجلسات المباركة بمثابة الدورات التحفيزية التي ترفع من معنوياتي، وتُعلي من همتي.

ـ وفقك اللَّه لكل خير، وآجرك اللَّه على ما تقوم به في خدمة هذا الدين، وإني سأصلي العشاء معكم ثم أنصرف، فلا يزال الطريق أمامي طويلًا للوصول إلى بلدتي.

ـ حفظك اللَّه ورعاك، وسأكون على تواصل معك بإذن اللَّه.

ـ بإذن اللَّه.

حان أذان العشاء، فصليتُ العشاء معهم، ثم انصرفت.

حوار مع موظفة

بعد أن صليتُ العشاء خرجتُ لأبحث عن محلٍّ لتخليص بعض معاملات البلدية، وكنتُ أنوي القيام بهذا العمل بعد المغرب لولا انشغالي في تلك الفترة بشيءٍ آخر.

كانت الساعة في ذلك الوقت تقارب التاسعة والنصف مساءً، وكنتُ أعلم أن غالبية المحلات تغلق أبوابها في حدود الساعة التاسعة، لكن قلتُ لنفسي: لا ضير، سأبحث، وإن وجدتُ محلًّا مفتوحًا فعسى أن يكون عندهم بُغيتي.

مررتُ بمحلات عدة لتخليص المعاملات، وكانت جميعها مغلقة. وبعد تجوال في أكثر من شارع وجدت محلًّا مفتوحًا، وعندما دخلتُه وجدتُ امرأة تجلس على طاولة المحاسب، فظننتُ أنها تنتظر أحدًا، فسألتها:

ـ أين الموظف؟

ترك المرأة لبيتها والتحاقها بالعمل جريمة في حقِّ زوجها وأولادها

ردَّت عليَّ بجفاء:

ـ ألم أملأ عينيك؟ أنا الموظفة هنا.

ـ معذرة، فكنتُ أظن أن مَن يعمل في هذا المحل رجل، فإني ما كنتُ أتوقع أن أرى امرأة تعمل بمفردها في محلٍّ في هذه الساعة المتأخرة!!

ردَّت بلهجة خشنة:

ـ هل جئتَ لتعلمني الأخلاق أم لتنجز معاملات؟

ـ أعتذر لك مرة أخرى، فلم آتِ لأصحح لك أخلاقك أو لأعيب عليكِ شيئًا، وإنما جئتُ لإنجاز بعض المعاملات، فإن كان بمقدورك ذلك فهذه هي المعاملات.

بدأت تملأ الأوراق بالآلة الكاتبة، وطلبت مني الجواز وبطاقة الهوية وبعض الصور الفوتوغرافية، فأعطيتُها ما طلَبَت، وجلستُ في كرسي مخصَّصٍ للزبائن، وبعد بضع دقائق قالت لي:

ـ يبدو أن هذه المعاملات ستحتاج إلى وقت طويل، وأنا مضطرة للذهاب إلى البيت، فإن الساعة قد قاربت من العاشرة، وأريد أن أعود إلى أطفالي.

تعجَّبتُ من هذه المرأة وكيف تبقى في محلٍّ بمفردها إلى وقت متأخر من الليل، وأولادها وزوجها ينتظرونها، فرددتُ عليها بفضولية:

ـ لا يضير الأولاد نصف ساعة أخرى ما دُمْتِ غائبة عنهم النهار بأكمله.

نظرت إليَّ بعيون حادة، ثم قالت:

ـ ماذا تقصد؟

ـ أنت تجلسين في هذا المحل بمفردك إلى هذه الساعة المتأخرة من الليل، وأولادك في البيت يتضاغون، يريدون أمَّهم لتعود إليهم فتحْنُو عليهم وتلاعبهم، وزوجك جالس ينتظر قدومك لتُعِدِّي له عَشاءً.

ـ أما أولادي فصحيح أنهم ربما يتضاغون كما قلتَ، وينتظرون مجيئي، وأما زوجي فلا يهمه متى أخرج من البيت ومتى أعود.

العمل الوظيفي للمرأة قد يكون سببًا للخلوة المحرمة مع الرجال

آلمني حال هذه المرأة، فقلتُ لها بشفقة:

ـ اعذريني يا أختاه، ولكن يبدو لي أنك بحاجة إلى مراجعة نفسك، وأن تقيسي وتزِني ما تقومين به بميزان الشرع.

ردَّت بغضب:

ـ وهل رأيتَني أرتكب الموبقات والحرام حتى تُذكِّرني بالشرع؟

ـ أولًا، إن التذكير بالشرع ليس فقط للعصاة والمجرمين، وإنما هو لجميع الناس بمَن فيهم المؤمنون المتقون، فاللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات: ٥٥). وثانيًا، فبالرغم مما شاهدتُه هنا، وما أخبرتِني عنه من أحوال بيتِك، إلا أنكِ لا تعتبرين أن هناك ما يستحق أيَّ تذكير. واعذريني من التدخُّل في خصوصياتك قليلًا، وأقول لكِ بأن أول مخالفة شرعية هي أن تجلسي في مكان ـ سواءٌ في النهار أو في الليل ـ وتختَلِين بالناس.

اشتاطت غضبًا، وقالت:

ـ أنا لا أختلي بالناس لأفعل معهم الفاحشة، وإنما لأساعدهم في إنجاز معاملاتهم!!

ـ هذا صحيح، وأنا لم أتَّهمك بارتكاب الفاحشة. لكن مجرد الخلوة بالناس يعتبر مخالفة شرعية. وزيادة على ذلك، فإنك ستتحدثين مع مَن يأتي إلى هذا المحل، كما تتحدثين معي أنا الآن، وربما يطوف الحديث بخصوصيات القادم أو بخصوصياتك أنت، أو ربما تتحدثون في أمور يدخل الشيطان من خلالها، فيحاول أن يُوقِع بينكما المعاصي والذنوب.

تابعتُ حديثي:

ـ ثم إن إهمالك لبيتك وأولادك وزوجك يعتبر من أكبر المعاصي؛ فأولادك أمانة استأمنك ربك عليها، وزوجك له حقوق عليك ولا بُدَّ من الوفاء بها.

قاطعتني قائلة:

ـ قبل أن أفي له بحقوقه، فعليه أن يُقدِّم لي ولو حقًّا واحدًا!!

ـ أنا لا أعرف عن خصوصيات حياتكم، ولكن ما أعرفه هو أنه إن قصَّر زوجُك في حقوقك فهناك وسائل أخرى تستطيعين من خلالها الحصول على تلك الحقوق. لكن هذا لا يفتح لك الباب لتُهملي حقوقه أو تُقصِّري فيها.

رأيتها تُنكِّس رأسها، وأحسستُ بأنها قد تأثرت قليلًا بكلامي، وأن مشاعرها قد بدأت تتغيَّر، فتابعتُ حديثي معها:

ـ وأريد أن أسألك سؤالًا، إن كنتِ تسمحين لي.

ـ تفضل.

أضرار جلب الخادمات الأجنبيات

قلتُ لها:

ـ أخبرتِـني بأن أولادك في البيت، فمن هناك لرعايتهم؟

ـ إني لم أتركهم لوحدهم، وإنما أحضرتُ لهم خادمة تعتني بهم وترعاهم!!

لم أصدق ما أسمع، فقلتُ:

ـ لا حول ولا قوة إلا باللَّه. إنا لله وإنا إليه راجعون.

ابتسَمَتْ، ونَظَرَتْ إليَّ بريبة، وقالت:

ـ مالي أسمعك تحوقل وتسترجع؟ هل قلتُ شيئًا منكَرًا؟!!

ازداد تعجُّبي من غفلة هذه المرأة، فرددتُ عليها بغضب، وقلتُ بأسلوب ساخر:

ـ لم تقولي شيئًا منكرًا، ولم تفعلي شيئًا مستهجنًا غير أنك أوكلتِ أطفالك الأبرياء إلى جزارٍ يفعل بهم ما يشاء!!

ـ ماذا تقصد؟!!

ـ اعذريني إن قلتُ لك بأني بدأتُ أشكُّ في سلامة عقلك!!

ردَّت بغضب:

ـ لا بأس أن تتهمني بما شئتَ، لكن وضِّح لي ما تقصد.

ـ أيُّ توضيح تريدين؟!! إنك ارتكبتِ في حقِّ أولادك جُرمًا كبيرًا عندما أهملتِ تربيتهم واخترتِ الوظيفة عليهم. وارتكبتِ جُرمًا أعظم عندما أحضرتِ لهم امرأة أجنبية تقوم على رعايتهم. ولا أخالُكِ إلا وقد ارتكبتِ جُرمًا ثالثًا أعظم من هذا وذاك!!

ردَّت وملامح الخوف بادية على محياها:

ـ ماذا تقصد؟!!

ـ وهل هي مسلمة؟!!

قالت بصوتٍ خافتٍ، وكأنها أحسَّت بعِظَم ما اقترفتْ:

ـ لا، بل نصرانية!!

قهقهتُ من ردِّها، وقلتُ بتهكُّم:

ـ ما شاء اللَّه!! إذن، هي خادمة من الطراز الأول!!

قالت لي بحَيْرة:

ـ ماذا تعني؟!!

شعرتُ بأني بحاجة إلى توضيح بعض الأمور لها، فرددتُ عليها بتنهُّد:

ـ يا أختي الفاضلة، عليكِ أن تعلمي أن ديننا الحنيف قد أتى بأحكام لصيانة حقوق الناس، حتى وإن كانوا أطفالًا رُضَّعًا. ولو أن الأم تركت أولادها في البيت دون طعام وشراب حتى هلكوا لاعتُبِرتْ بأنها التي قتلتهم. ونفس الشيء يُقال فيما لو أنها أوكلتْ إلى شخصٍ آخر لإطعامهم السُّم.

ولو أنكِ أحضرتِ لأولادك مَن يضرُّهم بدنيًّا لكان أهون من أن تتركيهم في يدِ مَن قد يضرُّهم فكريًّا وعقديًّا، وهذا يعني أن أطفالك ـ فيما لو لم تتداركي الأمر ـ قد يشبُّوا على دين النصارى وأخلاقهم، وهو ـ والعياذ باللَّه ـ كفيل ليُدخل الإنسان النار، فيخسر الدنيا والآخرة!!

عندما سمعت المرأة كلامي هذا بدأت تبكي، وصرخت بأعلى صوتها:

ـ أرجوك، كفى!!

توقفتُ عن الحديث قليلًا، ثم قلتُ لها:

ـ اعذريني يا أختاه، ما كنتُ أودُّ أن أسوق هذا الكلام لولا أنه هالني ما سمعتُ عن حالة أطفالك، وإني أستسمحك عذرًا إن كنتُ جرحتُ مشاعرك بما قلتُه.

قمتُ من الكرسي، وهممتُ بالخروج من المحل، فقالت لي وهي منكِّسة رأسها:

ـ أرجوك، لا تغادر فهناك أمورٌ أخرى أريد أن أستوضحها منك.

ـ الوقتُ قد أمسى متأخرًا، وأنتِ بحاجة للرجوع إلى بيتك.

ـ أعلم ذلك، ولكن لا يمكنك أن تتركني وأنا على هذه الحال!!

ـ وماذا تريدينَني أن أفعل؟

ـ أريدك أولًا أن توضح لي أكثر عمَّا قلتَه لي عن الخادمات، وأريدك أيضًا أن تدلَّني على المخرج مما أنا واقعة فيه.

ـ لكن هذا الحديث يطول، وأنا لا أريدك أن تتأخري عن بيتِك أكثر.

ـ لا بأس، من فضلك تكلم.

جلستُ على الكرسي مرة أخرى، ثم قلتُ لها:

ـ أولًا: أريد أن أوضح لك أمرًا في غاية الأهمية، وهو أن الإسلام قد أوكل تربية الأطفال إلى الأبوين، وخاصة الأم، واعتبر أيَّ تقصير في القيام بهذه المهمة نوعًا من عقوق الأبوين لأبنائهم.

ثانيًا: لا بأس بأن يستعين الأبوان على تربية أولادهم بآخرين، ولكن بشروط ومنها أن لا يُفضي ذلك إلى إهمال الأبوين لمهمة التربية المنوطة بهما. وأيضًا، أن يكون الشخص المراد الاستعانة به مؤتمنًا في دينه وخلقه.

وأنتِ تلاحظين أن ترك المرأة لبيتها بحجة الرغبة في العمل هو في حقيقته إهمال لمهمة التربية المنوطة بها، حتى وإن برَّرتْ ذلك بمبررات واهية؛ فالإسلام قد أوعز إلى الأب مهمة تحصيل قوت الأسرة.

قاطعتني بسرعة:

ـ وماذا إن أخفق الأب في القيام بهذه المهمة؟!!

ـ تلك قضية أخرى، ولكن ما أريد توضيحه هنا هو دور الأم.

ـ تفضل، واصل.

ـ قلتُ بأن ترك المرأة لبيتها بأيِّ حجة كانت هو في حقيقته تقصير في المهمة المنوطة بها. ولا يمكن اعتبار جلب الخادمة للبيت من باب المساعدة التي ذكرتُها من قبل؛ فإن غالبية الخادمات اللاتي يأتين للعمل في البيوت يُعاب عليهن ما يلي:

أولًا: الكثير منهن غير مسلمات، ولكونهن قد نشأنَ على طقوسٍ دينية معينة، فإنهن عندما يأتين إلى بلدان المسلمين يبقَيْن يمارسْن تلك الطقوس، وفي أحيانٍ كثيرة أمام الأطفال، مما يجعلهم يتعودون على تقليدهن، وقد يشبوا وهم يقومون بتلك الطقوس دون أن يعرفوا حقيقتها.

ثانيًا: الكثير من الخادمات غير المسلمات يحمِلْن من الحقد والكراهية للإسلام والمسلمين ما يجعلهن يحاولن غرس تعاليم دينهن في قلوب الناشئة بأيِّ وسيلة. لذلك، إن كثيرًا منهن يقُمْنَ بتعويد الأطفال الصغار ـ وفي بعض الأحيان إرغامهم ـ على ممارسة طقوس دينهن، وخاصة في غياب الأبوين عن البيت.

ثالثًا: أما بالنسبة للخادمات المسلمات، فإن تطبيقهن للإسلام لا يتعدى ـ في معظم الأحيان ـ كونه عادات وتقاليد نشأن عليها في المجتمعات التي أتيْنَ منها. وهذا يجعلهن غير مؤهلات لتربية الأطفال على مبادئ الإسلام وقِيَمه، ولا تنشئتهم على الأخلاق الفاضلة التي جاء بها ديننا الحنيف.

رابعًا: معظم الخادمات ليس عندهن من العلم والفهم والخبرة ما يجعلهن مؤهلات لتربية الأطفال تربية سليمة. لذلك، إنكِ تسمعين عن الخادمات اللاتي يضربْنَ الأطفال، ويستخدِمْنَ أساليب مشينة في تربيتهم كإرغامهم على أكل أنواع معينة من الطعام تؤدي ـ في أحيانٍ كثيرة ـ إلى تسمُّمهم أو ـ على الأقل ـ إصابتهم بالأمراض المختلفة.

خامسًا: معظم الخادمات يأتين إلى بلداننا وهنَّ لا يتكلمن العربية، ويبدأن في

التحدُّث بالعربية المكسرة في بيوتنا. وضررهن يأتي من جانبين: الأول هو أن أهل البيت ـ في الغالب ـ يصبحون يتكلمون مع الخادمة باللغة المكسرة ظنًّا منهم أن الخادمة ستفهمها أكثر، وهذا يفضي لأن يتعوَّد أهل البيت على هذه اللغة المكسَّرة. أما الثاني فهو أن الخادمة تبدأ في مخاطبة الأطفال الصغار بالكلمات المكسرة التي تتعلمها، فينشؤون وهم لا يعرفون من العربية إلا تلك الكلمات التي يسمعونها من الخادمة.

سادسًا: تقوم بعض الخادمات بالتحرُّش بالأطفال جنسيًّا، وبعضهن يتحرَّشْنَ بالأولاد الكبار، بل وربما برب الأسرة. كل ذلك قد يؤدي إلى فعل الفواحش وهدم البيوت. وفي أحيان كثيرة تأتي الخادمات وعندهن أمراضٌ مُعْدِية، ويقُمْنَ بنشرها بين أفراد الأسرة عن طريق الممارسات الجنسية وملامسة الأطعمة والأشربة التي يُقدِّمنَها لأفراد الأسرة.

سابعًا: تقوم بعض الخادمات ببناء صِلاتٍ وعلاقات مع خادمات في بيوت أخرى، أو مع العمال والخدم الذين يعملون في البيوت والمزارع والمحلات التجارية. ومثل هذه العلاقات تفضي في أحيانٍ كثيرة إلى فعل الفاحشة وارتكاب جرائم قتل وسرقة، ويصبح أهل البيت الذي تعمل فيه الخادمة الضحية في كل ذلك.

هذه بعض الأمور المنتشرة عن الخادمات، والقصص التي تتحدث عنهن وما يقُمْنَ به من جرائم ومنكرات كثيرة ومنتشرة، ولولا خوف الإطالة لسردتُ لكِ بعضًا منها.

تعلُّل الموظفة بالحاجة إلى الراتب غير صحيح أو مبالغٌ فيه

عندما توقفتُ عن الحديث، قالت:

ـ لقد شكَّكتني في الوظيفة حتى جعلتها إحدى الكبائر، ثم سُقتَ لي من أحوال الخادمات حتى جعلتني أشعر وكأني اقترفتُ واحدة من السبع الموبقات، فهل تريدني أن أترك الوظيفة وأطرد الخادمة وأبقى في البيت؟!! وإن فعلتُ ذلك، فمَن يقوم على إعالتي

وإعالة أولادي؟

ابتسمتُ من حديثها، وعجبتُ كيف أنها أُشرِبتْ حبَّ الوظيفة حتى صارت لا تبالي بأطفالها فضلًا عن مبالاتها بزوجها وبيتها. لذا، انتهجتُ طريقًا آخر في التحاور معها، فقلتُ لها:

ـ رغم أني لم أصرِّح بأن الوظيفة هي إحدى الكبائر وأن جلب الخادمة هي كواحدة من السبع الموبقات، غير أنكِ لم تتجاوزي الحق قيد أنملة!!

وإني لأعجب منكِ أن تتركي كل ما سقتُه لك من براهين، ثم تتشبَّثين بحجة واهية؛ وهي أنك لا تجدين مَن يعولك ويعول أولادك!! وأريد أن أسألك بعض الأسئلة، وأرجو أن تجيبي عليها بكل صراحة.

ابتسمت، وقالت بامتعاض:

ـ تفضل، اسأل.

ـ هل يعمل زوجك في أية وظيفة؟

ـ كيف لا وهو مدير لإحدى كبريات شركات النفط!!

ـ وهل لي أن أعرف كم يتقاضى؟

ـ راتبه يفوق الألفي ريال!!

ـ وكم تتقاضينَ أنتِ في عملك هذا؟

تنهدَّت قليلًا ثم قالت بابتسامة:

ـ وهل تسمي ما أتقاضاه راتبًا؟!! بالرغم من أني أعمل في هذا المكتب أكثر من عشر ساعات يوميًّا، غير أني لا أحصل سوى على ثلاثمائة ريال في الشهر!!

ـ وكم راتب الخادمة؟

ـ اشترطوا علينا في المكتب الذي أحضرناها منه أن ندفع لها مائة وخمسين ريالًا شهريًّا، وبرَّروا ذلك بأن الخادمات الفلبينيات أغلى من سواهن من الآسيويات!!

ـ إذن، لا يبقى من راتبك سوى مائة وخمسين ريالًا؟!!

ـ أجل!!

ـ وبعد كل هذا تقولين بأنك تعملين لإعالة نفسك وعيالك، ولتأمين مستقبل أبنائك؟!!

ردَّت بنبرة حادة، وكأنها خافت من أني قد وصلتُ إلى تحليلٍ ضدها:

ـ ماذا تقصد؟!!

ـ أنتِ تزعمين بأنك إن تركتِ الوظيفة فلن يكون هناك من يعولك ويعول أبناءك!!

علَّقت بحدة:

ـ أجل، وهذا صحيح!!

ـ كيف يكون هذا صحيحًا، ولا يبقى من راتبك سوى مائة وخمسين ريالًا، وهي لا تكفي لشراء مستلزماتك الخاصة من ملابس وأحذية وعطورات ومكياج وغير ذلك مما أوقعتنَّ أنفسكن فيه في هذا العصر؟!! وهل ستكفي ما يتبقى من المائة والخمسين ريالًا لمصاريف أطفالك ومصاريف البيت، وأنتِ تعلمين الانفجار الهائل في أسعار السلع والخدمات في هذه الأيام؟!!

ارتبكتْ من هذا التحليل، فردَّت بتلعثم:

ـ وماذا أفعل؟ إني أحاول أن أقتصد في شراء ما أحتاج إليه قدر الإمكان!!

إعالة الزوجة والأولاد من مسؤوليات الزوج

قلتُ لها:

ـ ولا ينفق زوجك على البيت شيئًا؟!!

ازدادت ربكة المرأة، فردَّت بتلعثم أكثر مما قبل:

ـ قلتُ لك بأنه مشغول في حاله ولا يهمه أمر البيت!!

قلتُ لها بصرامة:

ـ أريدك أن تصارحيني: هل ينفق زوجك عليكم شيئًا؟

ردَّت بتلعثم:

ـ أحيانًا!!

ثم خافت أن أحتجَّ بإجابتها، فأردفت قائلة:

ـ ولكن ما ينفقه لا يُعتَبر شيئًا مع مقدار ما نحتاج إليه في البيت.

ـ لا بأس، ولكن أخبريني: هل البيت الذي تسكنون فيه ملكٌ أم مستأجَر؟

ردَّت بسرعة:

ـ بل هو ملك، ولكن ما علاقة هذا بحديثنا؟!!

ـ ومَن قام ببناء البيت؟

قالت بابتسامة، وكأنها لم تدرك المغزى من سؤالي:

ـ لا شك أنه زوجي!!

ـ ومنذ أن تزوجتم، هل سافرتم إلى أيِّ دولة؟

ـ لم يحدث ذلك إلا بضع مرات!!

ـ وهل تخرجون في نُزَه أو رحلات عائلية؟

ـ أحيانًا يأخذ أولاده إلى بعض المنتزهات!!

ـ ولا تخرجين معهم؟!!

قالت بتلعثم:

ـ هو يحب أن يخرج في أوقات غير مناسبة لي!!

ـ وبالطبع، يذهب هو وأولاده وتذهب معهم الخادمة؟!!

ردَّت بتلعثم:

ـ أجل، فهو لا يُطيق الاعتناء بأولاده!!

ابتسمتُ قليلًا فشاهدتني، ولم تفهم ماذا يدور في خاطري، فصرخت في حيرة:

ـ ماذا؟!!

ـ منذ أن بدأتُ حديثي معك وأنتِ تؤكدين لي حاجتك الماسة للوظيفة، وتتذرَّعين بأن زوجك لا يقوم بالإنفاق عليكِ ولا على أطفالك.

قاطعتني قائلة:

ـ وهذا صحيح!!

تابعتُ حديثي، وقلتُ:

ـ وقد تبيَّن لي الآن بأن ما تدَّعينه على زوجك ليس صحيحًا!!

قاطعتني وهي تصرخ في وجهي:

ـ بل هو صحيح، وليس لك الحق أن تُعلِّمني ما هو صحيح!!

ـ نعم، ليس لي الحق في أن أعلمك شيئًا لولا أنكِ طلبتِ مني ذلك، ولكنكِ تخافين من سماع الحق، لأنه لن يكون في جانبك!!

قالت بصوت عالٍ:

ـ إني لا أخاف من شيء!! تفضل أخبرني بما وصلتَ إليه من تحليلات!!

ـ إن راتب زوجكِ يجعله قادرًا على الإنفاق عليكِ وعلى أطفالكِ دون أية مشاكل!!

قاطعتني مرة أخرى، وقالت:

ـ هذا صحيح لو أنه فعلًا ينفق علينا!!

ـ من خلال ما أخبرتِني به فإنه يريد أن ينفق عليكم، وهو فعلًا ينفق عليكم، وبسخاء!!

صرخت في وجهي:

ـ أجل، لا بُدَّ أنك لن تصدق كلامي، وأنك ستنحاز إليه!!

قلتُ لها ببرود:

ـ لو لم أصدق كلامكِ لما وصلتُ إلى هذه التحليلات، فدعيني أكمل.

أحسَّت بشيء من الإحراج، فقالت بأدب:

ـ تفضل.

ـ إن شخصًا بنى لكم بيتًا بعشرات الآلاف من الريالات، وسافر بكم إلى دول عدة، ويخرج بأطفاله باستمرار في رحلات عائلية لا بُدَّ أن يكون مهتمًّا ببيته، ولا بُدَّ أنه ينفق

على بيته وأطفاله!!

ابتسمت وردَّت عليَّ بتهكم قائلة:

ـ إذا كان القاضي رجلًا فلا بُدَّ أن ينحاز للرجال!!

قلتُ لها بشدة:

ـ اسمعي يا امرأة: إني لستُ قاضيًا، ولا يهمني أن أنحاز إليكِ أو إلى زوجك بقدر ما يهمني أن أكون مع الحق. وإني أعلم الآن لماذا تتهمين زوجك بكل ما ذكرتِه عنه!!

قاطعتني وهي تصرخ:

ـ إني لم أتهمه بشيء، ولكنها الحقيقة!!

قلتُ لها بصوتٍ فيه حدة:

ـ الحقيقة هي أن زوجك قد فتح الدنيا لكِ ولأولادك، فلما رأيتِ بهرجها وزينتها تعلقتِ بها، وأصابكِ الكِبْر والغرور، فلم تقنعي بوضعِك كأم ومربية لأطفالك، وإنما أردتِ مسايرة المترفين في حياتهم، فجلبتِ الخادمة إلى بيتك لتحمل عنك همَّ البيت وهمَّ تربية أولادك. وعندما قامت هي بكل شؤون البيت والأطفال، لم تَجِدي لنفسك ما تسلِّين به، فجاءتكِ فكرة الوظيفة. وعندما عارض زوجك هذه الفكرة، بدأ الخلاف يدبُّ بينكما، ولم ترغبي ـ بل لم تجرئي ـ أن تتركي الوظيفة لأنها تعني استسلامكِ لرغبة زوجك!!

ـ قل ما شئتَ، ولكن أرجوك أن تتركني وتخرج من المحل!!

ـ نعم، سأخرج حالًا، ولكن أريد فقط تذكيرك بأن ما تفعلينه في حقيقته أمرٌ لا يرضاه اللَّه، وأن عليكِ أن تتوبي إليه، وتعودي إلى بيتِك وزوجِك، وأن تَدَعي حبائل الشيطان، فإنه لن ينفك عنكِ حتى يُفرِّق بينكِ وبين زوجِك، وعندها ستخسرين كل شيء: زوجك

وأطفالك والوظيفة!!

بدا وكأن كلامي قد أثَّر عليها، فصمتَتْ قليلًا، ثم تكلَّمت بنبرة فيها من الندم والحزن ما فيها، فقالت وهي منكِّسة رأسها:

ـ أظن أن كثيرًا مما قلتَه صحيح، وإني أعترف بأن الشيطان قد ساقني إلى فعل هذه الأمور حتى بلغ بي الحال ما ترى. أسألك أن تستغفر اللَّه لي!!

قلتُ لها، وقد رقَّ قلبي لحالها:

ـ سأفعل بإذن اللَّه، ولكن استغفاري لك لن يجديكِ شيئًا ما لم تتوبي إلى اللَّه وتؤوبي إليه، وتُقلعي عمَّا تقومين به من أعمال مخالفة لشرعه!!

ردَّت بصوت يوحي بالتأثر:

ـ وهل تعتقد أن اللَّه سيغفر لي إن تركتُ الوظيفة وعدتُ إلى بيتي؟!!

ـ إن باب التوبة مفتوح ولا يُوصَد أمامه أحد، وإنَّ تركَكِ للوظيفة ورجوعَكِ إلى بيتك وزوجكِ وأطفالكِ قد يكون الخطوة الأولى لتحسين علاقتك بربك!!

ـ وماذا عليَّ القيام به غير ذلك؟

ـ لا بُدَّ أنك ستحتاجين إلى فترة لتعود علاقتك بزوجك كما كانت، وإن مما سيُعجِّل بذلك أن تتفاني في خدمته وفي العناية بالبيت وتربية الأطفال. كذلك، إن عليك أن تقومي بتبصير غيرك من النساء اللاتي غرَّر بهنَّ الشيطان وأعوانه حتى خرجْنَ من بيوتهن، والتحقْنَ بوظائف بحُجَج واهية، وتركْنَ بيوتهن وأزواجهن وأطفالهن تحت رحمة الخادمات ـ أو بالأصح عذابهن ـ!!

رأيتُ المرأة تمسح بعض الدمعات المنحدرة من عينيها، ثم قالت:

ـ لا أدري هل أستطيع القيام بكل ذلك قبل أن يأتيني الموت، فإني ـ بلا شك ـ قد ضيَّعتُ قسطًا كبيرًا من حياتي فيما كنتُ أحسبُ أن فيه سعادتي. أسأل اللَّه أن يعينني على ذلك.

شعرتُ بأنه لا داعي للبقاء أكثر، فقلتُ لها:

ـ آمين. أسأل اللَّه الهداية لنا جميعًا، وأرجوكِ أن تسامحيني على تدخُّلي في شؤونك الخاصة، وعلى القسوة عليكِ في الحديث، وإذا اردتِ مساعدة فإن هاتفي موجود في أوراق المعاملة التي أعطيتكِ إياها.

ابتسمت وهي تمسح دموعها، ثم قالت:

ـ بإذن اللَّه.

خرجتُ من المحل والسعادة تملأُ جوانحي لما وفقني اللَّه إليه من تبصير هذه الأخت مما ساقها الشيطان إلى فعله وزيَّنه إليها، وبقيتُ في طريقي إلى البيت أستغفر اللَّه لها، وأدعوه أن يُثبِّتها، ويُعيد السعادة إلى بيتها.

حوار مع
رجل الإعلام

الحوار الأول: دور الإعلام الفاسد في تحطيم ثوابت الدين ورموز الأمة

عندما كنتُ أمشي في أحد الشواطئ المعروفة في البلدة التقيتُ بأحد زملاء دراستي القدامى، والذي يعمل صحفيًّا في إحدى الجرائد الحكومية.

عندما رآني سلَّم عليَّ، ثم قال:

ـ ما أحلى هذه المفاجآت!

رددتُ عليه السلام، ثم قلتُ:

ـ حقًّا إنها لمفاجئة طيبة. كيف أحوالك يا إبراهيم؟

ـ الحمد لله أنا بخير، وكيف أحوالك أنت؟ إننا لم نلتقِ منذ سنوات!!

ـ وماذا أفعل وقد شغلتك الوظيفة عن زملائك وأحبابك!!

ـ صحيح يا أخي، فقد استعبدتنا الوظائف فأصبح الواحد منا لا يجد متنفسًا حتى للجلوس مع أهله، ولكني أتابع أخبارك أولًا بأول، وخاصة ما تنشره على الإنترنت من مقالات.

إيصال كلمة الحق إلى الناس من مهمات الإعلامي النزيه

قلتُ له:

ـ أشكرك على اهتمامك، والحقيقة أننا متطفِّلون على موائدكم؛ فمَن يكتبون على الإنترنت هم ـ في الغالب ـ ليسوا بصحفيين، وإنما أثارتهم الظروف والأحوال للكتابة.

ـ إن ما تكتبه هو بحق رائعٌ جدًّا، ولكن لماذا لا تكتب معنا في الجريدة؟

ابتسمتُ، ثم قلتُ له:

ـ وهل ترضى جريدكتم أن تنشر مثل تلك المقالات؟!!

تبسَّم وقال:

ـ الحقيقة أن مثل تلك المقالات لن ترى النور لا في جريدتنا ولا في غيرها من الجرائد، سواءٌ أكانت حكومية أم أهلية!!

ـ هذا ما يدفعنا للكتابة على مواقع الإنترنت، فإنك تعلم أنه لا بُدَّ من إيصال رأينا إلى الناس حول ما يستجدُّ في العالم من قضايا، وليست هناك قنوات إعلامية يمكن أن تغطي هذا الجانب!!

تفاهات الإعلام المعاصر

قال:

ـ صدقتَ يا أخي، واللَّه إني لأشعر بالشفقة على نفسي عندما يُطلَب مني تغطية فعالياتٍ هي أتفه ما يكون؛ فطلبٌ لمقابلة المزارع الفلاني حول حجم ثمار الطماطم التي أنتجها هذا العام، وطلب لتغطية حفلٍ في إحدى روضات الأطفال لتوزيع البالونات على الطلاب المتفوقين، وحفلٌ لتغطية أسعار المواشي والأبقار أيام الأعياد!!

ـ ولماذا تبقى هناك؟ إن ما أعرفه عنك أن لديك أسلوبًا رائعًا في الكتابة، وأيضًا في الحوارات الإعلامية، فلماذا لا تنتقل إلى مكان آخر؟

ـ وأين أذهب؟ إن الكثير من وسائل الإعلام قد أصبح همُّها تمجيد الحكام، وتغطية ما يقومون به من تفاهات، ومحاولة تضليل الرأي العام حول القضايا التي تتعلق بالمسلمين!!

ـ اعذرني يا أخي إن قلتُ لك بأنكم مسؤولون أمام اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ عن كل ما تكتبونه وما تقولونه، وأنت تدرك خطورة الإعلام في هذا الزمان؛ فهو يُشكِّل عقليات الناس وأفكارهم ومعتقداتهم وتصوراتهم!!

دور الإعلام في هدم القِيَم والمبادئ

قال: هذا صحيح، فالإعلام المعاصر يلعب على الحبلين كما يقال؛ فهو من جانب ينقض كل الثوابت والقِيَم والمبادئ والعادات التي هي من أصول الدين، فيصفها بالبائدة والمتخلفة وغير المواكبة لتطورات العصر، وفي الوقت نفسه يُروِّج الأفكار الهدامة التي تُغيِّر معتقدات الناس ونظرتهم إلى الدين والقِيَم والأخلاق، وتُشكِّل علاقات الناس بغيرهم من الأجناس. كذلك، تجد أن مَن يُفترض أن يوصموا بأنهم أعداء يُروَّج لهم على أنهم أهل الحضارة والتقدم والحرية وحملة النور والهداية للعالم، ومَن هم ـ في الأصل ـ أصحاب الحق وأهل الإيمان يوصمون بالإرهاب والتطرف!! إنها لمفارقاتٌ عجيبة!!

ـ إن الرسالة التي يحملها الإعلام المعاصر لا تقف عند حدِّ ما ذكرتَ، وإنما تحاول تركيع العالم بأسره لتحقيق مآربهم وفق خُطط أعدُّوها مسبقًا.

ـ هل تعرف يا أخي العزيز أني أشعر بأني بالخوف وعدم الأمان لا في نفسي ولا في أهلي!!

ابتسمتُ وقلتُ:

ـ وهل تخاف أن يأتي أحدهم فيغتالك أو يغتال أحدًا من أهلك؟!!

ـ إن الأمر ليس كما فهمتَ، وإنما هو أخطر من ذلك!!

قلتُ له متعجِّبًا:

ـ خيرًا إن شاء اللَّه. أوضح لي.

ـ تعلم أني أقضي الساعات الطويلة في الوظيفة، وبيتي مهجور؛ الأم منشغلة بتنظيف المنزل والملابس وإعداد الطعام، وعندما تحتاج إلى راحة فإنها تتوجه إلى التلفاز فتستقي منه ما يُسمِّم أفكارها، وعندما يعود أطفالي لا يتوجَّهون إلى المسجد فيمسكون بالمصحف يحفظونه ويرتلونه، ولكنهم يجلسون أمام التلفاز فيقوم بفعله في غسل أدمغتهم البريئة، وعندما أعود أنا إلى البيت أعود منهكًا، وليس لي من حولٍ ولا قوة في توجيه أطفالي أو مساعدتهم في دراستهم، ولا أقوى حتى للحديث مع زوجي، وكل ما نفعله هو أن نلتقي أمام التلفاز، ويُقدَّم الطعام، وكل واحد منا سارح بفكره، مشدود إلى الفيلم أو البرنامج الذي نشاهده، والذي يهدم أكثر مما يبني، وماذا عسى أن يكون حالنا كأُسْرة ونحن كما وصفتُ لك؟!! هل فهمتَ قصدي؟

ـ يا أخي، إن ما ذكرتَ ليست مشكلة تعاني منها أنت فقط، وإنما هي مشكلة غالبية المجتمعات الإسلامية، بل والعالم بأسره. لقد أصبح اليوم مَن يتولى تحديد أهدافنا وصنع قراراتنا ليس الدين ولا المبادئ والقِيَم، وإنما هو الإعلام، وليته يكون إعلامًا عادلًا ومنصفًا، وإنما هو إعلام جائرٌ بكل المعايير!!

ـ إني أشعر بالإحباط من جانبين؛ فأنا ـ كأيِّ إنسان يعيش على هذه الأرض ـ مُعَرَّضٌ لسخط هذا الإعلام وإرهابه، وأيضًا مُعَرَّضٌ لسخط اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ لعدم قيامي بمهمتي في هذه الحياة!!

ـ إن حالك يا أخي أفضل من حال غالبية الناس؛ فعلى الأقل أنت مدرك لما يدور في هذا العالم، وأيضًا عندك من الحسِّ والفهم والأخلاق ما يجعلك تسعى إلى الإصلاح والتغيير.

ـ ولكنك تعلم بأننا لو تقصَّينا جوانب الحياة المختلفة في هذا الزمان لوجدنا أنه لا يخلو جانبٌ منها إلا وقد غزاه الإعلام بمخططاته وبرامجه، واستطاع أن يؤثر في الشرائح المستهدفة دون أيما عراقيل أو عقبات!!

دور المسلم في التصدِّي للإعلام الفاسد

قلتُ:

ـ هذا صحيح، ولكن علينا نحن المسلمين المدركين لحقيقة رسالتنا أن لا نستسلم لواقعنا، وأن لا نيأس من أحوالنا، وإنما علينا أن نجِدَّ ونجتهد في كل ما يسعنا فعله.

ـ ولكن هناك من القضايا الخطيرة التي ليس عندي ولا عند الكثيرين من أصحاب التوجُّه الخيِّر من الإعلاميين ما يمكن أن يعالجوها به، فما عسى أن يكون موقفنا في مقابل ما يقوم به الإعلام المضاد؟!!

ـ كل ما علينا نحن المسلمين القيام به أن نُعِدَّ العُدَّة ونأخذ بالأسباب، ثم نَكِل الأمور إلى اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ، وهو سبحانه قادرٌ على أن يبارك في الجهود القليلة فتنتج ثمارًا عظيمة بإذن اللَّه.

وما أريد تنبيهك إليه هو أن المسؤولية الملقاة على عاتقنا جميعًا، وعلى الإعلاميين بشكل أخص، تدور في الأساس حول الإعداد والتهيئة، والإعداد يكون على أصعدة مختلفة ومراحل متعددة؛ فيجب على الإعلامي أولًا أن يُعِدَّ نفسه بالتمسُّك بمبادئ هذا الدين وقِيَمه، ثم التفقُّه في أمور الدين، لكي لا يُسيء إلى الإسلام من غير أن يشعر، فإن اللَّه لا يمكن أن يُعبَد على جهل.

بعد ذلك، على الإعلامي أن يُوجِد القاعدة الصلبة من ذوي الشأن والتأثير في المجتمع، والذين يجب أن يتم إعدادهم إعدادًا متميِّزًا؛ عقديًّا وفكريًّا وسلوكيًّا، وكلما زاد اتساع هذه القاعدة زاد انتشار الخير وانحسار الشرِّ.

ثم علينا جميعًا أن نعلم أن صناعة الإعلام في هذا العصر لا تقوم على أكتاف أشخاص فرادى لديهم الرغبة والتفاني في نشر رسالتهم، سواءٌ أكانت رسالة خير أم رسالة هدم، وإنما يحمل همَّ الإعلام المعاصر مؤسسات متمكِّنة وراسخة في إمكانياتها المادية ومواردها المالية، وكذلك في الكفاءات والكوادر التي ترعاها وتقوم على تسيير أمورها.

وإيجاد هذه المؤسسات ليس بالمستحيل؛ فعندنا نحن المسلمين من الموارد ما قد يفوق ما عند الآخرين، وعندنا من أصحاب العقول النيرة والرؤى السديدة مَن يمكنهم حمل رسالة الإعلام وجعلها أداة بناء لأمتهم بأكملها.

- صدقني يا أخي، عندما أسمع هذا الكلام تتضارب المشاعر بداخلي؛ فمن ناحية أشعر بالسعادة والغبطة وكأني أتصور ما تقوله يتحقق على أرض الواقع، ولكن ما تلبث تلك المشاعر إلا لحظات يسيرة حتى أشعر بالإحباط والقلق على مستقبل هذه الأمة؛ فالمشوار فيما يبدو لي طويلٌ جدًّا، وأبناء الأمة في ذهول، وأعداؤهم يقومون على طمس كل ما يمتُّ بهوية هذه الأمة، فماذا يمكنني أن أفعل وأنا فردٌ واحد؟!!

- أولًا، أريد أن أعقب على نقطة مهمة ذكرتَها، وهي طمس معالم هوية هذه الأمة، فأنتَ محقٌّ في هذا؛ فرسالة الإعلام الجائر في هذا الزمان ليست فقط في تسميم أخلاقيات الأفراد والأُسَر وسلوكياتهم، وإنما أيضًا في فصل أبناء هذه الأمة عن أية روابط تربطهم بدينهم وعقيدتهم، ومَن ثمَّ أمتهم. وأضرب لك مثالًا على ذلك.

قال: تفضل.

قيام الإعلام بتشويه التعليم وتفتيت دور الأسرة

قلتُ:

- ذكرتَ في حديث سابق أنك تشعر بالقلق من حالك وحال أسرتك، ولكن هل تعلم أن الإعلام قد صار في هذا العصر يتولى دور المربي في البيت، ودور المعلم في المدرسة؟!! بل إنه يقوم بما هو أبعد من ذلك؛ إذ إنه يُشوِّه صورة المعلم في المدرسة، ويُقلِّل- بل يُهمِّش، وفي أحيانٍ كثيرة يهاجم- دور الأسرة في بناء شخصية الفرد، وإذا حاول رب الأسرة أو أحد أفرادها الاهتمام بالأسرة وتوجيهها نحو الخير والصلاح فإن الإعلام يعتبِر ذلك تدخُّلًا في الحريات الشخصية لأفراد الأسرة.

وأنت محقٌّ فيما قلتَه من أن غالبية الآباء منهمكون في أعمالهم، أو منشغلون بوسائل

الترفيه والتواصل الاجتماعي التي لا تكاد تخلو منها غرفة من غرف البيت، وأما الأطفال فإنه يجري مسخهم وهم يتنقلون بين أفلام الكرتون والأفلام الخليعة والأغاني الماجنة والرقصات الهابطة.

وما يقوم به الإعلام هو طمس كل ما يمُتُّ إلى هوية هذه الأمة بصلة؛ فهو يُحطِّم القِيَم والمبادئ والأخلاق الفاضلة في نفوس الناشئة، ويُحلُّ محلها مبادئ الولاء للغرب والشرق والقِيَم والأخلاق الهابطة والوضيعة، ولو تتبَّع أحدنا ما يُبَثُّ في وسائل الإعلام لوجد أنها تقوم على تمييع المبادئ والأخلاق التي تُشكِّل هوية الأمة؛ فمثلًا يصف العلاقات الغرامية على أنها حب، ويجعل من الزنا واللواط والشذوذ الجنسي حريات شخصية.

ولا يكتفي بذلك، وإنما يعمل جاهدًا على تحطيم رموز الدين والقدوات التي يمكن أن تبقى مُحفِّزًا في نفوس الناشئة؛ فتجده يَسْخَر من رموز الدين ومشاهير الأمة، وفي الوقت نفسه يُوجِد لهم بديلًا من القدوات المنحطة والهابطة من الفنانين والمغنين ومشاهير الغرب من الكفار والملحدين ومن السياسيين وغيرهم، ويجعل هؤلاء بمثابة القدوات التي يجب على الناشئة أن تحذوا حذوها.

رأيتُ صاحبي يهز رأسه وهو يقول:

ـ لا حول ولا قوة إلا باللَّه، لا حول ولا قوة إلا باللَّه!! ماذا بقي لهم أن يفعلوا؟!!

ـ إن ما أذكره مجرد أمثلة، وإلا فإنه يجري أكثر من ذلك؛ فهناك حملات لتجهيل الأمة بأسرها؛ فالبرامج التي تُبَثُّ في الإذاعة والتلفاز، والمقالات والتحليلات التي تنشر في الجرائد والصحف ومواقع الإنترنت غالبيتها إن لم تكن مخربة فهي ليست بذات قيمة، ولا يستطيع الفرد أن يكسب من خلالها علمًا يستطيع أن يعينه على انتزاع نفسه من الدوامة التي أُوقِع فيها.

وماذا عسى أن يكون حال الشاب أو الفتاة عندما يذهبان إلى المدرسة، وقد قضيا

ليلتهما في مشاهدة المباريات والأفلام، والتنقل بين مواقع الإنترنت؟ وماذا عسى أن يدور في مخيلتهما وهما يشاهدان أمامهما شخصية- تُدعى المعلِّم- يتم تحطيمها والسخرية منها والانتقاص من دورها بشتى الوسائل؟!! وماذا عسى أن يكون حال المعلِّم نفسه، وقد قضى هو الآخر ليلته متنقلًا بين هذه القناة وتلك، أو متجوِّلًا بين هذا الموقع وذاك؟!! إنها بلا شك مهزلة وأيُّ مهزلة!!

- لقد قمنا ببعض الدراسات المتعلقة بالتعليم، وقد شاهدنا العجب العجاب؛ فقد رأينا كثيرًا من الطلاب يتجمَّعون قبل دخولهم المدرسة وبعد خروجهم منها وأثناء الاستراحات، وكنا في بعض الأحيان «نتجسَّس» على ما يدور بينهم من أحاديث.

وصدقني يا أخي، لقد وجدنا أن أحاديث غالبية الأطفال، رغم أنهم لا يزالون في المرحلة الابتدائية، كانت عن أفلام الكرتون والمسلسلات والأفلام ومقاطع اليوتيوب التي يشاهدونها، والكبار منهم كانوا يتحدثون عن الأفلام الهابطة وما فيها من لقطات مشينة.

وقمنا أيضًا بفعل الشيء نفسه مع المعلمين والمعلمات، وللأسف الشديد وجدنا أحاديثهم تدور حول المباريات والأفلام والموضات، وهموم الشباب والفتيات في هذا العصر من الديون المتراكمة والقروض البنكية وموديلات البيوت والسيارات وغير ذلك، ونادرًا ما كنا نسمع كلمات أو عبارات تنم عن أيِّ ارتباط بالدين أو العلم النافع أو المواضيع ذات الأهمية.

التعتيم الإعلامي وتشويه الحقائق

قلتُ:

- وأنا أصدق ما قلتَه وما توصلتم إليه، ولكن ما يُحيِّرني أن هناك من الدراسات التي نقرؤها، وربما بشكل يومي، في صحفنا وإعلامنا تقول غير ذلك.

ابتسم وقال:

ـ وهذا ما وجدناه بالفعل؛ فقد كنا نُجري أيضًا مقابلات، ونوزع استبانات، ونطلب من الطلاب والمعلمين أن يخبرونا عن بعض المعلومات، أو عن آرائهم في بعض القضايا، ووجدنا ما يقولونه أو يكتبونه يتناقض تمامًا مع ما يمارسونه فعلًا!!

ـ إنه تناقضٌ عجيب، وهو من الطامات الكبرى التي ابتليت بها أمتنا في هذا العصر.

ـ فعلًا، إنه تناقضٌ عجيب، ولكن عليك أن تعلم أن ذلك ما كان ليحدث بعفوية، وإنما تُصنع تلك المعلومات المغلوطة في «كواليس» وسائل الإعلام، ثم يُغرَّر بالمواطن من خلال الضغط عليه بكثرة تكرارها في مختلف الوسائل، فيتأثَّر بالمعلومة التي كان يرفضها ويعارضها، وقد استفادوا في هذا بتطبيق نظريات التأثير في العقل الباطن أو اللا واعي، وهو ما يُسمى بـ «هندسة الجهل».

ـ والإعلام الخائن يُوهِم الناس بأن واقعهم بخير، وأنه ليس هناك ما يستدعي القلق!!

ـ هذا صحيح؛ فقد حاولنا نشر ما توصلنا إليه من خلال التحريات السِّرية التي قمنا بها، ولكن رفضت الجريدة التي أعمل بها ذلك، وفي الوقت نفسه رحَّبت كثيرًا بالنتائج التي حصلنا عليها من خلال المقابلات واستطلاعات الرأي، وهذا يؤكد ما قلتَه من أن الإعلام لا يريد للناس أن يعرفوا أن هناك خللًا ونقصًا وضعفًا يحتاج إلى علاج وإصلاح.

ـ إن قضية التعتيم الإعلامي تسير إلى أبعد من ذلك؛ وأنت تعرف أنه عندما تُشنُّ حرب على أيِّ بلدٍ إسلامي، أو يفرض عليه حصار اقتصادي أو جوي، أو يتهم بأيِّ تهمة مختلقة، فإن الأخبار التي تصل إلى المشاهد أو المستمع أو القارئ تكون مزورة ومشوهة، بل تكون في أحيان كثيرة تقف في صف المعتدي؛ فبالرغم من أن الدولة الكافرة تكون هي التي شنت الحرب على الأبرياء العُزَّل من المسلمين، إلا أن الإعلام الجائر والخائن يُصوِّر المعتدي بأنه صاحب رسالة، وأنه المنقذ للبشرية، وأنه جاء لإرساء الحرية والديمقراطية وتحرير الشعوب، وبالمقابل يُصوَّر الأبرياء المعتدى عليهم على أنهم إرهابيون وخونة، وأنهم متخلفون لا يريدون أيَّ تطويرٍ لأوطانهم ومجتمعاتهم.

ممارسة الإعلام الغربي والموالي له للإرهاب

قال:

- يا أخي العزيز، إنا نعرف حقائق كثيرة عن هذا الجانب لا تصل إلى الناس؛ فالإعلام الغربي والشرقي لا يكتفي فقط بتعتيم الحقائق وتزويرها وتشويهها، وإنما يقوم بدور الإرهاب على كافة الأصعدة؛ فإذا تجرأت مؤسسة من المؤسسات في الكشف عن بعض الحقائق التي يجري تزويرها أو التعتيم عليها فإنه يتم مهاجمتها وتشويه سمعتها، بل- وفي بعض الأحيان- يتم ضربها بالصواريخ وتفجيرها بالقنابل.

وأما الصحفيون والإعلاميون الذين تكون عندهم الغيرة والحمية لأوطانهم وأمتهم فإنهم يتعاملون مع الأحداث بحذر شديد؛ لأنه إن تجرَّأ أحدهم وقام بتغطية إعلامية أو كتب موضوعًا صحفيًّا معينًا لا يوافق أمزجة الدول المعتدية فإنه يتم التخلُّص منه فورًا دون أن يكون هناك مجال لعودته مرة أخرى!!

- والإرهاب الإعلامي- كما أسمَيتَه- لا ينحصر فقط في الحروب والمظاهرات والانقلابات التي لا يكاد يخلو منها بلدٌ إسلامي، ولكنه يُمارَس حتى في الأمور التي تعتبر من ثوابت الدين؛ فأنت تعلم مثلًا أن هناك من الكُتَّاب مَن يؤلفون الكتب والروايات وينشرون المقالات التي تهاجم رموز وثوابت الدين، بل وتهاجم اللَّه- تعالى اللَّه عما يقولون- أو تهاجم شخصية الرسول ﷺ أو زوجاته أو غير ذلك.

والإعلام- كما تعلم- يقوم بدور المروِّج لتلك التفاهات والشِّركيات، بل وتجد أن هناك من الدول والمنظمات التي تقوم على حماية أولئك المنحرفين، والذين يتولَّوْن مهمة نقض ثوابت هذا الدين ومحاربة رموزه، وفي الوقت نفسه لو ثار بعض المخلصين للتصدي لهم والدفاع عن اللَّه ورسوله فإن هؤلاء يوصَمون بالإرهاب، ويكون حالهم كحال من يوصَمون بالإرهاب في الحروب!!

- صدقتَ يا أخي؛ وما قضية سلمان رشدي وآياته الشيطانية، وما قضية الكاتب

السوري حيدر حيدر وروايته وليمة أعشاب البحر، ولا بقضية محمود محمد طه السوداني المرتد، الذي ثارت جميع وسائل الإعلام والمنظمات والدول عندما تم تطبيق حد الردة عليه بعدما أساء إلى الدين وأهله بشتى الوسائل، فما عنَّا تلك الوقائع ببعيد!!

ـ إن ما ذكرتَ هي وقائع مشهورة وربما يعرفها الجميع، ولكن هناك من الوقائع التي تجري بصفة يومية وعلى مختلف الأصعدة، ولا تبوح بها وسائل الإعلام الخائنة، وإنما تُمرَّر على الجماهير المسلمة التائهة على أنها أمورٌ من عامة معاش الناس، وأنها لا تمسُّ الدين لا من قريب ولا من بعيد!!

ـ يا أخي، إني بقدر ما أزيد اطلاعًا على هذا الإعلام، أبقى متحيِّرًا لا أدري ما يمكنني فعله، فبماذا تنصحني؟

ـ اعذرني أخي إبراهيم ولكن الحديث في هذا الجانب يطول، وأنا على موعدٍ مع أحد الإخوة، فما رأيك أن تزورني في بيتي لنُكمِل الحديث؟

ابتسم وقال:

ـ هذا تشريفٌ لي.

ـ سأتواصل معك بإذن اللَّه ونُحدِّد موعدًا آخر.

ـ اتفقنا.

الحوار الثاني: دور الإعلامي المسلم

عندما زارني إبراهيم في بيتي، بادرني قائلًا:

ـ لقد طلبتُ منك في آخر لقائنا السابق أن تنقذني من الورطة التي أنا واقعٌ فيها.

ابتسمتُ وقلتُ:

ـ أجل أتذكر أخي إبراهيم، وأحبُّ أن أقول لك بأني لا أشك في أن فكرك نقيٌّ صافٍ، وأنك لا ترضى بما يُكتَب أو يُبَث من تزويرٍ للواقع وقلبٍ للحقائق وتضليلٍ للناس، وأنت رجل إعلام، ودورك خطيرٌ جدًّا في هذا العصر، وكل ما تقوم به الآن أنك تستسلم للواقع وترضخ بما أوقعتَ نفسك فيه من قبولٍ للعمل في تلك الجريدة!!

ـ يا أخي، إنك تعلم أنه لا سبيل لي لأن أعيش عالةً على غيري، أستجدي لقمة العيش لي ولأهلي!!

ابتسمتُ، وقلتُ:

ـ ولكن ما تفعله الآن هو الشيء نفسه، بل هو أسوأ من ذلك؛ إنه ليس مجرد استجداء وإنما استعباد، فإن الجريدة قد اشترتْ منك دينك ومبادئك وقِيَمك وعلمك وفكرك مقابل راتبٍ ضئيلٍ تستلمه منها في نهاية كل شهر.

ـ وما البديل، فأنت تعلم أنه لا بُدَّ لي من وظيفة؟

ـ إنك تدرك أن هذه الأمة مستهدفة من أعدائها، سواءٌ أكانوا من أعدائها التقليديين كاليهود والنصارى وغيرهم، أم كانوا من أبناء جلدتها وممن ينتسبون إلى لغتها ودينها

وأرضها، وإذا كان الواحد منا يرضى أن يُضحِّي بدينه ومبادئه وقِيَمه وعلمه من أجل بعض الريالات التي يحصل عليها فبئست الحياة.

اعلم يا أخي أن الرزق بيد اللَّه- سبحانه وتعالى-، وأنه لن تموت نفس حتى تستوفي أجلها ورزقها الذي كتبه اللَّه لها، ولذلك فليس هناك من داعٍ للتخوُّف مما يفكر فيه الناس من فقرٍ وضيقِ حال، فالأمر موكول إليه سبحانه.

- وإن قررتُ ترك الجريدة فأين أذهب، وماذا أفعل؟!!

- أما سؤالك (وماذا أفعل؟) فهذا لا ينبغي لمثلك أن يسأله، فأنت صاحب رسالة ومؤتمن من اللَّه- سبحانه وتعالى- على تبليغ تلك الرسالة إلى البشرية كلها على أكمل وجه، وأما قولك (أين أذهب؟) فكما أخبرتك فإن الأرزاق بيد اللَّه، ويمكنك أن تتخذ أيَّة حرفةٍ أخرى، ولكن ما تحتاج إليه هو أن تكون حرًّا طليقًا يمكنك أن تؤدي رسالتك على أكمل وجه.

- ولكن، هل في تصورك أن قراري أنا وقرار غيري من الشرفاء للاستقالة من وسائل الإعلام سيحلُّ قضايانا ويخطو بالأمة خطوات للأمام، أم إنه سيكون نذير شؤمٍ للأمة بأسرها؟

- إن كثيرًا من الإعلاميين المسلمين- بلا شك- هم ممَّن يحملون الفكر النيِّر والعقيدة السليمة، ولكنهم مستعبَدون من مؤسساتهم والأنظمة التي تحكمهم، وكما ذكرتُ لك فإن أمثال هؤلاء لو أخلَوْا الساحة لبقية الإعلاميين الذين لا يراعون في اللَّه إلًّا ولا ذمة فإنها- بلا شك- ستكون كارثة كبيرة تحلُّ بالأمة.

- اعذرني يا أخي إن قلتُ لك إن كلامك هذا يتناقض مع ما قلتَه لي من قبل، فأنت تريدني أن أترك وظيفتي، وبالمقابل تقول إنه لا ينبغي للمخلصين من الإعلاميين أن يُخلوا الساحة لخواة الضمير والدين!!

ـ على العكس يا إبراهيم، فليس في كلامي تناقضٌ، وما قصدته هو أن كل الإعلاميين الذين يحملون هموم هذه الأمة ويسعون بإخلاصٍ للدفاع عن قضاياها وهم قادرون على ذلك فإن الدين والواقع يُحتِّم عليهم البقاء في وظائفهم في المؤسسات الإعلامية التي يعملون بها.

وأما ضعاف النفوس الذين يستسلمون لواقعهم، وكل ما يقومون به هو فقط التشكِّي من هذا الواقع دون أن يخطوا خطوات عملية للتغيير والإصلاح، فإني أعتقد أن المكان غير مناسب لهم، وخيرٌ لهم أن يتركوا مناصبهم ووظائفهم لغيرهم الذين يمكن أن يكون عندهم همُّ التغيير والإصلاح.

نكَّس إبراهيم رأسه، وكأنه فهم قصدي، وأني أوجه الكلام إليه، فقال:

ـ لقد عرفتُ قصدك يا أخي، وإني مُقرٌّ بضعفي، فأنا أشعر بأنه ليس بيدي أيُّ قدرة على التغيير والإصلاح!!

منهج التدرُّج ودوره في الإصلاح والتغيير

قلتُ:

ـ بل على العكس من ذلك، إن مشكلتكم أنتم الإعلاميين أنكم تتخوفون من العواقب أكثر مما تستحق، فلماذا لا تجرؤ أن تكتب مقالًا حول قضية ما وتبدي رأيك فيها بكل صدق وأمانة؟

فقال وهو يبتسم:

ـ إني لو فعلتُ ذلك لوُجِّهتْ إليَّ رسالة إنذار على الفور!!

ـ ثم ماذا عسى أن يحدث بعد ذلك؟

ـ لو تكرر ذلك مني لربما أدى الأمر إلى طردي!!

- هذا صحيح، ولكن هناك احتمال آخر، وهو أنك إن بدأتَ تكتب مقالات قيِّمة فستشجع غيرك من الصحفيين على انتهاج الطريقة نفسها، وعندما يكثر أمثالك وتبدأ المقالات المثيرة والمفيدة تتوالى فإن ذلك سيثير- بلا شك- اهتمام الناس بجرائدكم وصحفكم، وستزيد المبيعات، ولا تنسَ أن غالبية وسائل الإعلام همُّها في الدرجة الأولى الربح، ولا تتقيَّد بالأنظمة والقوانين إلا بقدر ما يعينها على البقاء والاستمرار!!

- إنك تعلم أنه لو كتبتُ مقالًا يستفزُّ جريدتي والمسؤولين فيها، فلن يجروأ أحدٌ من الصحفيين بعد ذلك على الكتابة عندما يسمعون بردود فعل الجريدة، وأكون أنا الضحية!!

- يا أخي، إن كل ما تقوم به حاليًا- كما ذكرتَ لي- هو تغطية الأحداث والمواضيع التافهة التي لا تخدم مصالح الناس بقدر ما تضرهم، وليس المطلوب منك أن تبدأ منذ الغد في التخلي عن الكتابة في تلك المواضيع التافهة، وتبدأ الكتابة في القضايا الكبرى. إن مثل ذلك التصرُّف سيثير فعلًا حفيظة الكثيرين عليك، ولكن ما أنصحك به هو التدرُّج وأخذ الأمور بحكمة وروية، فإن الإصلاح والتغيير للأمة لن يحدث بين عشية وضحاها، وإنما هي مسيرة طويلة وشاقة، إذ يحتاج المخلصون من أبناء هذه الأمة إلى مضافرة جهودهم لتحقيق الأهداف العامة التي يسعون إليها .

- قد بدأتُ أفهم ما ترمي إليه، وأظن أن كلامك منطقي، فمثلًا يمكنني أن أقوم بتغطية إحدى الفعاليات الزراعية أو الرياضية أو الصحية، وفي ثنايا حديثي أدخل عبارةً أعتقد أنها يمكن أن توجه فكر الناس إلى الصلاح والخير، حتى وإن كانت بشكل بسيط.

- نعم هذا ما كنتُ أقصده بالتدرُّج، فتبدأ في البداية بإدخال كلمات أو عباراتٍ بسيطة هنا وهناك، ثم تدريجيًّا تبدأ على مرور الأيام والأسابيع الارتقاء بأسلوبك من خلال طرحك لتلك القضايا، وبعد أن ترى أن أسلوبك بدأ يأخذ منحًى آخر، تبدأ الكتابة في قضايا المجتمع والأمة، وهنا أيضًا تبدأ بالقضايا البسيطة التي تتحدث عنها غالبية وسائل الإعلام، ثم تتدرَّج إلى القضايا الأهم والأكبر.

ابتسم وقال:

ـ هل تصدق يا أخي أني بدأت أشعر بالرغبة في التغيير، وأريد أن أبدأ في انتهاج هذا الأسلوب من اليوم!!

ـ يا أخي، عليك أن تعلم أنه لن يتغير شيء كبير إن حاولتَ القيام بالإصلاح بنفسك، ولكن ما نحتاجه هو تكرار هذا الفعل والتوجُّه من صحفيين وإعلاميين آخرين، وعندما يبدأ العدد في التزايد ستكون هناك ـ بإذن اللّه ـ نهضة ملحوظة، وتغيُّر في أسلوب الطرح والمحاورة لن يخفى على الناس ولا على المسؤولين.

ـ ولكن قد أقتنع أنا بهذه الفكرة، وقد أستطيع البدء في تطبيقها، ولكن كيف لي أن أقنع الآخرين؟

ـ إنكم معاشر الإعلاميين ـ كغيركم من أصحاب التخصُّصات الأخرى ـ لا بُدَّ وأن لكم تجمعات وملتقيات.

ـ هذا صحيح، فكثيرًا ما نلتقي مع بعض الزملاء عند تغطية الوقائع والأحداث، وكذلك كثيرًا ما نتصل ببعض.

ـ إذن، فالظروف مواتية لتبدأ في تمرير الأفكار التي تقتنع بصحتها وفعاليتها إلى الآخرين، وكل ما يلزمك القيام به أن تبدأ أولًا ببناء علاقات طيبة مع زملائك.

ـ يا أخي: إننا عندما نلتقي فإننا نتحدث في أمور الحياة وهموم المهنة، ولكن ليس بأسلوب النقد أو التوجيه، ولو شعر أحدهم بأني أنتقد أسلوبه في الكتابة أو المحاورة، أو أني أحاول دفعه لِعملِ أمرٍ ما أو تَبَنِّي فكرة معينة فإنه ـ بلا شك ـ سينفر مني!!

ـ إن عليك أن تتعامل مع زملائك بالحكمة، وليس بأن تُملي عليهم آراءك وأفكارك، وإن عليك أن تنتهج معهم الأسلوب نفسه الذي تنتهجه في مخاطبة الناس، فلا تتصادم مع زملائك لا بقول ولا بفعل، ولا تحاول أن تُملي عليهم شيئًا حتى وإن كنتَ تعتقد صحته،

وإنما عليك أن تتخيَّر الفرص السانحة لتوجيه نقد أو نصيحة أو غرس فكرة أو مبدأ معين، ولكن بطريقة غير مباشرة وغير ملحوظة.

وما أنصحك به هو أن تبدأ أولًا بالتحدث مع زملائك بالأسلوب نفسه الذي تتحدث به معهم الآن، وليكن هدفك في البداية كسب وُدِّهم وجعلهم يثقون بك وبكلامك، ثم عندما تراهم يألَفون التحدُّث إليك والجلوس معك تبدأ تدريجيًّا في غرس الأفكار والمبادئ والقِيَم التي تريدهم أن يؤمنوا بها، ولكن بأسلوب التدرُّج؛ فتُدخِل أولًا في ثنايا حديثك كلمات أو عبارات تثير اهتمام الطرف الآخر، وتَلفِت نظره إلى قضية معينة، وتواصل في هذا الجانب بالتدرُّج إلى أن تلحظ تقبُّلًا وتجاوبًا من أحدهم، وعندها تبدأ في مناقشة بعض القضايا البسيطة التي عادة ما يتم تجاهلها في الصحف ووسائل الإعلام الأخرى، ثم عندما ترى تجاوبًا ملحوظًا في التفاعل مع هذه القضايا البسيطة تبدأ في طرح قضايا أكبر، وهكذا.

- إذن، عليَّ أن أستخدم تقريبًا الأسلوب نفسه الذي أستخدمه عند مخاطبة الناس؟

- هذا صحيح، فأساليب الدعوة والإصلاح في الغالب متشابهة، وإن كانت تراعي الظروف والأحوال.

- ولكنها مسيرة طويلة، وستستغرق مني الكثير من الجهد والوقت!!

- ليس التعجُّل في صالحكم كإعلاميين، ولا في صالح الأمة؛ فإن أيَّ تعجُّل في اتخاذ الخطوات المناسبة قد يفضي إلى تكالب الآخرين عليكم، ولا تنسوا أنه يراد لأمثالكم أن يغرقوا في وحل التبعية، وأن يعيشوا في ذلٍّ واستكانة، ومتى لُوحِظ تغيُّرٌ في أسلوبكم أو منهجكم فقد يفضي ذلك إلى نبزكم بالألقاب، أو ربما إعاقة دوركم كإعلاميين، ولذا يجب أن تكون حكيمًا في كل ما تقوله وتفعله.

دور الإعلامي المسلم في التعامل مع المعلومات والأخبار المستقاة من وكالات الإعلام

قال:

ـ ولكن، كما تعلم فإن غالبية وسائل الإعلام في بلداننا تستقي معلوماتها وتحليلاتها من وكالات الأنباء الشرقية والغربية، فكيف يمكننا التصرف حيال ما يأتينا من تلك المعلومات أو الأخبار؟

ـ هناك الكثير من المعلومات التي يمكنكم أن تستقوها بأنفسكم، وأما ما يصلكم من الشرق أو الغرب فيمكنكم التعامل معه بحكمة وموضوعية؛ فما رأيتموه موافقًا لمبادئ وأخلاقيات هذا الدين وأهداف الأمة وقضاياها مرَّرتموه، وربما بمزيد دعم وتوثيق، وما رأيتموه عكس ذلك أخذتموه بحذر، وقدمتموه للناس على أنه خبر مشكوك في صحته أو قدمتموه إلى الناس ومعه آراؤكم ونظرتكم حياله!!

ـ ولكن، كيف يتسنَّى لنا نحن الإعلاميون التمييز بين الغثِّ والسمين مما يصلنا من أخبار ومعلومات؟

ـ أنت صاحب رسالة، وعليك أن تُبلِّغها بأمانة وإتقان، وذاك يستوجب عليك أن تتحرَّى صحة الأخبار والمعلومات التي تصل إليكم من مصادرها، وكلما اجتهدتَ في البحث والتحليل والمقارنة تبيَّنتْ لك الأخبار الصحيحة من الزائفة.

ـ ولكن، تعلم أنه في اليوم الواحد قد تصلنا مئات بل ربما آلاف الأخبار والمعلومات، فأنى يتسنَّى لمثلي التحقُّق من مصداقيتها وصحتها؟!!

ـ لقد تحدثنا من قبل أن عليك أن تكسب إلى صفك أناسًا آخرين، وعندما يكثر عددكم ستكونون ـ بإذن اللَّه ـ قادرين على توزيع الأدوار بينكم، ويمكنكم عندئذ أن تؤسِّسوا وكالتكم الخاصة بتحري الأخبار والمعلومات!!

ـ ولكن، كما تبيَّن لنا من قبل فإننا لا زلنا بعيدين عن الوصول إلى تلك المرحلة، فماذا علينا فعله الآن كأفراد؟

ـ إن عليك أن تعمل جاهدًا في كسب وُدِّ زملائك وتغيير فكرهم ليتساير مع الفكر الذي تتبناه، وفي الوقت نفسه يمكنك الاهتمام ببعض القضايا، وتحاول تحرِّي صحتها وصدقها ولو بصورة مبسطة، ويمكنك الاستعانة ببعض من تثق بهم، حتى وإن لم يكونوا من الإعلاميين، فهناك من الناس المخلصين الذين يتابعون ما يجري في العالم من أحداث ووقائع، وعند الكثيرين منهم النظر الثاقب والفكر السديد في تحليل القضايا والأحداث. وأريد أن أنبهك إلى أمر مهم!!

ـ ما هو؟

دور الإعلامي المسلم في طرح قضايا المجتمع ومعالجتها

قلتُ:

ـ إن مسيرة الإصلاح والتغيير التي على الإعلاميين الاهتمام بها لا تتعلق فقط بالجوانب السياسية، وإنما المجتمع والأمة بحاجة إلى تثقيف وتوعية وتوجيه في كثير من الأمور الأخرى، وعليكم أن تفتشوا عن هموم الناس وشؤونهم، وتطرحوا تلك القضايا من وجهات نظر سليمة، ولن تُقابَل أطروحاتكم بالرفض، وخاصة إذا كانت تصبُّ في خدمة المجتمع!!

ـ هل يمكنك أن توضح لي بعض تلك القضايا؟

ـ تعلم إن غالبية الشعوب الإسلامية تَئِنُّ من وطأة الفقر والجهل والبطالة، ولو استطعتَ أنت وزملاؤك تبنِّي هذه القضايا ومحاولة علاجها بعيدًا عن مصطلحات السياسة لحقَّقتم هدفين: الأول، أن طرحكم لهذه القضايا لن يثير عليكم السياسيين، والثاني أن هذه القضايا مما يشغل بال كثير من الناس، ولذا فإن طرحكم لها سيُمهِّد لكم

النفوذ إلى قلوبهم!!

ـ ولكن هذه القضايا تحتاج إلى أصحاب رؤى سديدة ونظرات ثاقبة لطرح حلول لها، ولو كانت بتلك البساطة لما أنَّت منها شعوب كثيرة!!

ـ هذا صحيح، ولكن اهتمامكم بها سيكون في البداية من خلال إثارتها إعلاميًّا، وبهذا يصبح للإعلام غايات نبيلة؛ فبدلًا من تضييع صفحات الجرائد وساعات الشاشات في قضايا تافهةـ بل ومُخرِّبة في كثير من الأحيانـ فإنكم ستستبدلوا بها قضايا ذات شأن في المجتمع.

وليس المطلوب منكم أن تكونوا علماء وفلاسفة وخبراء، توجِدون الحلول لكل مُشكِل، وإنما دوركم كإعلاميين التنقيب والبحث عن ذوي التخصُّص وأهل المروءة والصلاح ليستطيعوا المشاركة في مسيرة التغيير، وبهذا أيضًا تكونون قد أديتم أمرًا مهمًّا، وهو تفعيل الطاقات المبعثرة والكامنة في المجتمع.

وقد تثير تغطياتكم الإعلامية لهذه القضايا اهتمام بعض الموسِرين، فيتبرعون إما بإنشاء مؤسسات لها، أو بتثقيف الناس حيالها، أو بأية صور أخرى تخدمها، وهنا أيضًا تكونون قد استطعتم البدء في استغلال موارد هذه الأمة لخدمتها بدلًا من أن تزهق للإضرار بأبنائها وهويتها.

الاستفادة من المخلصين في المجتمع في طرح وتبنِّي قضايا الأمة

قال:

ـ وكيف يمكننا الاستعانة بالمخلصين في المجتمع للتفاعل معنا في طرحنا الإعلامي لمثل هذه القضايا؟

ـ إن عليكم الخروج من صوامعكم وأبراجكم العاجية، والنزول إلى الشارع لِتغشَوْا

الناس في منتدياتهم ومحافلهم، وليس من الضروري الاختلاط بالناس كإعلاميين، فأنتم من أهل المجتمع وأفرادٌ فيه، وهمومكم وقضاياكم ـ خارج نطاق وظيفتكم ـ متشابهة مع هموم وقضايا غيركم من أفراد المجتمع.

وعليكم أن تعلموا أن الناس يعرفون عنكم أكثر مما يعرفون عن غيركم من ذوي التخصُّصات الأخرى؛ فأسماؤكم ووجوهكم يراها الناس كل يوم، وعندما تقتربون منهم فإنكم ستنزلون عليهم ضيوفًا مُكرَّمين، ومتى ما أردتم تحقيق أمرٍ يخدم قضايا الأمة إعلاميًّا فستجدون تجاوبًا ملحوظًا منهم.

وهنا، يمكنكم انتقاء المؤسسات والشخصيات التي تتواصلون معها بحيث تكون ذات شأن وتأثير في المجتمع، وعندما تقومون بلقاء صحفي مع أحد المهتمين بقضايا التعليم أو الاقتصاد أو الصحة فسيكون لتغطياتكم الصحفية ـ عندئذ ـ أثر كبير في نفوس الناس. كذلك، عندما تكونون على علاقات وطيدة مع المؤسسات الرائدة في المجتمع فإن تغطياتكم الإعلامية ستكون مباركة من قبلها، وربما تدعم أنشطتكم الإعلامية المختلفة.

دور الإعلام الإسلامي في تثقيف المجتمع والارتقاء به

قال:

ـ وكيف يمكننا أن نُسْهِم ـ كإعلاميين ـ في تثقيف المجتمع ورفع مستواه في المجالات المختلفة؟

ـ إن قضية تثقيف المجتمع من القضايا المهمة، والحساسة في الوقت نفسه؛ فرسالة الإعلامي ليست في إغراق الجماهير بالمعلومات بقدر ما تكون للارتقاء بالمستوى الثقافي والعلمي للمجتمع بأسره.

وأظن أن الاهتمام بهذه القضية قد تكون أنسب وسيلة تستطيعون البدء بها للنفاذ

إلى شرائح المجتمع المختلفة؛ فالمعلومات التي ستعرضونها محايدة؛ بمعنى أنها ليست سياسية ولا دينية ولا غير ذلك، ولن تثير حفيظة أحد في المجتمع، وإنما ستكون معلومات مجردة. كما يمكنكم الاستفادة مما تنتجه وسائل الإعلام الغربية والشرقية في هذا الجانب، فهم يتكلمون عن الفلك والزراعة والتجارة والاقتصاد وغير ذلك في برامج هادفة وتحليلات رائعة، وما عليكم إلا نقل تلك البرامج إلى المشاهد والقارئ، وربما ببعض الترجمة أو الإخراج لتتناسب مع مبادئنا وقِيَمنا.

كذلك، يمكنكم إنتاج برامج تعليمية وأفلام وثائقية وتحليلات موضوعية في قضايا كثيرة كالطب والهندسة والزراعة والتعليم، وتلك التي تهتم بالمرأة والطفل والوظائف والمال والاقتصاد، وغير ذلك.

إذا استطعتم تحقيق هذا الجانب فستقومون بخدمة جليلة لهذه الأمة؛ فبمثل هذه البرامج ستنتشلون أبناءها من التخلف والجهل الذي هم واقعون فيه. كذلك، إن إنتاج برامج تعليمية ذات قيمة يحتاج إلى الاستفادة من الخبراء في التخصُّصات المختلفة، وهذا يعني مرة أخرى تفعيل الكوادر والطاقات المغمورة في المجتمع.

مثلًا، هناك من المتخصِّصين في جوانب الطب المختلفة مَن لا يُعرَفون إلا في دائرتهم المحدودة، وبين زملائهم ومسؤوليهم، ولو قمتم بتشجيعهم لطرح قضايا الطب التي تكون محل نقاش في المجتمع، فإنهم سيطرحونها كخبراء، وسيكونون محل ثقة بالنسبة لمن يتلقى عنهم.

فلو قام أحدهم مثلًا بالحديث عن التغذية ودورها، وأساليب العناية بالصحة والوقاية من الأمراض، لكان لما يقدمه صدًى كبيرٌ في نفوس الناس، وعندما يتجاوب المجتمع معهم فإنه- بلا شك- سيصبح في حال أفضل، وعندها تكونون أنتم مَن بدأتم نشر ذلك الخير في المجتمع. والحديث عن التخصُّصات الأخرى كالتعليم والتجارة والزراعة وغيرها ينطبق على ما سقناه في هذا المثال عن الطب.

ـ واللَّه، إنه لكلام جميل وأفكار لا تصدر إلا عن مُحنَّك!!

ـ أشكرك أخي إبراهيم، وعليك أن تعلم أن هذه الأمة تعجُّ بالكوادر والطاقات المخبَّأة التي تنتظر مَن يكتشفها ويُفعِّل دورها، وقد تكونون السبيل لذلك!!

ـ جزاك اللَّه خيرًا على ما سردته لي من اقتراحات، وإني ـ بإذن اللَّه ـ سأعمل جاهدًا على تحقيقها على أرض الواقع.

ـ بارك اللَّه فيك وفي أمثالك، وإن الأمة تنتظركم لترفعوا رايتها وتنصروا دينها، وإني أتمنى أن أراك يومًا من الإعلاميين الكبار الذين يوجهون هذه الأمة إلى الخير والصلاح.

قال وهو يبتسم:

ـ أسأل اللَّه أن يعينني لأكون عند حسن ظنك وظن غيرك من المخلصين.

حوار
مع تاجر

الحوار الأول:
واقع التجارة في البلدان الإسلامية

يوجد في بلدتنا مركزٌ تجاريٌ كبير يمتلكه أحد التجار الأثرياء، وقد اشتكى إليّ بعض الإخوة الغيورين أن المركز يبيع بعض المواد المحرمة والمشبوهة التي لا ينبغي لمن يؤمن باللَّه ورسولهﷺ أن يبيعها، وألحُّوا عليَّ بالذهاب إلى صاحب المركز، والتحدُّث معه في الأمر، فتخيَّرتُ وقتًا أعلم أنه سيكون موجودًا في مكتبه.

رحَّب بي كثيرًا، فأخبرته بأن عندي موضوعًا أريد محادثته فيه.

انتشار البضائع المحرمة والمشبوهة في أسواق المسلمين

قلتُ له:

ـ يعلم الجميع أن هذا المركز قد صار من المعالم الشهيرة في هذه البلاد، وصار يرتاده المواطنون والوافدون على السواء، وأظن أن كثيرًا منهم يأتون إلى هنا بما سمعوا عنك من أخلاق فاضلة ومعاملة حسنة.

استبشر الرجل بهذا الكلام، فرأيته يُنكِّس رأسه وهو يقول:

ـ أسأل اللَّه أن أكون عند حُسن ظن الناس بي.

واصلتُ حديثي، فقلتُ:

ـ لديَّ سؤال سأبدأ حديثي به.

ـ تفضَّل.

ـ لو أعطيتُك قائمة ببضائع أريد شراءها من هذا المركز، ومعظم هذه البضائع لها أكثر من مُورِّد، فعلى أيِّ أساس ستختارها لي؟

ابتسم وقال:

ـ هذا يعود إليك!!

ـ وكيف ذلك؟

ـ بعض الناس يرغبون في كل ما هو ذو جودة عالية، حتى وإن كان غاليَ الثمن، وبعضهم يرغب فيما رخص ثمنه، حتى وإن قلَّتْ جودته، فمن أيِّ الفريقين أنت؟!!

ـ أليس هناك فريقٌ ثالث؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ إذا كنتُ أرغب فقط في الحلال، ولا أرغب فيما هو حرام أو مشبوه!!

لاحظتُ تغيُّرًا في قَسَمات وجهه، وقال:

ـ ماذا تقصد يا ولدي؟ إنا بحمد اللَّه لا نبيع بضاعةً محرمة ولا مشبوهة، فكل ما لدينا حلالٌ بإذن اللَّه!!

ـ وهذا هو عين الموضوع الذي جئتك من أجله!!

ـ لم أفهم قصدك!!

ـ لقد وصل إلى علمي أنكم تبيعون بضائع محرمة أو مشبوهة!!

غضب الرجل، وقال:

ـ هذا ليس صحيحًا، فنحن نتحرى الحلال في كل شيء!!

ـ إن مركزكم كبيرٌ جدًّا، ولستَ تمتلك جميع المحلات الموجودة فيه، وإنما تقوم بتأجيرها إلى أشخاص آخرين.

ـ هذا صحيح، ولكن ليس في تلك المحلات شيءٌ محرم!!

ـ وعندكم بقالةٌ كبيرة تبيعون فيها أصنافًا شتى من المواد الغذائية والملابس والكماليات والعطور والخضروات والفواكه واللحوم والأسماك وغير ذلك.

ـ ليس فيما نبيعه محرمٌ، فالمحرم معلوم ولسنا نبيعه!!

ـ اعذرني، ولكن هل يمكنك أن تُعرِّف لي المحرم؟!!

غضب الرجل مرة أخرى، وقال:

ـ هل جئتَ لتمتحنني؟!!

ـ العفو، ولكن أريد منك إجابة على سؤالي لأوضح لك أمرًا آخر.

ـ معلومٌ لدى الناس أن المحرم هو كل ما جاء تحريمه في القرآن أو السنة، كالخمر ولحم الخنزير، ونحن لا نبيع مثل هذه الأمور.

ـ نعم، فالخمر ولحم الخنزير محرمان بصريح القرآن الكريم، ولكن هل أنت متأكد من أنهما لا يُباعان في مركزكم؟

ـ نعم، أنا متأكدٌ من ذلك!!

ـ وهل تُشرِف بنفسك على كل بضاعةٍ تُجلَب إلى مركزكم؟!!

ـ لا، ولكني أثق فيمن يعملون عندي!!

دور النصارى وغير المسلمين في جلب المحرمات وبيعها

قلتُ له:

ـ وهنا بيت القصيد، إن دورك في هذا المركز لا يعدو أن يكون إشرافًا إداريًّا؛ فأنت تهتم بتوظيف العمال ومتابعة الحسابات المالية، ولكنك لا تقوم بمتابعة ما يُجلَب إلى المركز من بضائع!!

ـ هذا صحيح، ولكني لم أرَ في البقالة لا لحم خنزيرٍ ولا خمورًا!!

ـ إن بعض مَن يعملون لديكم يقومون بجلب هذه البضائع سرًّا، ويبيعونها إلى مَن يعرفون ويأمَنون أن لا يكشف أمرهم!!

ـ أظن أن هذه شائعات، وليس لها أيُّ دليل من الصحة!!

ـ عندي الدليل!!

ـ وما هو؟

ـ عندك فلان وفلان، وهم غير مسلمين ولا يتورَّعون عن بيع المحرم، بل إنهم يتاجرون فيه!!

ـ وهل أنت متأكدٌ من ذلك؟

ـ أنا أخبرك بهذا، وعليك أن تتحرى بنفسك.

ـ سأفعل بإذن اللَّه.

ـ وماذا عن المطعم الموجود في الطابق العلوي من المركز؟!!

ـ وماذا به؟ هل يبيع أيضًا شيئًا محرمًا؟!!

ـ إنه ليس شيئًا محرمًا واحدًا فقط، وإنما أشياء كثيرة!!

من واجبات التاجر المسلم تحري الحلال في كل شيء

بدا على ملامح الرجل أنه يعرف هذه الحقائق لأول مرة، ولذلك انصدم من سماعها، فقال:

ـ مثل ماذا؟!!

ـ إنهم يُقدِّمون الخمور ولحم الخنزير، وتوجد عندهم صالة خاصة لتدخين السجائر والشيشة!!

ـ دعنا الآن من السجائر والشيشة، ولكن كيف عرفتَ أنهم يُقدِّمون الخمور ولحم الخنزير، ولقد أكلتُ عندهم مرات عدة، ولم أرَ في القائمة شيئًا من ذلك!!

ـ اعذرني إن قلتُ بأنك تثق بكل الناس، ولا تحاول أن تقوم بواجبك في تحري المعاملات التي تجري في هذا المركز، وأنت تعلم أنك صاحبه، ومحاسب أمام اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ عن كل ما يجري فيه!!

ـ إني لا أُقرُّ بالخمر ولا بلحم الخنزير، ولا أظن أن من واجبي اتهام الناس بدون دليل!!

ـ إن من واجبك تحرِّي الحلال من الحرام في كل شيء، وليس الأمر بِسِرٍّ، فإنه يكفيك أن تطلب من أحد عمالك الذين لا يبدو عليهم تمسك بدينٍ، وتطلب منه الذهاب إلى ذلك المطعم، والتعرُّف على الوجبات التي فيها لحم الخنزير، وأيضًا ما يتوفر لديهم من خمور!!

ـ سأقوم بذلك بإذن اللَّه.

ـ وماذا قصدتَ بقولك بأن نَدَعَ السجائر والشيشة؟!!

- تلك أمور منتشرة في كل الأماكن، وليس من حقي منعها في هذا المركز إذا كانت موجودة في معظم البلدان والمناطق!!

ابتسمتُ من هذا المنطق المقلوب، وقلتُ له:

- إن الحكم على حِلِّيَة الأشياء وحرمتها لا يكون بمدى انتشارها بين الناس، ولكن بما جاء به الشرع الحنيف!!

- إنه لو كانت السجائر والشيشة محرمتين لما سمحت بهما الحكومة، ثم إنه لا يوجد في القرآن نصٌّ بتحريمهما!!

- أما قولك بأنه لو كانتا محرمتين لمنعتهما الحكومة، فقد أخبرتُك بأنه يباع في بقالة المركز الخمر ولحم الخنزير، ويباعان أيضًا في المطعم الموجود في الطابق العلوي، فلماذا لم تقل أنه ما دامت الحكومة قد سمحت بهما فإنهما غير محرمَّيْن؟!!

- أولًا، إن تحريمهما موجود في القرآن، وثانيًا فإن الحكومة قد لا تعرف شيئًا عن ذلك.

- أما قولك بأن الحكومة لا تعرف شيئًا عن هذا، فهو ليس بصحيح؛ لأن الفنادق المنتشرة في البلاد تُقدَّم فيها الخمور ولحوم الخنزير عيانًا، بل إن فيها من حانات الخمر والمراقص وغير ذلك الشيء الكثير، ولا بُدَّ أن تكون تلك الفنادق قد حصلت على تصاريح لجلب تلك المحرمات من الخارج، وتقديمها في حاناتها، ولا يتصوَّر عقلٌ أن يتم تهريبها سرًّا، ثم تباع جهارًا بين الناس، وهذا يعني أن هناك جهات حكومية صرَّحت بإدخالها إلى هذه البلاد.

وأما قولك بأنه لم يُذكَر تحريم السجائر والشيشة في القرآن، فهذا صحيح، فإنهما لم يُذكرا تصريحًا، ولكنه لا يخالف مخالفٌ من المؤمنين ولا الكفار ولا الملاحدة في أنهما من الخبائث، واللَّه- سبحانه- يقول: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾

(الأعراف: ١٥٧)، ولا يقول عاقلٌ بأنهما من الطيبات. كما أن أهل الطب مُجمِعون، والواقع يُثبِتُ ذلك، أن السجائر والشيشة قاتلة، واللَّه تبارك وتعالى يقول: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (النساء: ٢٩ ـ ٣٠).

إلا أنه لو قيل بأنهما لا يصلان إلى درجة الحرمة، فهذا لا يعني أنهما أيضًا ليسا حلالًا مطلقًا، وهذا ما يُسميه الشرع بالشبهة، وقد أنكرتَ في البداية أن يباع في المركز شيء فيه شبهة، ثم أريد أن أخبرك بأمر آخر.

ـ وما هو؟

ـ إن هناك بضائع منتشرة في الأسواق تحتوي على مكونات الخنزير، ومنها أنواعٌ من معاجين الأسنان والصابون وأصنافٌ من العلك، وهذا بإجماع العلماء يحرم استخدامه.

ـ وهل يلزمني التأكُّد من وجود ذلك في البقالة؟!!

ـ بلا شك؛ فأنت المسؤول أمام اللَّه عن كل ما يُباع فيها!!

ـ إذن تريدني أن أذهب وأقرأ محتويات كل منتج من المنتجات التي نبيعها؟

ـ إذا كنتَ تريد أن تكون مطيعًا لله ورسوله، فعليك القيام بذلك وأكثر!!

ـ وإذا كنتُ قد فوَّضتُ الأمر إلى الموظفين، فهل سيلحقني إثم؟!!

ـ كما أخبرتك، فأنت المسؤول الأول أمام اللَّه عن كل ما يباع في البقالة والمركز بأجمعه، والحريص على مرضاة اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ يتحرى الحلال والحرام في أدق تفاصيله.

يبدو أن الرجل قد بدأ يضيق ذرعًا بما أخبره به، فقال ممتعضًا:

ـ وهل عندك شيءٌ آخر تريد أن تخبرني به؟

ـ نعم عندي شيئان!!

ـ وما هما؟

ـ أنتم تبيعون شتى أنواع اللحوم والدواجن.

فقال متهكِّمًا:

ـ وهل في اللحوم والدواجن أيضًا محرمات؟!!

ـ نعم، إنها إن لم تُذبَح وفق تعاليم الشريعة الإسلامية فإنه يَحْرُم أكلها!!

ـ نحن نستهلك الكثير منها، ولا نقتصر على نوع بعينه وإنما نشتري أصنافًا مختلفة منها، ومكتوب على غلاف كل منها: ذُبِح حسب الشريعة الإسلامية، أفلا يكفي ذلك؟!!

ـ لا، فإن كثيرًا منها تُستورد من دول غير مسلمة، والشركات التي تقوم على تصنيعها تدَّعي بأنها تُؤجِّر مسلمين لذبحها، وقد قامت بعض الجمعيات المهتمة بهذا الجانب بزيارة تلك المصانع والمسالخ، ووجدت كثيرًا من المخالفات؛ فبعض الدواجن كانت تذبح بسكاكين آلية ودون أن يذكر عليها اسم اللَّه، وبعضها كانت تخرج غير مقطوعة الرأس، وقد وجد كثير من الناس هنا دواجن برؤوسها ورقابها وليست فيها آثار التذكية، ثم إن بعض الشركات تقوم بصعق الدواجن والمواشي قبل ذبحها، وهذا لا يحلُّ في شرع اللَّه؛ فإن ذلك الحيوان قد أصبح ميتةً، ولا يجوز أكل الميتة إلا إن ذُكِّي الذكاة الشرعية قبل موته!!

هزَّ الرجل رأسه وقال:

ـ واللَّه إني لأسمع هذه المعلومات لأول مرة، وأصدقك القول بأنه ما خامرني يومًا أن في تلك اللحوم والدواجن حرمةً ولا حتى شبهة حتى أخبرتني بذلك!!

أحسستُ أن الرجل قد بدأ يتأثر بكلامي، فأحببتُ أن أستلطفه، فقلتُ:

ـ إنك لستَ الوحيد الذي لا يدري عن هذا، فكثيرٌ من الناس لا يعرفون الحلال من الحرام، وبعضهم يعلمون ولكنهم يكابرون ويتعذَّرون بأعذارٍ شتى!!

فقال بنبرة يبدو عليها التأثر:

ـ يبدو أن كثيرًا من الأموال التي أجنيها من هذا المركز قد جاءت من حرامٍ، أو على الأقل مما فيه شبهة!!

ـ إن على المسلم أن لا يكون همه فقط جمع المال وتكثيره بقدر ما يهمه من أين يحصل عليه وفيما ينفقه.

ـ قلتَ إن عندك أمرين، وقد ذكرتَ أحدهما، فماذا عن الآخر؟

ـ أرجو أن تعذرني الآن فإني مرتبطٌ بموعدٍ آخر، وبإذن اللَّه سأزورك لاحقًا.

ـ أرجوك أن تلبي لي طلبًا قبل أن تذهب!!

ـ تفضل، فأنا تحت خدمتك!!

ـ أن تأتي معي، ونتناول الغداء سويًّا!!

ـ أما هذا فأرجوك أن تعذرني منه!!

ابتسم، وقال ممازحًا:

ـ لا تخف، إننا لن نذهب إلى ذلك المطعم في الطابق العلوي، وإنما سآخذك إلى البيت، ولن أقدم لك لحومًا أو دجاجًا، وإنما سمكًا مشويًّا بإذن اللَّه!!

قلتُ له وأنا أبتسم:

ـ ليس الأمر كذلك، ولكني تواعدتُ مع أحد أصدقائي، وأظن أن موعدنا قد اقترب.

ـ إذن، تُحدِّد لي موعدًا آخر، فأنا لن أعذرك!!

ـ إذا كنتَ مصرًّا، فسأترك رقم هاتفي كما طلبتَ، وعندما ترى الوقت مناسبًا لك فأخبرني.

ـ سأفعل بإذن اللَّه.

الحوار الثاني:
دور التاجر المسلم في الدعوة والإصلاح

بعد حوالي أسبوعٍ اتصل بي صاحب المركز التجاري ودعاني للغداء في بيته، وبعد أن تناولنا الغداء بادرني قائلًا:

ـ لقد ذكرتَ في المرة السابقة أن عندك أمرًا آخر تريد أن تخبرني به.

جلبُ البضائع من بلدان الكفر دعمٌ لهم على حرب المسلمين

ابتسمتُ وقلتُ:

ـ نعم تذكرتُ. تعلم أن كثيرًا من بلدان المسلمين قد شنَّ أعداء الإسلام عليها حروبًا، وحاصروها، وضيقوا عليها الخناق، وأبادوا شعوبها، وبعضها لا تزال تئِنُّ تحت وطأة الاحتلال إلى يومنا هذا، ومنهم مَن سبَّ رسولناﷺ وسخر منه وصوَّره بأبشع الصُّور!!

ـ أعلم ذلك، ولكن ما علاقة هذا بحديثنا؟!!

ـ وهل يجوز لنا أن ندعم أعداءنا، ونمدُّهم بالمال ليستخدموه في تقتيل إخواننا المسلمين؟!!

فقال متعجِّبًا:

ـ وهل أفعل ذلك أيضًا؟!!

ـ إن كثيرًا من البضاعة التي تباع في المحلات التجارية في بلدان المسلمين مستوردة

من هذه الدول، وبما أن هذا المركز مشهور في البلاد، ويرتاده مئات وآلاف الناس في كل يوم، ولأن غالبية البضاعة التي لديكم مستوردة من الدول المحاربة للمسلمين أو المحتلة لأراضيهم فإنكم بفعلكم هذا تدعمون تلك الدول، بل وكأنكم تُحرِّضونهم على قتل إخوانكم المسلمين!!

ـ وما هي الدول التي نستورد نحن منها، وهي محاربة للمسلمين؟

ـ غالبية الدول الغربية ـ بما فيها أمريكا وبريطانيا ـ تشُنُّ حروبًا على المسلمين، وكثير من الدول الأخرى ـ وحتى الشرقية منها ـ لا تُخفي عداءها للإسلام والمسلمين، بل إني أريد أن أخبرك أكثر من ذلك!!

ـ وما ذاك؟

ـ إنكم تبيعون بضائع مصنعة في إسرائيل!!

ـ هذا غير صحيح!! إنه لا توجد في هذه البلاد فضلًا عن هذا المركز أية بضاعة مصنعة في إسرائيل!!

ابتسمتُ وقلتُ:

ـ إن إسرائيل تغزو أسواق المسلمين ببضاعتها، ولكن بطريقةٍ غير مباشرة؛ فبضاعتها قد تصلنا عن طريق أمريكا أو دول أوروبا، وقد تصلنا ـ أحيانًا ـ على أنها منتجات عربية، بل إنك ستعجب إن قلتُ لك بأن إسرائيل قد فتحت لها مصانع في العديد من الدول الإسلامية، وفتحت شركاتها فروعًا لها في بعض البلدان العربية والإسلامية!!

ـ وأين الحكومات من هذه المهزلة؟!!

ـ إن الحكومات على علم بذلك، بل إن وفود إسرائيل تأتي إلى بلدان المسلمين باستمرار، وتعقد صفقاتٍ مع مسؤولي الحكومات!! وكما أخبرتك فلا يمكن أن يدخل

شيءٌ إلى بلدان المسلمين دون أن تعلم به الحكومات، ولكن همَّهم ليس الدين ومرضاة اللَّه، وإنما أن تمتلئ جيوبهم بالأموال.

كذلك، هم يعلمون أن كثيرًا من البضائع التي تجلب من الخارج فيها مخالفات شرعية، بل ويعلمون أن كثيرًا من المنتجات المنتشرة تحتوي على مواد مسرطنة، ولكنهم لا يفعلون شيئًا لأنهم يحصلون على عمولات ورشاوى مقابل سكوتهم عن ذلك!!

دور التاجر المسلم في الإصلاح والدعوة

تأثر الرجل من هذا الكلام، وبدأ يجهش بالبكاء، ويهزُّ رأسه، ويقول:

ـ قاتلهم اللَّه.. قاتلهم اللَّه.. ألا يكفي أن يُدخِلوا أنفسهم النار؟!! أيريدون أن يُدخِلونا معهم؟!!

ـ إن الانفعال والدعاء عليهم بالويل والثبور لا يكفي، وإنما على المؤمن أن يسعى إلى تصحيح الأوضاع ومساعدة الناس في عدم الوقوع في مثل هذه الأمور.

ـ وبماذا تنصحني؟

ـ تعلم أن اللَّه قد فتح عليك من النعم والرزق الشيء الكثير، وعليك أن تستغله فيما يرضيه سبحانه؛ فعليك أولًا التخلُّص من كل ما يمكن أن يكون فيه حرمة أو شبهة، سواءٌ أكان يباع في البقالة أم في المحلات الأخرى، وما ذكرته لك مجرد أمثلة، وعليك القيام بتحرياتك الخاصة عن البضائع والسلع التي تباع في البقالة، ثم توسع تحرياتك لتشمل المركز بأسره، ثم تخرج إلى محيط الناس وتفعل الشيء نفسه، ثم عليك ثانيًا إخراج زكاة أموالك كما افترضها اللَّه عليك، وأما ثالثًا فعليك تسخير أموالك في مساعدة الفقراء والمحتاجين، ويُفضَّل أن تكون مساعداتك لهم من خلال مشاريع يستفيدون منها.

ـ هل تقصد أن أقوم بكل ذلك بنفسي؟!!

ـ ليس بالضرورة، فأنت إنسانٌ مشغول، وإنما عليك انتقاء الأشخاص الذين يمكنهم القيام بذلك، والذين يجب أن يجمعوا بين الفقه في دين اللَّه والغيرة عليه، وبذلك تستطيع أن تُبرِّئ ذمتك أمام اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ فيما يباع في هذا المركز، وتضمن أن لا يدخل جيبك إلا حلال، وعندما ترى أن الأمر قد بدأ يؤتي ثماره يمكنك إنشاء مؤسسة خاصة لذلك بحيث تستطيع خدمة شرائح عريضة من المجتمع.

كذلك، عليك أن تستغل نفوذك في الدولة ومكانتك في المجتمع لتثقيف الناس والمسؤولين في الحكومة حول الأمور التي تحدثنا عنها، ومحاولة إقناعهم أن ينتهجوا النهج نفسه، وبهذا تكون قد أسهمتَ في حماية المجتمع من الفساد، ودفعه إلى الصلاح، وفوَّتَ الفرصة على أعداء هذه الأمة.

ـ إنها اقتراحاتٌ جيدة، وبإذن اللَّه سأشرع في تنفيذها.

ـ كذلك، كما تعلم فإن كثيرًا من الناس يلجؤون إلى كل ما هو مستورد، حتى وإن كانوا يعلمون حرمته أو تلبُّسه بشبهة، ويتعلَّلون بأنه لا يوجد لديهم البديل، وإني أقترح عليك أن تساعد الناس في الحصول على البديل.

ـ وكيف ذلك؟

ـ لنأخذ مثالًا واحدًا فقط. لقد تحدثنا عن وجود لحوم ودواجن غير مذبوحة وفق الشريعة الإسلامية تباع في هذا المركز وغيره من المراكز والبقالات، وبإمكانك إيجاد البديل بطريقتين: إما بإنشاء مزارع للمواشي والدواجن، ومسالخ لذبحها، ومصانع لتقطيعها وتغليفها، وتكون بذلك قد أسهمتَ في توفير الناتج المحلي، واللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ سيبارك في هذا الأمر، وعندما يعرف الناس وجود البديل فإنهم سيطلبونه من هذا المركز أو من غيره.

أظن أن هذا الأمر مقدورٌ عليه؛ فأنا بحمد اللَّه أمتلك بعض المزارع والأراضي التجارية، ورزقني اللَّه المال الذي أستطيع من خلاله فتح مصانع ومسالخ، وبإذن اللَّه سأبدأ في هذا أيضًا.

ـ وأما إن رأيتَ أن هذا الأمر فيه صعوبة، أو أن الناس لا زالوا يستوردون اللحوم والدواجن من الخارج، فيمكنك ـ بحكم مكانتك في السوق ـ التفاوض مع الشركات المورِّدة لتقوم أنت بدور الإشراف على شرعية الإجراءات التي يقومون بها في الذبح والتقطيع والتغليف وغير ذلك، وبذلك تكون قد حقَّقْتَ ولو أمرًا يسيرًا في هذا الجانب، وهو طمأنة الناس بحِلِّية ما يأكلون.

ولتحقيق هذا الجانب، يمكنك توظيف فريقٍ من ذوي العلم الشرعي والخبرة، وإرسالهم إلى الدول المختلفة ليطَّلعوا على ما يجري هناك في مصانع اللحوم والدواجن، ثم يمكنك بعدئذ توظيف أفرادٍ من هذا الفريق أو من أهالي تلك الدول المسلمين الذين تثق في أمانتهم وفهمهم لأحكام الشريعة؛ بحيث يقومون بدور التذكية الشرعية، بالإضافة إلى الإشراف على العمليات الأخرى لضمان موافقتها للشريعة الإسلامية.

ـ قد يتطلب هذا الأمر الكثير من التنسيق، ولكنه ـ بلا شك ـ إن تحقق فإنه لن يخدم هذه البلاد فقط، وإنما الكثير من بلدان المسلمين، وأظن أن تلك الشركات حريصة على طمأنة زبائنها بجودة منتجاتها، وسأحاول ـ بإذن اللَّه ـ إقناعها بهذا.

ـ بالتأكيد، فإن تلك الشركات حريصة على رفع مستوى مبيعاتها في مناطقنا، وإنها ستتشجع كثيرًا عندما ترى أن هناك ما يمكن أن يزيد من طمأنة زبائنها بحِلِّية وجودة منتجاتها.

ـ أظن أن الاقتراحات التي قدمتَها لي تكفيني في هذا الوقت، وبإذن اللَّه سأكون على اتصال بك لأخبرك بالتطورات في هذا الجانب.

ـ وأنا أوافقك الرأي، فإنه خيرٌ للإنسان أن ينجز ولو أمرًا بسيطًا بدلًا من تشتيت جهوده في نطاقات كثيرة قد لا يستطيع إنجاز شيء منها.

رأيتُ الانشراح باديًا على وجه الرجل، فقال:

ـ واللَّه يا ولدي، عندما بدأتَ تخبرني بما يجري في هذا المركز كنتُ أمقتك من قلبي، ولولا احترامي لمكانتي لهممتُ بضربك، ولكني أُشهِد اللَّه بأني قد بدأتُ أحبك من قلبي، وإني أعاهدك وأعاهد اللَّهـ سبحانه وتعالىـ بأن أراقبه في جميع معاملاتي، وسأتحرىـ بإذن اللَّهـ ما يباع في هذا المركز، وبلا شك فسأحتاج لاستشارتك في بعض الأمور!!

ـ بإذن اللَّه لن آلو جهدًا في نصحك، وإن خفي عليَّ أمر فسأتحرَّى ذلك من أهل العلم.

ـ وأريد أن أشكرك من أعماق قلبي على ما بصَّرتني به من أمور، وأسأل اللَّهـ سبحانه وتعالىـ أن يجزيك عني كل خير.

ـ وأنت سامحني إن كنتُ أثقلتُ عليك في الحديث، أو أغلظتُ عليك في القول، فإني أُشهِد اللَّه أني ما أردتُ من فعل ذلك إلا الخير لي ولك.

ـ أعلم ذلك.

حوار مع طبيب

الحوار الأول:
الركائز العلمية والأخلاقية للطبيب المسلم

كنتُ أتردَّد بين المستشفيات، أحاول أن أجد إجابات مُرضية لما أعاني منه من أوجاع وآلام شديدة في الظهر والرجلين، رغم أني أجريتُ عمليتين في الظهر في مدة لا تتجاوز ثلاث سنوات، وكان بعض الأطباء يقترحون عليَّ العلاج الطبيعي، وبعضهم يقترح تخفيف الوزن، وغيرهم يقترح تغيير نمط الوجبات التي أتناولها وأنواعها، بالإضافة إلى طريقة النوم والقعود، وقد جرَّبتُ معظمها إلا أنها لم تُجْدِ شيئًا غير تسكين الوجع لفترات قصيرة.

وشاء اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ أن يتصل بي أحد زملاء العمل ويُخبرني بأن متخصِّصًا مشهورًا في أمراض العمود الفقري سيزور أحد المستشفيات الخاصة، وعندما أخبرني باسمه عرفته للتوِّ لشهرته وحديث الناس عنه.

حجزتُ موعدًا مع الدكتور عمر، وكان أول ما شدَّ انتباهي عندما قابلته هيأته، فلو كنتُ قابلتُه في مكان آخر لظننتُ أنه أحد الـمُفتين أو مشائخ العلم؛ فكان ملتحيًا، ويرتدي الزيَّ الإسلامي، ويضع أعلاه قميص المهنة الأبيض، وكان يبدو عليه من الوقار والسكينة وبشاشة الوجه ما يشدُّ انتباه مَن يراه، فاستبشرتُ به خيرًا.

التواضع والتقوى من شِيَم الطبيب الناجح

قام من كرسيه ليصافحني، وعندما رأى بوادر الوجع بادية عليَّ أمسك بي وأجلسني رويدًا رويدًا على الكرسي، ثم قال:

ـ يبدو عليك أنك تتألم كثيرًا.

ـ هذا صحيح، فأنا أعاني من وجع الظهر لسنوات طويلة، وقد أجريتُ العملية الأولى منذ سنتين ونصف، وأحسستُ بتحسُّنٍ مؤقت، ولكن الأوجاع عادت إليَّ مرة أخرى، فأجريتُ عملية ثانية منذ حوالي عام، ولا زلتُ أعاني من الأوجاع.

مددتُ له ملف الأشعة والتقارير الطبية التي أحضرتها معي، وقلتُ:

ـ حاولتُ أن أُحضِر لك كل شيء.

أخذ يتصفَّح التقارير، ثم الأشعة، ثم قال:

ـ للأسف، إن العمليات التي أجريتَها لم تكن صائبة.

فقلتُ بسرعة:

ـ وهذا يتَّضح من عودة الآلام بسرعة.

ـ إن عمليات العمود الفقري لا يُتقنها إلا القليلون، وكثير من الناس يقعون فريسة للأطباء الجهلة الذين لا يُتقنون مهنتهم، وإنما همُّهم الحصول على أموال الناس!!

ـ وماذا عليَّ أن أفعل الآن؟

ـ يمكنني القيام بعملية ثالثة لتصحيح العمليتين السابقتين، وأيضًا لعلاج الأعراض التي لا زلتَ تعاني منها.

ـ وهل تضمن بأن كل ما أعاني منه سيزول؟

ـ نحن الأطباء نحاول جهدنا أن نساعد المريض بكل ما آتانا اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ من علم وفهم وخبرة، ولكن ـ كما تعلم ـ فإن إعطاء الضمانات ليس من شيمة الأطباء الناجحين، وخاصة عندما يتعلق الأمر بالقضاء والقدر والتوكل على اللَّه ـ سبحانه

وتعالى-. إن ما نفعله هو أن نتوكل عليه سبحانه، ونطلب من المريض أن يتوكل عليه، ونخبره بأننا سنحاول- بإذن اللَّه- تقديم ما نستطيع من علاج، ومع ذلك نوقن أن الأمر كله بيد اللَّه، ونحاول أن نُفهِم المريض بأنه إذا أراد اللَّه شيئًا فلا راد لمشيئته.

أحسستُ بالاطمئنان من هذا الكلام، فهو ينمُّ عن صدقٍ وإيمانٍ عميق باللَّه- سبحانه وتعالى-، فقلتُ له:

- إني أكِل أمري إلى اللَّه، وأحسبني في أيدٍ أمينة.

نكَّس الدكتور رأسه، وقال:

- جزاك اللَّه خيرًا، وكما قلتُ لك، فمهما أوتينا من علم، فطبيعتنا نحن البشر القصور والضعف.

- هذا صحيح، وإني أريدك أن تُحدِّد لي موعدًا للعملية في أقرب وقت.

أخرج بعض الأوراق، ثم قال:

- سنقوم أولًا ببعض الفحوصات المبدئية، ثم نتفق فيما بعد حول العملية.

الطبيب المسلم وحرصه على حياة الناس

قلتُ:

- وكم ستكلفني العملية؟

- بإذن اللَّه لن تكلف إلا اليسير؛ فأنا لا أتَّخذ المهنة للربح، وإن ما أحصل عليه هو فقط لتغطية نفقاتي ونفقات أسرتي!!

- ولكنك متخصِّص معروف، ومن حقك أن تشترط المبالغ التي تراها مكافئة للعمليات التي تقوم بها.

ـ هذا صحيح في عُرف الناس اليوم، ولكني لا أريد أن أكون مثلهم.

ـ وكيف ذاك؟

ـ إني أدرك أن ما لديَّ من علم وفهم وخبرة ليس من حولي ولا قوتي، وإنما هي منة من اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ، ولذا عليَّ أن لا أستغل تلك النعمة لابتزاز أموال الناس، والمولى ـ سبحانه ـ يقول: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ (النحل: ٩٦)، وأُدرك أن من المصابين بهذه الأمراض مَن هم من الفقراء والضعفاء وممن تقلُّ المادة والاستطاعة عندهم، ولولا ما يعانون منه من أمراض وعِلل لَـما اضطرُّوا إلى إنفاق ولو جزءٍ يسيرٍ مما ينفقونه أثناء ترددهم على المستشفيات.

ـ ما شاء اللَّه، هذا فكرٌ وفهمٌ ينمُّ عن رسوخٍ في الإيمان والاعتقاد، ونُبلٍ في المبادئ والقيم.

ـ الحمد لله، هذا كله من فضل ربي، وإن أكثر ما أخاف منه أن أسيء استغلال هذه النعمة فيحرمني ربي منها.

ـ إن غالبية الناس في هذا الزمان ـ سواءٌ أكانوا من الأطباء أم من غيرهم من المهنيين ـ يعتبرون المهنة فرصتهم لتجميع الثروات، حتى وإن كانت على حساب الآخرين.

ـ هذا صحيح، وللأسف الشديد فهم لا يدركون أن هذه النعم قد آتاهم اللَّه إياها ـ سبحانه وتعالى ـ، وأنه قادرٌ على حرمانهم منها في أيِّ وقت.

المزالق التي يتعرَّض لها طالب الطب في أيام تخصُّصه

ـ ما أعرفه وأشاهده هو أن كثيرًا ممن ينتسبون إلى مهنة الطب يكونون في البداية ممن آتاهم اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ الذكاء والفطنة والدراية، وبحكم ذلك فكثيرٌ منهم يكونون على درجة عالية من الإيمان والتقوى، ولكن ما إن يُمضي الواحد منهم بعض

السنوات في تخصُّصه حتى يبدأ في البعد عن الدين، ويكون ذلك واضحًا في التغيُّر الذي يحدث في ملامح وجهه وملابسه وعلاقاته وغيرها من الجوانب، وأحيانًا تتطور الأمور حتى ينأى الشخص بعد تخرجه وممارسته لمهنة الطب عن حياة الناس، ويتدنى مستواه الإيماني، وربما الفكري والعقدي، وما يُحيِّرني هو أنه كيف استطعتَ أن تبقى على هذه الحال من الإيمان والتقوى والفكر السديد رغم وصولك إلى مرتبة المتخصِّصين، ورغم شهرتك القُطْرية والدولية؟

ـ اعلم يا أخي أن الحياة الدنيا هي دار ابتلاء، وما تفوُّق الإنسان ونبوغه إلا نوع من الابتلاء من اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ، ليرى منه إن كان سيُحسِن شكر تلك النعم ويستغلها في طاعته، أم يجعلها فيما يغضبه سبحانه ويباعده عنه.

ومَن يدرك أنه يحمل رسالة تُحدِّد مصيره الدنيوي والأخروي فلا بُدَّ من أن يستميت في تبليغها للناس، وبأكمل وجه، وبحمد اللَّه ومنته رسخت هذه العقيدة في قلبي منذ أن كنتُ في السنوات الأولى في الجامعة، وقد نبَّهني كثيرٌ من زملائي الطلاب الذين يدرسون الطب في ذلك الوقت، وبعض الإخوة والأساتذة الفضلاء من أن طالب الطب يتعرض للكثير من التحديات، ومنها الاختلاط، ومنها أهمية تكريس الوقت للتعمُّق في التخصُّص بحيث يتأهَّل ليصل إلى مرحلة التميُّز، وفي الوقت نفسه لا ينعزل عن مجتمعه، وإنما يقوم بما يفترضه عليه دينه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى اللَّه سبحانه وتعالى.

ونبهني هؤلاء الإخوة ـ جزاهم اللَّه خيرًا ـ أيضًا إلى الأمرِ الخطير وهو داء الكِبْر الذي يتعرض له كثير من الأطباء، وهو التكبُّر والتعالي على الآخرين بحكم مستوى الطبيب العلمي والفكري وحتى المالي والاجتماعي، وقد وجَّهوني لأستفيد من مهنة الطب لا للتعالي على الناس، وإنما للتقرُّب إليهم وإيصال كلمة الحق لهم.

وما ذكرتَه من انحراف الشباب والفتيات ممَّن تخصَّصوا في الطب صحيح، وقد كان

بعض زملائي يُعتَبرون من الدعاة، وكان لا يقرُّ لهم قرار إلا وهم ينشرون كلمة الحق، ويَصْدَعون بها، سواءٌ في أرجاء الجامعة أم خارجها، ثم تم استدراجهم رويدًا رويدًا إلى حبائل الشيطان إلى أن تركوا الدعوة، ثم فرَّطوا في كثيرٍ من العبادات، ثم آل الحال ببعضهم- والعياذ باللَّه- إلى أن ينخلع من دينه وإيمانه.

وقد كنتُ أُذكِّر نفسي في تلك المراحل بأني صاحب رسالة، وأن مهنة الطب مطيَّتي لتبليغها، ولذلك كنتُ متنبِّهًا إلى تلك المزالق، وكان بعض الإخوة- جزاهم اللَّه خيرًا- يُذكِّرونَني دومًا بها، وحاولتُ أن لا يطغى اهتمامي بالمهنة على اهتمامي بديني ودعوتي وأمتي.

وعندما يضع الإنسان كل ذلك بعين الاعتبار، ويشحذ همته للوصول إلى مراده، وفي كل ذلك يبقى متمسِّكًا بدينه متوكلًا على خالقه، فإن تلك الصعوبات والتحديات تصبح بمثابة الفرص للإنسان، وما عليه إلا أن يُحسِن استغلالها وتوجيهها لما يخدم دينه وأمته.

- يبدو أن أخطر التحديات التي تواجه الطبيب- سواءٌ أكانت في دراسته أم مهنته- هي الاختلاط، فما تعليقك على ذلك؟

- إنها ظاهرة خطيرة بحق، وقد تُودي بالإنسان- وخاصة الطبيب- إلى مزالق كثيرة في حياته؛ فطالب الطب يحتك بزميلاته الطالبات، واللاتي يتفنَّن في لباسهن واقتناء ما استجدَّ من أصباغ وعطور، وأيضًا بحكم مستواهن الثقافي والعلمي تندفع النفس بسهولة إليهن، إذا لم يستطع التحكُّم فيها.

وكثير من بيئات الطب تُحفِّز على هذا الاختلاط؛ فالأساتذة يدعون طلابهم للتشكُّل في مجموعات، ويُحفِّزونهم على تقديم العروض وحضور حلقات النقاش في مجموعات، مما يؤدي إلى قضاء الساعات الطويلة جنبًا إلى جنب، ولا يشعر الواحد منهم إلا وقد أفضى إلى أمورٍ لا يرضاها اللَّه- سبحانه وتعالى- من الخلوة والكلام الماجن وغير ذلك، ناهيك عن النظرات والضحكات وحركات الإثارة.

كل هذه الأمور لا تؤثر على الطالب من الناحية الدينية فقط، وإنما حتى من الناحية العلمية؛ فيصبح همُّه التواصل مع زميلته، وهمُّها تأنيق مظهرها وتجميله لكي تجلب إليها الأنظار، فتضيع الأوقات في الأحاديث الغزلية وغيرها من توافه الأمور، ويؤثر كل ذلك سلبًا على الدراسة، مما يجعل الطالب يتخرج بمعدلات لا تؤهله لممارسة مهنة الطب، وقد تجبره على التحوُّل إلى تخصُّصات أخرى.

ـ وهل تتوقف خطورة هذا الأمر على مرحلة الدراسة فقط؟

ـ طبعًا لا؛ فالطبيب ـ وهو يمارس مهنته ـ يتعرض إلى فتنة الاختلاط بأسوأ مما كان عليه الوضع في الدراسة؛ فهو يحتك بصفة يومية بوجوه جديدة من الجنس الآخر، ويتفنَّن في حديثه وتصرفاته لكي يجذب انتباه المتردِّدين عليه من المرضى والمراجعين.

كذلك، قد يحتاج للكشف على مرضاه، ويرى مواضع لا تجوز له رؤيتها، والخطورة هنا أن يتمادى في النظرات والتشهِّي بما يرى، وخاصة إذا لم يكن عنده الخوف من مراقبة اللَّه ومحاسبته له على ما يقوم به، وأن لا يتعدى ما تدعو الحاجة لرؤيته حاجته لتشخيصه أو علاجه.

وأيضًا، فالطبيب يحتك بصفة يومية مع زميلاته الطبيبات والموظفات الأخريات، فتحدث ـ وخاصة في ساعات المناوبة الليلية ـ الكثير من الفرص للجلوس سويًّا، والحديث في الأمور التي يدخل الشيطان من خلالها لتهيئة الأجواء في الوقوع في المحرمات.

ابتسمتُ وقلتُ: اعذرني يا دكتور، ولكن يدور بداخلي تساؤل، وأرجو لو تجيبني عليه، ولكني في الوقت نفسه أعلم أن هناك مرضى ينتظرون في الخارج.

ـ ولماذا لا نُكمِل الحديث في المرة القادمة بإذن اللَّه؟

ـ واللَّه إنه لرأيٌ سديد، ولكن لا أريد أن أشغلك عن عملك.

ـ سنلتقي في المطعم، ونتناول كوبًا من العصير، ثم نواصل حديثنا، وعليك اليوم إجراء الفحوصات المطلوبة، وستُخبرك الممرضة بالموعد القادم، وبعد أن تظهر نتائجها سأراك ـ بإذن اللَّه ـ مرة أخرى لنُحدِّد موعدًا للعملية.

ـ اتفقنا بإذن اللَّه، وإني لأرجو أن لا يطول ظهور نتيجة هذه الفحوصات، فإني أريد التخلُّص مما أعانيه في أسرع وقت.

ـ لن تأخذ وقتًا طويلًا بإذن اللَّه، ولكن لا تنسَ أن الأمر كله بيد اللَّه، ولذا فعليك الإكثار من التضرُّع إليه ـ سبحانه ـ لتخفيف ما تعاني منه من أوجاع ومضاعفات.

الحوار الثاني:
دور الطبيب المسلم في الدعوة والإصلاح

عندما التقيتُ بالدكتور عمر بعد حوالي أسبوع من لقائي السابق، فاتحني بقوله:

ـ كنتَ في اللقاء السابق تريد أن تسألني عن أمر، فما هو؟

ـ كما تعلم هناك بعض الأطباء المتمسكين بدينهم، والذين استطاعوا تجاوز العقبات والتحديات التي تحدثنا عنها من قبل، ولكنهم لم يتجاوزوا الالتزام إلى الاستفادة من الفرص المتاحة لهم من خلال مهنتهم واستغلالها في الدعوة إلى اللَّه، فكيف تنظر إلى هذا الأمر؟

ـ إني أكاد أجزم أنه لا تتاح فرص للدعوة إلى اللَّه لأحد من الناس مثل ما هي متاحة للطبيب؛ فالطبيب يُقدِّم خدمات للآخرين، ولذا فهو بمثابة اليد العليا التي تعطي، والناس مجبولون على ذكر المعروف، وشكر مَن يُقدِّم لهم صنيع الخير، وأيضًا فإن الإنسان في حالة المرض يكون أقرب نفسيًّا إلى تلمُّس الحق، الذي كثيرًا ما يتوارى عن القلب في عنفوان القوة والصحة، ولذلك فقد يكون هذا بابًا يستطيع الطبيب الداعية النفاذ من خلاله إلى مرضاه، ويبني معهم علاقات طيبة من خلال مراجعاتهم له، أو حتى بالتواصل معهم في خارج أوقات عيادته، ولكن بشرط أن تكون حسب الضوابط الشرعية.

ـ من ناحية المبدأ فإن الأمر كما أشرتَ إليه، وهو أننا كلنا أصحاب رسالة، وأن اللَّه قد ائتمننا عليها كما ائتمن مَن قبلنا ومَن سيأتي بعدنا، ولكن مغريات الحياة وقسوة ظروفها جعلت الناس ينسون ـ أو يتناسَوْن ـ تلك الغاية، وإني موقنٌ بأن مهنة الطب من

أشرف المهن، ليست فقط لأنها تلامس حياة الناس بصورة مباشرة، ولكن لكونها أيضًا وسيلة مهمة لتبليغ رسالة اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ إلى العالمين.

ـ صدقتَ؛ فغالبية الأطباء من المسلمين يتقنون اللغة الإنجليزية، وهي فرصتهم للتواصل مع عالم فسيح ينتظر منا أن نُوصِل إليه كلمة الحق، ولكن هناك أمرٌ مهمٌّ جدًّا، وخاصة في مجال الطب.

ـ ما هو؟

ـ إن غالبية الأطباء ـ إلا مَن رحم اللَّه ـ يعانون من داء الكِبْر؛ فهم يرون أنفسهم طبقةً راقية علميًّا وفكريًّا وماديًّا، ولذلك فكما أنهم لا يُنزلون أنفسهم إلى مستويات الناس، فكذلك لا ينزلون إلى مستويات بعضهم البعض إلا في النادر اليسير، ولذلك فإيصال الحق إليهم من عامة الناس ـ أو حتى من خلال زملائهم في المهنة ـ ليس بالسهل والأمر بالهيِّن. وقد حذَّرنا ـ سبحانه ـ من هذا الداء العضال في قوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص: ٨٣)، ونبينا ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ يقول: « **لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ** »[1].

ـ إذن، هل سيبقى الحال هكذا؟!!

ـ طبعًا لا، فهناك وسيلة مهمة لإيصال هذه الرسالة إلى هؤلاء، وهي من خلال تميُّز الطبيب؛ فعندما يكون على درجة عالية من التميُّز في تخصُّصه، ويحظى بمكانة مرموقة علميًّا فإن كلمته ـ بلا شك ـ ستكون ذات أثر، سواءٌ أكان مع المرضى أم مع زملاء مهنته.

فيمكن للطبيب الداعية أن يستفيد من مركزه الاجتماعي وقدراته المالية في خدمة دين اللَّه وأمة محمد ﷺ؛ فكلمة الطبيب نافذة ومسموعة ومُرحَّب بها في معظم المواقف، وإذا

(١) رواه مسلم (حديث رقم: ٩١)، والترمذي (حديث رقم: ١٩٩٩)، وأحمد (حديث رقم: ٣٩٤٧).

اقترن فقه الطبيب في تخصُّصه ومهنته مع فقهه في دينه وواقعه، كان ذلك سببًا لأن تُفتح له آفاقٌ لا يستطيع أن يلج إليها غيره من شرائح المجتمع؛ فالطبيب عندما يريد ترسيخ معاني الإيمان في نفوس الناس ويأتي لهم بآية أو حديث فيه من الإعجاز ما يُطمِئن القلوب الحائرة والتائهة يكون كلامه ذا وقع أكبر مما لو قاله واعظٌ أو فقيهٌ متخصِّص في علوم الشرع، وما يمكن أن يُقوِّي ذلك استناد الطبيب إلى الحقائق العلمية في تخصُّصه، فيَقرِن هذا بذاك، فيصبح للكلام أثرٌ في قلوب الناس، والطبيب يتعرض لكثير من المواقف والحالات مع مرضاه، فيستطيع أن ينقل قصصًا من تلك المواقف للناس بحيث تُرطِّب القلوب وتشدُّ العقول.

أما بالنسبة للمال، فبإمكان الطبيب أن يُعِين إخوانه من أبناء جلدته وممن ينتسبون إلى أمته، سواءٌ أكانت إعانة مالية مباشرة، أم كانت من خلال إقامة المؤسسات النافعة، أم من خلال وضع برامج تعليمية وتدريبية ترتقي بمستوى أبناء هذه الأمة، ولا ننسى الدور الرائد الذي يقوم به الأطباء في الأزمات والكوارث، والطبيب المسلم الداعية يمكنه استغلال هذه الظروف لإيصال كلمة الحق للناس، بنفس القدر الذي يُوصِل إليهم الغذاء والدواء.

كذلك، للطبيب المتعمق في تخصُّصه، المتفقه في دينه، دورٌ مهم في دفع زملائه من الطلاب والمهنيين في مجال الطب، وحتى في غيره من المجالات، لتكريس الأوقات للتميُّز في تخصُّصهم، والالتزام بدينهم والاستقامة على منهج ربهم.

دور الطبيب المسلم في دعوة غير المسلمين إلى الإسلام

قلتُ:

ـ ما شاء اللّه، إنك محقٌّ عندما قلتَ بأن الفرص الدعوية المتاحة للطبيب قد لا تتاح لغيره من الناس، وأجزم بأن مكانة الطبيب العلمية وتمسُّكه بدينه قد يكونان ذوا أثر حتى على غير المسلمين.

ـ هذا صحيح؛ فنحن كثيرًا ما نحضر المؤتمرات والندوات العلمية، سواءٌ في بلداننا أم في الدول الأجنبية، وقد يثير منظر الطبيب المسلم المستقيم على دينه، وهو بلحيته وسكينته ووقاره وأدبه الجم في التعامل مع الناس، أو الطبيبة المسلمة بحجابها المتميِّز، قد يثير كل ذلك تساؤلات في أفئدة الآخرين.

لذلك، إن هيئة الطبيب وسلوكه وتميُّزه في تخصُّصه قد يدفع غير المسلمين إلى فتح أحاديث وحوارات معهم، وتكون فرصة للطبيب المسلم الداعية لإبلاغ كلمة الحق إليهم. إن كثيرًا من غير المسلمين ينظرون إلى الوقائع والحقائق نظرة تجريدية مرتبطة بالطبيعة، وليس لها علاقة باللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ، وبعضهم قد يُوقِن بأن هناك قوة روحية لها أثر في تسيير العالم، ولكنه لا يعرف بأن اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ هو المهيمن والمسيطر على هذا الكون، وأنه لا ينفذ أمر إلا بمشيئته وإرادته.

وعندما يبدأ الآخر في التعرف على هذه الجوانب تكون فرصة للطبيب المسلم للتواصل والتحاور معه، وقد يستفيدان من بعضهما البعض فيما يتعلق بمهنة الطب، وأيضًا فيما يتعلق بالتمسك بهذا الدين ودعوة غير المسلمين إليه.

ولا يخفى أن كتاب اللَّه وسنة نبيه ﷺ يزخران بالكثير من دلائل الإعجاز ما يمكن أن تجعل الطبيب غير المسلم لا يملك إلا التسليم بأن هذا الدين حق، وأنه ما جاء إلا بوحيٍ من اللَّه.

دور الطبيب المسلم في إبراز الصورة المشرقة لتاريخ المسلمين

قلتُ:

ـ وأظن أن لاحتكاك أطباء المسلمين الدعاة وطبيباتهم الداعيات بأطباء الغرب والشرق فائدة أخرى مهمة.

ـ ما هي؟

ـ تعلم أنه كان للمسلمين في القرون الأولى من تاريخهم قَصَبُ السَّبْق في العلوم المختلفة، وخاصة الطب، ومع مرور السنين تقاعس المسلمون عن دورهم في هذه الحياة، فانتقل الطب ـ كما انتقلت غيره من العلوم ـ إلى بلدان الغرب، وأصبح الغرب يُشكِّل مرجعية في شتى العلوم، وبما فيها الطب، وقد أدى هذا إلى إصابة الغرب بحالة من الشعور بالاستعلاء على المسلمين وغيرهم، وأصيب ضعاف الإيمان من المسلمين بحالة من الشعور بالنقص والعجز عن مواكبة الغرب، ولكن الحقيقة هي أن في الإسلام من المبادئ والقِيَم ما يمكن أن تُبهِر الغرب والشرق، ولذلك فإني أرى أن احتكاك الطبيب المسلم بالأطباء غير المسلمين مهم لتوضيح ما قام به المسلمون في الماضي، وما يمكن أن يقوموا به في الحاضر والمستقبل.

ـ جزاك اللَّه خيرًا على تبيان هذه النقطة الحساسة، وإنها لمن الأمور التي كثيرًا ما أتحاور فيها مع زملاء مهنتي من المسلمين، وأحاول تذكيرهم بها دومًا، وأعتبرها جزءًا من رسالة الإسلام التي عليهم حمل همِّ توصيلها وتوضيحها للغرب.

ومع إدراكنا لحالة الاستعلاء والغرور التي أصابت الغرب، وحالة الاستكانة والضعف التي عند المسلمين، كما أشرتَ إليهما، فإننا نسعى أن لا نترك هذا الأمر إلى جهود الأفراد ومشاركاتهم، وإنما نعتبره لزامًا عليهم، إن أرادوا مواصلة مزاولة مهنة الطب.

ـ كيف تستطيعون حمل الأطباء على ذلك وإقناعهم به؟

ـ لن يكون الأمر سهلًا في البداية، فقد توجد معارضات حتى من الأطباء والإخوة من ذوي التوجه الرشيد والفكر السديد، ولذا فما ينبغي القيام به أولًا هو تعميق هذه المفاهيم في عقول الأطباء وطلاب الطب وأفئدتهم؛ فبالنسبة لطلبة الطب سنحتاج إلى إقناع كثير من جامعات الطب في بلدان المسلمين لتدريس مقررات خاصة تحكي للطالب تاريخه المشرق، والدور الذي يجب أن يقوم به في هذه الحياة الآن وفي المستقبل، وعلينا أن

نتولى هيكلة تلك المقررات وصياغة محتوياتها.

أما بالنسبة للأطباء، فعلينا إدخال الموضوع كواحد من المسارات في المؤتمرات والندوات التي تقام في بلدان المسلمين، وسيقتصر دورنا في البداية على أطروحات يتقدم بها بعض المخلصين من أطباء المسلمين وعلمائهم، ثم نُحوِّل الأمر تدريجيًّا ليصبح ظاهرة علمية فريدة من نوعها، إلى أن يصل الأمر أن يتبارى الأطباء والباحثون في طرح الموضوع وإشباعه دراسة وبحثًا.

ـ إنه لو حدث هذا بالفعل لكان تغييرًا حضاريًّا يشهد له التاريخ، ولكن، ماذا تتوقع أن تكون ردود فعل أطباء الغرب وعلمائهم حول هذه القضية، وهل سيعتبرون طرحها نوعًا من العنصرية، كما يحاولون تبرير تجاهلهم لقضايانا؟

ـ بإذن اللَّه سيكون الأمر عكس ذلك؛ فإنه من ناحية سيُثبت لنا طرح هذه القضية جهل الغرب والشرق بنا نحن المسلمين وبتاريخنا وحضارتنا، ومن ناحية أخرى فقد يعتبر علماء الغرب ومفكروهم طرح هذه القضية في محافلنا ومحافلهم كنزًا لا يُقدَّر بثمن؛ فهم يبحثون عمَّن يمكنه أن ينقذ العالم من الويلات التي يقاسي منها، وسيجدون ضالتهم في النماذج الحية والمخلصة من تاريخ المسلمين وحاضرهم التي نسوقها لهم، وعندها سيتبارَوْن في التسابق في هذا المضمار، وسيقومون برصد جوائز دولية ضخمة لكل مَن يضيف جديدًا في هذا الجانب، وستُدرك جامعات الغرب أهمية طرح هذه القضية، وعندها ستُدرِّس في مناهجها ـ ومنها مناهج الطب ـ مقررات تحكي تاريخ المسلمين وحضارتهم ودورهم في بناء حضارة الإنسان على هذه الأرض.

دور الطبيب المسلم في عمليات الإغاثة

قلتُ:

ـ إن هذا أمرٌ يثلج الصدر، ولذلك أريد أن أذكر أيضًا أن رسالة الطبيب المسلم

الداعية ذات أبعادٍ كثيرة، فيمكنه مثلًا القيام بدور كبيرٍ ومتميِّزٍ في مجال الإغاثة، وخاصة إذا علمنا أن التنصير ما انتشر إلا على أكفِّ الأطباء والطبيبات.

ـ صدقتَ، ولكن يجب التنبيه أولًا إلى أنه من الظلم والإجحاف في حقِّ الطبيب المسلم أن نقارن دوره في عمليات الإغاثة بما تقوم به الهيئات والمنظمات التنصيرية؛ فالطبيب المسلم لا يُقدِّم رسالة الإسلام للمتضرِّر كمقابل لما يُقدِّمه له من عون، وإنما يُقدِّم لهم الحق من خلال دماثة خلقه ومشاعره النبيلة والتفاني في رفع الأذى والضُّر عنهم.

وأريد أن أشير أيضًا إلى أن أطباء النصارى، رغم فساد عقيدتهم، إلا أنهم يستميتون في نشرها بكل ما يتأتى لهم من موارد وإمكانيات؛ فتجد بعضهم يسافر إلى دول أجنبية ويقضي فيها الأشهر والسنوات، لا لأجل تطبيب الناس وعلاجهم، وإنما في المقام الأول لينشر دينه وعقيدته من خلال ما يوزعه على مرضاه من مطويات ونشرات، أو من خلال الحوارات التي يُجريها معهم أثناء علاجهم.

كذلك، هناك من أطباء النصارى مَن يُسخِّر أمواله لبناء المستشفيات والمصحَّات المجانيةـ والمتنقلة في بعض الأحيانـ، سواءٌ أكانت في بلاده أم في بلدان أجنبية، وأظن أن على الطبيب المسلم الداعية أن يعي تلك الأساليب ويُقدِّم لإخوانه المسلمين، وللآخرين من غير المسلمين، ما يمكن أن يُذكِّرهم باللَّه ويعيدهم إلى شرعه ومنهاجه، وأما أن يستغل الطبيب منصبه لجني الثروات وتكثير العقارات، فإنهـ بلا شكـ مخالف لمبدأ الإنسانية التي عليه أن يتحلى بها مهما كان معتقده.

أهمية العمل المؤسسي للطبيب المسلم الداعية

قلتُ:

ـ يا أخي الكريم، إن وضع المسلمينـ كما تعلمـ لا يُحسدون عليه، وإذا لم يكن

للطبيب المسلم دورٌ ريادي في الدعوة إلى اللَّه، وهو على ما هو عليه من المكانة العلمية والاجتماعية وأيضًا بما بحوزته من إمكانيات وموارد، فكيف سيكون الحال بالنسبة لعامة المسلمين؟ وإنه- حسب تقديري- لا يمكن للطبيب الداعية أن يحصر جهوده الدعوية على ما يقوم به من أعمال فردية، وإنما يجب أن تتظافر جهود الأطباء لإقامة المشاريع النافعة- والمربحة دعويًّا- سواءٌ أكانت داخل بلدان المسلمين أم خارجها.

- ما أشرتَ إليه هو في غاية الأهمية، ولقد أدركتُ وبعض المخلصين من زملائي هذا منذ فترة، وسعينا بجهودنا المحدودة لإيجاد البديل لما تُقدِّمه منظمات ومؤسسات الإغاثة النصرانية، وقد كان من ثمرة ما قمنا به إنشاء مؤسسة دعوية خاصة بنا بدأتْ خدماتها أولًا في بلدنا هذا، ثم توسعنا لفتح مكاتب تمثيل لها في بلدان أخرى للمسلمين، وقد حاولنا من خلال احتكاكنا بزملائنا الأطباء- وفي بعض الأحيان من غير الأطباء- توفير ما تحتاج إليه هذه المؤسسة من كوادر وموارد وتمويل؛ فاستطعنا مثلًا إقناع بعض المخلصين من الأطباء وذوي التخصُّصات الأخرى لقضاء إجازتهم السنوية- أو على الأقل قسطٍ منها- في تسيير أمور هذه المؤسسة، وبعد مرور عدة سنوات على افتتاحها رأينا- بحمد اللَّه- آثارها الطيبة ونتائجها المبهجة.

وما نسعى إليه الآن هو مدُّ جسور التعاون مع المؤسسات الإسلامية الأخرى التي نثق بحسن توجُّهها وإخلاصها في خدمة هذا الدين، وكذلك نسعى لأن تكون لنا وسائلنا الإعلامية الخاصة بنا من قنوات إذاعية وفضائية وصحف ودور للنشر، بالإضافة إلى إيجاد مصادر دخل خاصة بنا، بحيث تريحنا من استجداء الناس لدعمنا وتمويلنا.

- ما شاء اللَّه، إن هذه الجهود تبشِّر- بإذن اللَّه- بالخير، ومع ذلك فأرى من الضروري توحيد الجهود بين الأفراد والمؤسسات، لأن القصد في النهاية مرضاة اللَّه- سبحانه وتعالى- وخدمة هذا الدين، وليس القصد كسبًا ماديًّا أو اجتماعيًّا أو مكاسب دنيوية أخرى.

أحسستُ بأني قد أخذتُ الكثير من وقت الدكتور، فقلتُ:

ـ يبدو أني قد أطلتُ كثيرًا في الحديث معك، وإني أعتذر عن ذلك.

ابتسم وقال:

ـ بل على العكس؛ إن الوقت الذي قضيناه في الحديث عن هذه القضايا لهو أنفع لي مما سواه، ولولا التزامي بمواعيد المرضى الآخرين، لتوسَّعنا في الحديث عنها.

قلتُ ممازحًا:

ـ أظن أن من حقِّك الآن ـ وقد عرفتَ أني ممن يجيدون الثرثرة ـ أن تفرض عليَّ رسومًا للعملية أكبر مما تفرضه على غيري، فإني ـ بلا شك ـ سأستأثر من وقتك بأضعاف الوقت الذي يحصل عليه غيري من المرضى.

ردَّ بابتسامة:

ـ بل على العكس؛ فإن من حقك أن تُعطى تخفيضًا لأنك تقوم بدور المؤنس والناصح.

ـ أشكرك يا دكتور على ما أفدتني به في هذه الجلسة، وإني أكرر لك اعتذاري على أخذ الكثير من وقتك.

ـ لا عليك، ولا تنسَ أن تأتي قبل الموعد المحدَّد للعملية بيوم ليتسنى لنا التجهيز لها.

ـ بإذن اللَّه.

د. صالح بن مطر الهطالي

مِنْ أجْلِكِ يا أمتي

حوارات فكرية وتربوية هادفة
مع النفس والأسرة والمجتمع

تقديم:

فضيلة الشيخ الدكتور/ محمد بن قاسم ناصر بوحجام

رئيس جمعية التراث، ولاية غرداية، الجزائر

رؤى